أوتو شتراسر

أنا وهتلر

ترجمة

عبد الحليم كساب

تقديم ومراجعة

د. محسن عبد المقصود

الكتاب: أنا وهتلر

الكاتب: أوتو شتراسر

ترجمة: عبد الحليم كساب

الطبعة: **2022**



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –

الجيزة - جمهورية مصر العربية

فاكس : 35878373

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

شتراسر، أوتو

أنا وهتلر / أوتو شتراسر، ترجمة / عبد الحليم كساب

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

185 ص، **18*21** سم.

الترقيم الدولي: **0 – 406 – 991 – 977 – 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **26993 / 2021**

أنا وهتلر



كلمة عن المؤلف

كان "أوتو شـــتراســـر" من زعماء الرايش، وكان أكبر معارض للنظام النازي، فوقف في وجه النازية وقفات لم ينسها "هتلر"، وما كاد "هتلر" يقبض على زمام الحكم في ألمانيا حتى اضـطر "أوتو شـتراسـر" إلى الفرار من ألمانيا إلى باريس، وأقام فيها إلى قبيل احتلال القوات الألمانية لها، ثم وجد نفســه مضـــطرًا إلى مغادرتها والذهاب إلى إنجلترا حيث أقام هناك.

وقد بدأ "أوتو شتراسر" حياته العملية في سن السابعة عشرة كجندي في الحرب العالمية الثانية في ســلاح المدفعية، ووفق إلى أعمال باهرة تدل على الشـــجاعة وقع خلالها أسيرًا في قبضة إحدى فرق المدفعية البريطانية.

وقد اشترك "شتراسر" بعد الحرب مع هتلر في الثورة الاشتراكية الأولى التي قام عليها النظام النازي، وبعد ذلك بأعوام انفصـــل عن هتلر بعد أن أبدى له رأيه بمنتهى الصراحة في سياسته.

و"أوتو شتراسر" هو شقيق "جريجور شتراسر" ومساعده في إنشاء الحزب النازي بإقليم ألمانيا الشـــمالية، وقد كان "جريجور" أقوى دعامات الحزب النازي وصـــديقًا لهتلر، وكان هتلر أبا لولديه التوأمين في العماد، ثم انفصـــلا فأرســـل إليه هتلر نفرًا من أعوانه فأخذوه من بيته وهو بين زوجه وأبنائه وقتلوه شـــر قتلة، كما ذكر المؤلف في هذا الكتاب.

وبعد أن انفصل "أوتو شتراسر" عن هتلر أنشأ الجبهة السوداء – أو السرية – من خلاصة الاشتراكيين الذين كانوا معه في حزب هتلر، ومضى في مقاومة النازي حتى اضـــطر إلى مغادرة وطنه. ولا تزال هذه الجبهة أداة قوية على اســـتعداد للعمل في الوقت المناســـب. ويبســـط المؤلف في هذا الكتاب المؤامرات والمغامرات التي دبرت لاغتياله وفشلت كلها في منفاه.

و"أوتو شتراسر" رشحه الكثيرون لرئاسة الحكومة الديمقراطية في ألمانيا بعد هزيمة هتلر وسقوط نظامه. ورأيه الذي أبداه منذ سنوات لمنع وقوع الحرب أن تسعى ألمانيا لحل مشـــاكلها بالطرق الســـلمية وأن تبدي الدول رغبة في إنصـــافها، ولكن يجب أن تبادر هذه الدول في الوقت نفسه إلى القضاء على سيطرة بروسيا قضاءً تامًا. وعنده أن القضـــاء على بروســـيا لا يتأتى إلا بهدم نفوذ الســـادة البروســـيين الذين يحتكرون الضـــياع الواســـعة، ولا يأذنون لحكومة في ألمانيا أن تســـتقر ما لم تكن حائزة لرضـــاهم وعاملة بسياستهم القائمة على الطغيان والعدوان.

المترجم

الفصل الأول

مقابلتي الأولى لهتلر

"أرجوك أن تأتي غدًا إلى منزلنا لتتناول معنا طعام الغداء، وســـتلتقي عندي بالجنرال "لودنـدورف" و"أدولف هتلر".. أصـــغ إلي: إن الأمر مهم، وألح عليك في الحضور".

هذا ما قاله لي أخي "جريجور" بالتليفون بينما كنت أقضــــي أيام الأجازة لدى والدي بمدينة "ديجاندورف" من أعمال "بافاريا" في 2 أكتوبر سنة 1920 ولقد أحس "جريجور" بترددي في قبول دعوته إذ كان يعلم أني أحذر "هتلر" ودعايته، ومع ذلك فقد تغلبت على مقاومتي وترددي فلبيت هذه الدعوة التي غيَّرت مجرى حياتي العمر كله.

ومن هو هذا الضـــابط الألماني الذي لم يســـتهوه الأمل في التعرف بالجنرال "لودندورف"؟ ثم من هو هذا الشـاب الذي لم يتطلع على الأقل إلى معرفة شـخصـية "هتلر" التي كانت تلتف حولها شـبيبة تواقة إلى خلق مسـتقبل جديد في الوقت الذي كان فيه الارتباك والفوضى يسودان وطني.

أضــــف إلى ذلك أن دعوة أخي وجهت إلي في تلك الفترة الدقيقة من حياتي، حيث كنت أتلمس طريقي بعد أن اعتزلت الحزب الاشتراكي. وقبل ذلك العهد بستة شــــهور وقعت في برلين فتنة (كاب) الشــــهيرة التي دافعت فيها عن جمهورية "فيمار" دفاعًا صـادقًا إذ كنت وقتذاك رئيسًـا لثلاث دوائر للحزب الاشـتراكي في أحياء برلين المتطرفة، فقامت ضــد فصــيلة الكابتن (أرهارت) وفرقة الجنرال "لوتفتز" اللذين كانا يريـدان القبض على زمـام الحكم وتأليف حكومـة رجعيـة، ومن الوجهـة الحربيـة هزم رجالنا الذين كانوا يسـمونهم بــــ (الحُمر) لتمييزهم عن معارضيهم "البيض" الرجعيين، ودخل (أرهارت) مدينة برلين من باب "براندبورج" دخول الظافر، وبعد أن أصــبحت العاصـمة في قبضـة يده وجه خطابا إلى (كاب) رئيس الثورة ومحافظ بروسـيا الشـرقية سـابقًا، قال فيه: "لقد مكنتك من وضـع قدميك في الركاب، والآن عليك أن تعرف كيف تحكم".

أما الحكومة الشرعية فقد فرت من برلين إلى "شتوتجارت"، فاستطاع الثائرون أن يتمتعوا ثلاثة أيام بثمرة فوزهم، وأعلن الإضراب العام في الحال وأعقبته اضطرابات في الطرق والشوارع.

وجرت معـارك دمويـة حول (فيزيـل) في "الروهرر" وفر الجنرال "لوتفتز" والكولونيل "أرهارت" والمحافظ "كاب" إلى السويد. وأعلن الاشتراكيون – الذين كنت أحدهم – أنهم مستعدون لإلقاء السلاح على شرط أن تجاب لهم عدة مطالب، منها تطهير الجيش، وتطبيق النظام الاشـتراكي على الصـناعة الثقيلة، ومناجم الفحم. وبناءً على ذلك أمضـوا مع الوزير (سـيفرنج) اتفاق "بيفلد"، وعادوا إلى الحياة العادية بيد أن الشيوعيين الذين لم يقهروا واصلوا نضالهم الدموي، فلم تحجم حكومة "فيمار" عن أن تستخدم فرقتي "لوتفتز" و"أرهارت" اللتين قهرتا وفرتا لتقضى عليهما وتخضعهما. وعندما غُلب الاشـتراكيون على أمرهم رفضـت الحكومة الوفاء بعهودها التي أعطتها للاشتراكيين، وأعلنت أنه لم يكن للوزير "سيفرنج" صفة تجيز له حق الاتفاق معنا.

وهكذا اعتزلت الحزب الاشتراكي عقب حدوث هذا العمل الفاضح، وكنت في ذلك العهد شـابًا أدرس الحقوق والاقتصـاد، وزعيمًا للطلبة المنتمين لحزب اليسـار، ورئيسًا للجامعيين من المحاربين القدماء؛ فوجدت في نفسـي اشمئزازًا من تطور الحوادث في ألمانيا على هذا النحو. وبقيت في منزل والدي أشـهد مرور الأيام يشـبه بعضـها بعضًا، كما كانت الحال أيام طفولتي وصباي،

وكان والدي لا يزال موظفًا في محكمة مدينتنا، ولم ينقطع عن الذهاب إلى الكنيسة لتأدية الصلاة في يوم الأحد من كل أسبوع، وكان من عادته أن يتناقش في السياسة في طريقه من الكنيسة إلى المنزل، وكان قد وضع فيما مضى رسالة غفلًا من الإمضاء جعل عنوانها: "الطريق الجديد: بحث في المسيحية الاشتراكية"، وكان هذا الكتيب لا يزال مسيطرًا على جميع أفكاره وآرائه. أما والدتي فأدركتها الشيخوخة، وراح المنزل يخلو من سكانه شيئًا فشيئًا. فقد دخل شقيقي الأكبر "بول" دير "بنيدكتان"، وكان أخي الصغير "أنطون" في القسم الداخلي بأحد معاهد التربية، وتزوج شقيقي "جريجور"، الذي كان يكبرني بستة أعوام، كما تزوجت شقيقتي أيضًا.

وفي ذلك الوقت كنت أفكر في الزيارة التي دعيت لها في الغد، وكنت أشعر بأنها ستخلصني من ملل تلك الأيام المتشابهة، وستنفس عني بعض الشيء. وتبلغ المسافة مائة كيلومترات بين "ديجندورف" و"لاندسهوت" عاصمة مقاطعة بافاريا السفلى حيث كان يقيم أخي "جريجور" مع زوجته الفتية. فأخذت القطار في الصباح، وكنا في فصل الخريف، وكانت السماء صافية، فاتجهت من المحطة مشيًا على الأقدام إلى الشارع الكبير، حيث كانت صيدلية "جريجور" منتدى ومقصد جميع أعيان المدينة. وكنت أحسب أني بلغت المكان قبل الموعد، ولكني لاحظت أن واجهة الصيدلية كانت مقفلة، وأن سيارة أنيقة كانت واقفة أمام الدار، وكان الجنرال "لودندورف" و"هتلر" قد وصلا قبلي قادمين من "ميونيخ" بالسيارة.

وصعدت في السلم مسرعًا فأدخلتني زوجة شقيقي في غرفة الطعام حيث كانت المائدة معدة، وكان الضـــيفان في هذه الغرفة، فقدمني "جريجور" إليهما في الحال، وتأثرت لأول وهلة بشـــخصـــية "لودندورف" فكان ذا وجه ضـــخم، وكان لنظراته المتوارية خلف شعر حاجبيه الغزير تأثير شديد مباشر يوحي إليك أن تقف منه موقف الجندي من قائده. ولم يكن "لودندورف" في لباســه العســكري، ومع ذلك كانت تبدو عليه سمات القائد العســكري من مفرق شــعره إلى أخمص قدمه، كما كان الناظر إليه يلمس قوة الإرادة التي تنبعث من شخصية هذا الرجل.

أما الضـــيف الثاني فكان يرتدي ثوبًا ذا لون أزرق قاتم، وكان يلتزم جلســـة الخشوع والتواضع، يستظل بظل قائد جيشنا القوي. وماذا يمكنني أن أقول عن هيئة "أودلف هتلر" الجسمانية؟ كان هتلر في مقتبل العمر أي في الحادية والثلاثين، وكان ذا وجه مســتقيم القســمات وشــارب قصــير، ولم يكن التفكير العميق العنيف قد طبع ســحنته بطابع الجفاف والخشــونة، وكان جفناه الأســفلان منتفخين قليلًا، وقد زادا انتفاخًا فيما بعد، ولم تكن ســـحنته قد أخذت بعد منظرها الحقيقي، ذلك المنظر الثابت الذي شهدناه ولا نزال نشهده في آلاف الصور المنشورة الذائعة.

كان هتلر رجلًا في ربيع العمر كغيره من الرجال في هذه الســـن، وكان ذا لون أصفر فاقع، مما يدل على إهماله الرياضة البدنية وحرمانه من المعيشة في الهواء الطلق.

ثم جلســـنا إلى المائدة على حين لم تتحول عني نظرات "لودندورف" الثاقبة. وخاطبني الجنرال قائلًا:

"لقد حدثني أخوك عنك، كم سنة قضيتها في الخدمة العسكرية؟".

"أربعة أعوام ونصف عام يا سيدي الجنرال، وكنت أصغر المتطوعين في الجيش في بافاريا. وقضيت ثلاث سنين كجندي بسيط ضابط صف، وسنة ونصف سنة كملازم ثان وأول، وكنت في الجيش من 2 أغسطس سنة 1914 حتى 30 يونيه سنة 1919، وجرحت مرتين".

فقال "لودندورف": – مرحى. مرحى!

ورفع كأسه ذا اللون الأزرق الفاتح والجذع السميك وشرب نخبنا وشربنا نخبه بطبيعة الحال. وأدهشني أن شهدت في يد "هتلر" قدحًا مملوءًا بالماء الخالص، فقال أخي "جريجور" مبتسمًا ابتسامة صاحب الدار الوديع: "إن هتلر لا يشرب الخمر"

ثم قال بعد أن ألقى نظرة قلقة على زوجته: "وهتلر نباتي أيضًا"

وكان صحن اللحم قد وضع على المائدة؛ فقالت زوجة أخي دون أن يبدو عليها أي اضطراب وكمن يتحدى: "إن الهر هتلر يسيء إليّ إذا رفض طعامي، ولا أحسبه يفعل ذلك".

وكان الناظر إليها يقرأ في عينيها نفورها الغريزي من هتلر الذي فرضت عليها استضافته فرضا.

وكانت (إلزا) لا تشـــعر قط بالطمأنينة الزوجية في حضـــرة أدولف هتلر، فقد احتملته مرغمة طول السنين التالية دون أن تجرؤ على الإعراب صراحة عن اشمئزازها منه، ولكن شعورها هذا لم يتغير أبدًا.

وأكل "ادولف هتلر" اللحم في ذلك اليوم، ولا أعتقد أنه تذوقه مرة أخرى منذ ذلك العهد.

وعاد "لودندورف" إلى الحديث فقال: "وكيف أنعموا عليك بوســـام (ماكس جوزف)؟".

إن هذا الوسـام النادر الثمين الذي لم أتقلده بسـبب انتهاء الحرب كان قد أعد لي لمكافأتي على عمل حربي مســـجل في الكتاب الذهبي للفرقة الأولى للمدفعية البافارية الخفيفة التي كانت تتألف من خيرة الجنود، والتي كنت فخورًا بالخدمة فيها، ولقد رويت للجنرال، وأنا ممتلئ بحماســة الشــباب وكبريائه، تفاصــيل الحادث الذي أورث أســـرتي المجد؛ فكان "لودندورف" يصـــغي إلي بانتباه كبير، بينما التزم هتلر الصـــمت الموحش لتضـــايقه من أنه لم يتخط مرتبة "الأونباشـــي" في الجيش، كما كان مغيظًا من أنه لم يقم بعمل حربي يرويه ويفاخر به. ووجه إليه "لودندورف" عدة أسـئلة لم يجب عليها إلا بهذه الكلمات:

"نعم يا صاحب السعادة! حقًا يا صاحب السعادة!"

وكان في إجابته مكتئبًا ومسرفًا في إظهار الاحترام والتبجيل.

أما "جريجور" فكان يبدو عليه أنه غير راض عن الحديث على الرغم من أنه كان ضابطًا مثلي، إذ كانت تربطه بهتلر رابطة وثيقة. فأشرف الاجتماع على الفشل، واستهدفت الآمال التي عقدها أخي على هذا الاجتماع للضياع. ولقد كان "جريجور" رئيسًا للمحاربين الوطنيين القدماء بمقاطعة بافاريا السفلى، فألحقهم بالحزب الوطني الاشتراكي في ربيع ذلك العام. وأنشأ أول شعبة سياسية لهذا الحزب في المديريات، فأصبح بذلك أول رئيس لشعبة من شعب الحزب الاشتراكي الوطني أو كما يسمونه الألمان جاولايتر **Gauleiter**.

ولما كان رب الدار مرءوسًا لهتلر أيضًا فإنه لم يرض بطبيعة الحال عن الحالة التي صار إليها الاجتماع. وكان "جريجور" منظمًا قديرًا مطبوعًا وذا نفوذ كبير كذلك النفوذ الذي يتمتع به الصيدلي والقسيس والطبيب في الأقاليم، فنجح في إقناع البافاريين الحذرين العنيدين وحملهم على الانضمام إلى هتلر. فهل يفشل في ضم شقيقه إليه؟

ثم انتقلنا إلى غرفة المكتب التي كانت مظلمة بعض الشيء ومؤثثة بأثاث من خشب الأرو الثقيل؛ فأخذ الجنرال مجلسه على مقعد كبير من الجلد واستغرق في تأملاته، وهو يدخن لفافة غليظة من التبغ.

أما هتلر فلم يستقر في مكانه بل جعل يروح ويجئ في الغرفة وهو مطأطئ الرأس يفكر في الانتقام، وهنا قال هتلر فجأة:

"إني لا أفهم يا هر "شتراسر" أن ضابطًا قديمًا من طرازك وإخلاصك رضي أن يتزعم ويقود جماعة الحُمر في فتنة "كاب" التي وقعت في شهر مارس"

فهذا كلام يدل على أن هتلر عرف الموضوع من أخي، فقلت:

"كانت جماعة الحُمر يا سيدي، تناصر الحكومة الشرعية، فلم نكن ثائرين كما يبدو ذلك من كلامك بل كنا وطنيين صادقين نحاول إخضاع بعض الرجال الثائرين من القواد الرجعيين".

فقال هتلر: "كلا، يجب أن لا نأخذ بحرفية القول من أن اضطرابًا عنيفًا كان يتسع نطاقه شيئًا فشيئًا، بل ينبغي أن نفهم مغزى الأشياء وروحها، ففتنة "كاب" كانت ضرورية على الرغم من أنها أثيرت بوسائل ضعيفة غير ناجعة فقد من الواجب إسقاط حكومة فرساي".

وأشـــهد أني ما سمعت هتلر قط يقول "جمهورية فيمار" بل كان يســـميها دائمًا "حكومة فرســاي" وكان ينطق هاتين الكلمتين في اشمئزاز عميق. وقد كنت يومذاك في موقف حرج نظرًا لوجود "لودندورف" معنا، فلم أســـتطع الرد على هتلر بالصـــراحة والحماســـة اللتين طبعت عليهما. وكان "لودندورف" ذلك الرجل الذي لعب دورًا غامضًا بعض الغموض في تلك الفتنة المشهورة؛ فقد شوهد في برلين في شارع "أونتردن ليندن" في الساعة التي دخلت فيها فرقة "أرهات" العاصمة دخول الظافر. فهل كان الجنرال أحد المشاهدين فحسب؟ أم شريكًا في تلك الفتنة من وراء ستار؟.. هذا ما لم أستطع معرفته حتى اليوم.

وعدت إلى الحديث فقلت:

"إن الرجعيين قد استغلوا وطنية الضـباط الذين كانوا يجهلون السـياسـة، وكان "كاب" مرتبطًا في أثناء الحرب باتفاقات مع "تربتز" والرجعيين البروســـيين والنبلاء وأصـحاب المصـانع لكبرى و"تيسـين" و"كروب"، وكانت الفتنة ترمي إلى قلب نظام الحكم في البلاد".

وهنا نصرني "لودندروف" الذي كان يبدو عليه الانهماك بالتفكير في شيء آخر فقال:

"إنـك محق فيمـا قلـت. ولم يكن هنـاك مـا يـدعو إلى إثارة تلـك الفتنـة، وكـان الواجب يقضي بالبدء بكسب ثقة الشعب حتى لا نضطر إلى استخدام القوة".

ولم يكد هتلر يســـمع هذا القول حتى انقلب من موقفه إلى موقف آخر فيه مرونة وسلاسة، وقال بصوت رنان: "هذا حق يا صاحب السعادة"! ثم قال:

"هذا هو الهدف الذي ترمى إليه حركتي الثورية. فأنا أريد إشعال حماسة الشعب للأخذ بالثأر. فالشعب وحده، وتعصب هذا الشعب هما العاملان اللذان يكفلان لنا النصر في الحرب المقبلة".

ولقد أساءني هذا الرأي أيما إساءة؛ فرحت أعارضه بكل قواي قائلًا:

"إن المســألة ليســت مســألة انتقام أو إثارة حرب، وعندي أنه يجب أن تصــبغ مبادؤنا الاشتراكية بالصبغة الوطنية لكي ننشئ نظامًا جديدًا في ألمانيا لا لنتبع سياسة غزو جديدة".

فقال "جريجور" الذي كان يصغي في هيبة إلى الحديث إصغاءً جديًا:

"نعم سنأخذ من أحزاب اليمين "الوطنية" التي اندمجت لسوء الحظ في الرأسمالية، ونأخذ من أحزاب اليسـار "الاشـتراكية" التي اتحدت بالاشـتراكية الدولية اتحادًا ضـارًا، وبهذه الطريقة يمكننا أن ننشـئ "الاشـتراكية الوطنية" التي سـتكون القوة المحركة لألمانيا الحديثة وأوروبا الجديدة".

قلت: "ولكن يجب أن تتغلب الصبغة الاشتراكية على هذه الوطنية الاشتراكية. ولماذا لا تصغ يا هر هتلر هذا الاسم أي "الوطنية الاشتراكية" في كلمة واحدة مركبة بدلًا من كلمتين؟ فقد دلت الأجرومية الألمانية على أن هذا النوع من الكلمة المكونة من كلمتين تكون الكلمة الأولى فيه وصفًا للثانية التي تعتبر أهم الكلمتين".

ولما كانت اللغة الألمانية غنية بهذا النوع من الكلمات المركبة، ضربت له بضعة أمثال على ذلك، فاحمر وجه هتلر وقطب ما بين حاجبيه. فقلت:

"اللهم إلا إذا كان مستشارك "روزنبرج" البلطيقي قد نسي اللغة الألمانية فأصبح لا يمكنه تقدير هذا النوع من الكلمات المركبة!".

فضرب "هتلر" المائدة بقبضة يده وصاح فجأة: "كفى سفسطة!"، ثم حاول أن يسترجع هدوءه، وافترت شفتاه عن ابتسامة فاترة وقال مخاطبًا "جريجور":

"إن أخاك رجل من الرجال المثقفين الذين يصعب عليّ التفاهم معهم".

وهنا أسمعنا هتلر إحدى خطبه البهلوانية التي طالما أسمعنا كثيرًا من أمثالها فيما بعد، ثم راح "زعيم" ألمانيا يطعن في الصهيونية بعد أن غير بمهارة مجرى الحديث، الذي لم تستطع أن تجاريني فيه عقليته البدائية، وصاح قائلًا من جديد:

"إنك لا تستطيع بهذه الطريقة أن تغفل الأفكار والمبادئ وتفصلها عن جوهر الموضوع. وإني لمحدثك عن الحقائق والصهيونية حقيقة واقعة من هذه الحقائق، فانظر مثلًا إلى "ماركس" الشيوعي اليهودي، وإلى "راتنو" الرأسمالي اليهودي أيضًا. إن مصدر الشر كله هم هؤلاء اليهود. إنهم يسممون العالم، ومنذ معرفتي إياهم وفهمي لهم، لم ألتق رجلا في الطريق إلا سألت نفسي هل هو يهودي أو لا. فالصحف الاشتراكية الديمقراطية يديرها اليهود، وهؤلاء اليهود يخفون مبتكرات شيطانية تحت ستار من الآراء والأفكار الاشتراكية؛ فهم يريدون إبادة الأمة وإزالة الفوارق العنصرية وهم يقودون العمال، ويقومون بتحسين حالهم، والحقيقة أنهم يرمون إلى استعبادهم وقتل وطنيتهم وشرفهم لإقامة الدكتاتورية الصهيونية الدولية وسيحققون بالقوة ما لم يمكنهم تحقيقه بالإقناع، وجمعيات هؤلاء اليهود منظمة تنظيمًا دقيقًا، فلهم مساعدون في جميع مصالحنا الإدارية حتى في أعلى المراكز وأرقاها ويعاونهم إخوانهم في الملة في جميع أنحاء البلاد، فهم خميرة التخريب والهدم، يجرون الأفراد والشعوب إلى مهاوي الانحطاط والامتهان".

وكلما حاول هتلر أن يزيد بلاغته إقناعًا، كلما اشتد في روح النقد، ثم توقف الرجل ليأخذ أنفاسه فلمحني أبتسم؛ فقلت:

"إنك لا تعرف اليهود، يا هر هتلر، واسمح لي أن أقول أنك تبالغ في تقديرهم. فاليهودي رجل يتمشى بسهولة مع الظروف والأحوال، فهو يستغل "الممكنات" الحاضرة، ولكنه لا يستنبط شيئًا ما. يستخدم الاشتراكية، وينتفع بالرأسمالية، ويستغل الوطنية الاشتراكية نفسها كلما وجد لذلك سبيلًا. وهو يساير الظروف والأحوال بمرونة ومهارة لا يقدر عليهما إلا الرجل الصيني. فاليهودي "ماركس" لم يخترع شيئًا. ولقد كان للاشتراكية على الدوام ثلاثة جوانب؛ فدرس (ماركس) الجانب الاقتصادي بالتعاون مع الألماني (إنجلز)، وبحث (مازيني) الإيطالي الجانب الوطني والديني، وأشاد (باكونين) الروسي بالعناصر (الهلنستية) أو الفوضوية، وهي العناصر التي اشتقت منها الشيوعية؛ فأنت ترى من هذا أن الاشتراكية ليست صهيونية الأصل".

وهنا قال "لودندروف" معززًا كلامي:

"يقينًا، لا. فإن المبادئ الاقتصادية القديمة قد أدركتها الشيخوخة. وليس من المستطاع النهوض بالبلاد نهضة جديدة، إلا بواسطة "الاشتراكية الوطنية" التي ستعيد الرخاء إلى بلادنا".

فقال هتلر في عناد وإصرار:

"أما أنا، فإني أريد أن أقوم ما اعوج من هذا الشعب لينهض ويصبح قادرًا على سحق فرنسا".

فقلت: "إنك تجعل الغلبة إذن للوطنية. وفي هذا إنكار مرة أخرى للفكرة التي ترمي إلى تحقيقها، نعم ما من شـــك في أني لا أحبذ معاهدة فرســـاي. ولكني أرى أن فكرة الحرب ضــد فرنســا هي فكرة حمقاء. وأعتقد أنه سـيأتي يوم يجب أن تتحد فيه البلدان لمحاربة البلشفية الروسية".

وهنا بدت من هتلر حركة من عيل صـــبره. ووردت على خاطري فجأة ذكرى الفزع الأحمر في "ميونيخ" حيث التحقت عقب خروجي من المستشـفى بفرقة الجنرال "إيب" لإخضـــاع البولشـــفيك في بافاريا؛ فأين كان هتلر وقتذاك؟ وفي أية ناحية من نواحي ميونيخ كان مختبئا هذا الجندي الذي كان عليه أن يجاهد معنا؟! وبدا لي هتلر كأنه قد استطاع أن يقرأ أفكاري. ثم اقترب مني وقال:

"إني أفضــل أن أشـنق على مشـنقة الاشـتراكيين على أن أصـبح وزيرًا في ألمانيا بفضل فرنسا".

وهنا نهض "لودندورف" مستأذنًا في الانصراف، وتبعه هتلر.

وعاد أخي بعد أن شيع الرجلين، وقال: "ما رأيك"؟

فقلت: "إني معجب بـــ "لودندورف" نعم، إنه ليس عبقريًا كـــ "كونار دفون هوتزندورف" القائد الذي أنكرت مواهبه الجيوش النمساوية المجرية، ولكنه رجل بمعنى الكلمة. أما هتلر فإني أجده مفرطًا في الخضوع والخشوع أمام الجنرال، ومع ذلك فهو ماهر جدًا في الحوار وتضـــييق الخناق على منافســـه، إلا أنه رجل لا عقيدة له في السياسة، وفصاحته رنانة صاخبة".

فقال "جريجور": "لعل هتلر لا يزال يحتفظ بشـــيء من خلق (الأونباشـــي) ومع ذلك فإن قوة ما تصـــدر عن شـــخصـــية هذا الرجل، وهذه القوة هي الإيحاء الذي يصعب على الإنسان ألا يتأثر به. فما أعظم العمل الذي يمكننا أن نقوم به لو استعنا بفصاحة "هتلر" للتعبير عن أفكارك، وبنشاط "لودندورف"، ومواهبي في تنظيم الأمور لتنفيذ هذه الأفكار وإخراجها من عالم الفكر إلى حيز العمل!".

الفصل الثاني

مطبخ ألمانيا الجهنمي

لم أقصد بوضعي هذا الكتاب أن يكون كتابًا سياسيًا، غير أنه من المستحيل أن يفهم الإنسان شخصية هتلر وقوة الأمواج الصاخبة التي حملته إلى سطح ألمانيا المضطرب، إذ هو لم يعلم الحوادث الدامية والجو الموبوء والقوى الخفية، التي كانت تهز "الرايش" تلك الدولة المقهورة البائسة طيلة خمسة عشر عامًا. فعندما تحققنا عجز الرجال الذين ساقتهم الثورة الزائفة في سنة 1918 إلى القبض على زمام الحكم، اعتقدنا أن ماضي البلاد قد تحطم وأن حاضرها أصبح ميئوسًا منه، وأن مستقبلها لم يعد فيه أي رجاء. وكان الإمبراطور قد لاذ بأذيال الفرار. ورأى الحلفاء المنتصرون أن يستبدلوا حكم "غليوم" البغيض بحكومة نموذجية أكثر ديمقراطية من حكوماتهم فكانت تلك الحكومة ضربًا من ضروب الأوهام، لأن شيئًا جديدًا لم يطرأ على "الرايش" المتداعي الأركان، اللهم إلا البؤس الذي جعل من الرجال وحوشًا ضارية.

ولا زلت أذكر صديقي القديم "مولر فان دنبروك" أي "جان جاك" الثورة الألمانية الذي انتحر في اليوم الذي علم فيه أن هتلر خان مثله الأعلى، والذي أنشأت معه عقب معاهدة فرساي "نادي يونيه" للعمل على النهوض بألمانيا نعم، ما زلت أذكره وأذكر ما قاله لي: "لقد خسرنا الحرب. ولكنا سنكسب الثورة". فيا له من وهم خاطئ! إذ كيف النهوض بشعب تتولى أمره حكومة أعضاؤها من الموظفين الشيوخ وصغار الطبقة (البورجوازية) الذين تعوزهم الشجاعة والإقدام؟

ولو أن رساما أراد أن يصور ألمانيا في أشد الصور هزالًا وبؤسًا لما أمكنه أن يختار لذلك من الوجهتين المادية والمعنوية أفضل من شخصيات "شيدمان" و"سيفرنج" و"إيبرت" من جماعة الموظفين، و"أرزبرجر" و"فهرانباخ" و"رايت" من طبقة "البورجوازية" الجامدين، الذين يؤدون أعمالهم على وتيرة واحدة. وهكذا كانت هذه الحكومة التي تربعت في دست الحكم فوق أكوام من الخرائب حكومة مؤلفة من التافهين الضعفاء المجردين من العقيدة والمبادئ والمعرفة بالشئون السياسية.

وكان "إيبرت" ذو الآراء المعتدلة قد تولى رئاسة الجمهورية الألمانية بطريقة غير شرعية. وكان واضعو الدستور الجديد يرتابون في هذا الدستور بقدر ما كانوا يشكون في إخلاص الشعب الألماني لهم.

ولم تجرؤ الحكومة على إجراء انتخاب لتلك الرئاسة، وطبيعي أن هذا لم يعنها في قليل أو كثير، لأن ألمانيا لم تكن جمهورية إلا بالاسم كما لم يكن فيها أحد من الجمهوريين الصادقين.

ويجدر بي أن أذكر هنا كلمة "إيبرت" التي دلتني على ما سيكون عليه مستقبل هذه الحكومة، فقد قال ذات يوم "إني أبغض الثورة كما أبغض الخطيئة".

ولقد كنت في مقتبل العمر وحماسة الشباب، لا أعرف الحل الوسط، فقلت في اشمئزاز لــــ "مولر فان دنبروك" الذي شعر مثلي بخيبة الأمل: "إنه يبغض الثورة، لأنه ينفر من الخطيئة. فهل كان يتأتي لـــــ "دانتون" أن يمقت الخطيئة؟ نعم، إنه حقًا ك "دانتون". وها أنذا اليوم أبتســم عندما أذكر أني شــبهت "إيبرت" التقي ببطل الثورة الفرنسية!.

وبعد، فلنعد إلى الكلام عن حالة ألمانيا السيئة في ذلك العهد. أمرت السلطات الألمانية بإزالة كلمة "ملكي" التي كانت منقوشــة على واجهات جميع الدور العمومية، واكتفت في بعض الأحيان بإلصاق إعلانات موضع هذه الكلمة لحجبها عن الأنظار! وكانت الفوضــى تســود البلاد، ودب الفســاد في جميع المصــالح الحكومية. ولم يفد الحلفاء ما ظفروا به من القضاء على نفوذ العسكريين في ألمانيا، وما كسبوا بالتخلص من الروح الحربي فيها، لأن الموظفين القدماء ظلوا في وظائفهم واعترفت جمهورية فيمار "بحقوقهم الشرعية" وبأنه لا يجوز فصلهم إداريًا. وكان المستشارون السريون يضايقون الوزراء الذين كانوا عرضــة للتغيير، فإن لم تكن أوامرهم في مصــلحة الموظفين أغفلت ولم تنفذ.

وعندما حصلت على شهادة الدكتوراه في كلية الحقوق عينت في أحد المناصب بوزارة الزراعة، وبعد ذلك بزمن قصـــير، تقلد الهر "هرمس" مهام هذه الوزارة. ورغب هذا الوزير الجديد في أن يلحق به "ســـكرتيرته" الخاصـــة، فأفضـــى برغبته هذه إلى مســـتشـــار الوزارة الســـري؛ فأبلغه هذا الأخير أنه لا توجد وظيفة شـــاغرة في ذلك الوقت، ثم قال:

"يجب أن يوافق المجلس على ميزانية خاصـة نعرضـها على البرلمان، وإني لأعتمد على معاليكم لإقناع النواب بضرورة الموافقة على هذه الميزانية".

وطبعي أن الوزير المســكين لم يفز بمطلبه قط، وأن رســائله جميعها كانت تكتب من نسختين على الآلة الكاتبة، وتعرض على المستشار السري لفحصها واختبارها.

ثم ما هي الحالة التي كانت عليها ألمانيا في ذلك الوقت؟..كانت ألمانيا في أشـــد حالات الاضـــطراب مثلها مثل بوتقة تغلي فيها ســـوائل خطرة، وكان الأجانب الذين عرفوا بقلة الرغبة في معرفة حالة بلادنا الحقيقية، يلاحظون تصـــاعد الأبخرة الفاســـدة من ذلك المطبخ الجهنمي دون أن يأبهوا لذلك كثيرًا، ولم يشـعروا بأنه سـوف تتولد من هذا الاضطراب الشديد والبؤس المفرط حركة رجعية تحمل في ثناياها جرثومة البروسية الثائرة وحربًا جديدة.

وليس هتلر وأعوانه الذين حملوه إلى منصة الحكم إلا نتاج تلك البوتقة اللعينة.. نعم، إن ألمانيا خســرت الحرب، ولكن لم تكن هذه الخســارة كل شــيء؛ فقد كان الشــعب الألماني يموت جوعًا، وكانت منتجات الأرض في أوروبا جميعها آخذة في النقصــان. وكان الحصــار قد خنق إمبراطوريات أوروبا الوســطى خنقًا تامًا، وكانت قروض الحرب قد اســتغرقت مائة وعشــرين مليارًا من الماركات الألمانية فأصــبحت الطبقة الوسطى في عداد طبقة العمال، وحرم أصحاب الدخل القليل من دخلهم.

ولســت أعتقد أنه كان في ألمانيا عام 1922 أكثر من 3% من الســكان ممن يملكون ثروة تقدر بــ 5000 مارك ذهبًا. وكانت شركات التأمين قد توقفت عن دفع الأقســاط لمســتحقيها، وكان يموت في فقر مدقع من قضــوا معظم حياتهم في ادخار مبالغ بســيطة من المال لأيام الشــيخوخة. وكان مقعدو الحرب لا يتسـلمون مرتباتهم، غير أن هذه الحالة لم تكن نتيجة معاهدة فرســاي كما توهم الناس، بل كانت أثرًا مباشرًا من آثار الحرب نفسها التي قضت على موارد البلاد الاقتصادية.

وكانت هناك مشكلة تسريح الجيوش جميعها؛ فأصبح رجال الجيش وجنوده من العاطلين، ولم يكن ثمة بد من أن يقوموا فيما بعد بثورات عديدة ومحاولات ترمي إلى قلب نظام الحكم، كما حدث في فتنة (كاب)، حتى لا يكتب عليهم الفناء، وليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع وشبحي العطل والمستقبل الحالك.

وكان هؤلاء الجنود عائدين من ساحات القتال فحسب من بولندا التي احتلت، مليون وخمســمائة ألف رجلًا وكان في برلين وغيرها من مدن ألمانيا الكبرى **300** ألف ضابط، وعدد يتراوح بين **700** ألف و**800** ألف ضابط صف من العاطلين يخبطون في الحياة بدون غاية.

وكان أبطال معارك البلطيق الذين دافعوا عن فنلندا ضــد روسـيا قد عادوا إلى ألمانيا بقيادة (فون ديرجولتز) والكابتن "شـتينس" والملازم "روسـباخ" فإذا كان لا يزال هناك رجال قد بلغوا حدًا من السـذاجة بحيث يعتقدون في حسـن نية "أدولف هتلر" فيما يتصـل على الأقل بالمثل العليا للشـعب الألماني فليتذكر هؤلاء الناس تضـحيات الجنود الألمانية في ذلك النضـال، وليوازنوا بين ذلك الموقف وبين الموقف الحالي الذي اتخذه "الفوهرر" في النزاع الروســي الفنلندي الأخير، ومع ذلك فإن هتلر لم يشــترك على الإطلاق اشتراكًا جديًا في الجهاد الذي قام به الألمان بعد الحرب في سبيل الدفاع عن شرفهم وكيانهم.

كذلك لم يكن هتلر أحد جنود الجنرال "فون أيب" الذين أسـقطوا عام **1919** دكتاتورية "كورت إيســتر" الحمراء، كما أنه لم يكن من بين رجال "فون ديرجولنز". وعندما دارت في (ســيليزيا العليا) رحى المعارك الدموية التي دافع فيها المتطوعون الألمان عن الحدود الألمانية ضــد القوات البولونية، اســتقبل هتلر الرماة النمســاويين المتطوعين ونصـحهم ألا يشـتركوا في هذه المعارك، ولكنه لم يسـتطع إقناعهم ولا منعهم من القتال فالتزم داره يفكر ســرًا في وضــع خطته الجهنمية، خطة الغدر والخيانة التي تمكن بها من القبض على زمام الحكم.

وحاولت العناصـــر الســـلمية مقاومة ذلك الحكم الســـقيم الهزيل، حكم دعاة الديمقراطية من الموظفين المنافقين؛ ففي المؤتمر الأول للعمال والجنود السوفيتيين الذي تألف من أعضـاء الحزب الاشـتراكي الديمقراطي ومن الاشـتراكيين المسـتقلين في ألمانيا ومن شـعبة الجنود، ألقى "هيلفردنج"، أحد أعضـاء اليسـار الديمقراطيين، وممن تقلدوا الوزارة فيما بعد، خطابًا تافهًا كان من شـأنه أن أجلت جميع قرارات المؤتمر المهمة إلى أجل غير مسمى.

وكنا قد طالبنا في هذا المؤتمر –كما طالبنا خلال فتنة (كاب) التي وقعت فيما بعد – بتطبيق المبادئ الاشـتراكية على جميع المصـانع الكبيرة والمناجم؛ فقال الوزير: "إن هذا الطلب يرضى عواطفكم الثائرة ويشرفها، غير أن الشؤون السياسية لا يمكن أن تقررها العواطف".

وظل الخطيب أربع ساعات يشرح لمستمعيه أن الحالة الحاضرة لا تسمح بتطبيق المبادئ الاشـتراكية على الوجه الأكمل، واقترح في ختام خطابه تأليف لجنة لدرس هذا الموضـوع وبحثه. فوضـع الضـباط القدماء والجنود والعمال ثقتهم في أقوال الخطيب وقبلوا اقتراحه، وظلت اللجنة تعقد جلسـاتها العديدة شـهورًا وأعوامًا، ولكني لم أر لها أي قرار أو عمل إيجابي. وانفرط عقد اللجنة دون أن تجد للموضوع الذي شكلت من أجله حلًا.

عندئذ ظهر النفعيون من اليهود، وزاد ظهورهم في عداء الشعب الألماني لليهود، هذا العداء المتأصـل في نفوس الألمانيين. وانطلق هؤلاء التجار الجشـعون يسـتغلون جوع الشعب وتدهور قيمة "المارك" فجعلوا يبتاعون المؤن من البلاد الأجنبية ويبيعونها في ألمانيا بأسعار مرتفعة جدًا.

ولم يكتفوا بذلك، بل استغلوا "مصرف الرايش" نفسه، ثم تسللوا بمهارة إلى دور الحكومة ومصالحها، واتصلوا بكبار الموظفين والوزراء أنفسهم، فشككوا الجماهير في أولئك الذين كانوا يمثلون السلطة ويدافعون عن الطبقة الفقيرة المخدوعة بحكم عملهم، وحدثت فضائح من بعض يهود غاليسيا أمثال: "كوتسكر"، و"بارمات"، و"سكلاريك" هزت صرح المالية الألمانية المتداعي الأركان وأثارت في البلاد موجة من السخط والاشمئزاز.

وواصل الأخوان "بارمات" اللذان طردا من "الرايش"، أعمالهما الفاضحة في هولندا، حيث ظهر لهما عمل آخر من أعمالهم ومناوراتهم المجرمة. أما الأخوة الثلاثة "سكلاريك" فإنهم قد رحلوا إلى تشيكوسلوفاكيا حيث استأنفوا أعمالهم، ومشاريعهم القذرة. وأتم أصحاب الصناعات الكبرى في ألمانيا ما بدأه هؤلاء التجار اليهود الجشعون؛ فجمع "شتتاينس" ملك الصناعات الثقيلة، الذي بدأ حياته العملية في الاتجار بنقل الفحم، ثروة طائلة، كما ابتاع جميع المصانع المنافسة له فأنزل الخراب بالصناعات المتوسطة. وكانت البلاد في ذلك العهد تقاسي متاعب تضخم العملة. وكان "المارك" آخذًا في السقوط المستمر.

وكان الناس يتســـلمون مرتباتهم يومًا بيوم، وكانت هذه المرتبات تتغير طبقًا لتقلبات العملة. كما كانت أسعار السلع عرضة للصعود إلى الضعف، فالضعفين، وهكذا.. فيما بين لحظة وأخرى، فيتحتم على الشاري أن يعقد الصفقة ويدفع ثمنها على الأكمل في الحال، وكان الأجانب يفدون على البلاد زرافات ووحدانا، يبتاعون بالريالات أو الجنيهات أو الفرنكات التحف الفنية والمواد الضرورية التي كان سكان البلاد أنفسهم لا يستطيعون شراءها؛ فازداد تعصب الألمان وكراهتهم للأجانب إزاء تلك الحال المنافية للخلق الطيب، وسرعان ما أصبح الدولار الأمريكي يساوي 200 مليون مارك وكان ثمن طابع البريد 12 مليارًا من الماركات، ولكي يدرك القارئ مدى المأساة يجب أن نذكره بأن المليار يساوي ألف مليون.

وكان الغضب يتصاعد من صدور الجماهير، وكانت الطرق تدوي بالمظاهرات الصاخبة الفياضة بالحقد والكراهية، وكان يبدو على وجوه الناس ذلك اليأس العميق الذي يدفع بصاحبه إلى ارتكاب أخطر الأمور من غير وعي ولا تفكير؛ فأكدت الحكومة – وهي على ما نعلم من العجز والضعف – أنه يجب العمل على تفادي خطر انطلاق الثورة من عقالها. ولكن هذه الحكومة التي كانت تدين بآراء الإمبراطور "غليوم" العتيقة، لم تتوقع حدوث اضطرابات دموية أو محاولات خطيرة لقلب نظام الحكم إلا من جانب أحزاب اليسار.

وفي عام 1920 ظهرت في أفق البلاد علامات منذرة باقتراب الثورة على أثر مقتل الهر "أرتسبرجر" وزير المالية، الذي اغتاله ضابطان من ضباط البحرية هما الملازمان "شولتز" و"تيلسين" من فرقة "أرهارت"، ولقد كانت الفوضى التي حلت بالبحرية الألمانية أشد من تلك التي نزلت بالجيوش البرية، فهذه الجيوش كانت قد سرحت تدريجيًا.

وتوصل فريق من ضباطنا القدماء إلى كسب عيشهم باحتراف السمسرة، وبالتوظف في شركات التأمين والمصارف والمصانع. أما ضباط البحرية فكانوا عاطلين جميعًا، يخبطون في سبل الحياة خبط عشواء. وكان الأسطول الحربي قد دمر والأسطول التجاري قد تناقص إلى 10 في المائة من قوته التي كان عليها قبل الحرب.

وكان "أرهارت" الذي فر إلى السويد، عقب الفشل الذي منيت به فتنة "كاب" رئيسًا لجمعية المتآمرين على الحكومة، واغتيال الضابطان السابق ذكرهما وزير المالية بإيعاز من "أرهارت" وإطاعة لأوامره غير أن حكومة (فيمار) الجمهورية ظلت مغمضة العينين على الرغم من أن مقترفي الجريمة كانا ينتميان إلى أحزاب اليمين. وتتابعت فيما بعد حوادث الاغتيال ومحاولات قلب نظام الحكم تارة من أحزاب اليمين وأخرى من أحزاب اليسار.

وفي سـنة 1921 حاول بعض الناس من شـركاء الكابتن "أرهارت" اغتيال "شايدمان" زعيم الاشتراكيين الديمقراطيين وأحد مستشاري "الرايش" سابقًا. وأثيرت حملة طعن وتجريح شـنيعة ضـد "إيبرت" ذي الآراء المعتدلة الذي كان يبذل أقصـى جهده لإرضاء الجميع دون جدوى.

وفي عام 1922، اغتال الرجعيون من أحزاب اليمين "فالتر راتناو" أحد كبار أصحاب المصانع اليهود، ووزير الخارجية، وصاحب معاهدة "رابلو" التي أبرمت بين ألمانيا وروسيا.

وقام الشـيوعيون عام 1919 بأول ثورة شـعبية في برلين، وفي نفس العام طرد (فون إيب) الاشتراكيين من "ميونيخ". وفي سنة 1920 وقعت فتنة "كاب" التي كان يعضـدها العسـكريون من أحزاب اليمين، وانتهت هذه الفتنة بمعارك دموية دارت رحاها في "الرور".

وفي عام 1921، جاءت الأنباء بوقوع اضـطرابات في "هاللا" و"مرسـبورج" و"ماجدبورج" من مدن ألمانيا الوسطى. وفي نفس العام ثار الاشتراكيون في (هامبورج) وحاول (هولنز) أحد أصدقاء السوفييت قلب نظام الحكم سنة 1922 ولكنه اضطر إلى الفرار إلى روسيا، حيث أعدمه (ستالين)، كما أعدم جميع من خدموه.

فمن هذه المصـــالح المتعارضـــة والرغبات الخفية الألمانية التي كان يجهلها ولاة الأمور في الدول الأوربية الكبرى، نشـأت حركتان سياسيتان هما حركتا حزب اليسـار المتطرف وحزب اليمين المتطرف. وبدأت العناصر المعتدلة تسود داخل الحزبين، ولكن بينما كانت دول أوروبا الغربية تســـتمتع بثمرات فوزها، كانت روســـيا ترقب بانتباه شديد تطور السياسة الألمانية. وتمكن (زنوفيف) رئيس (الكومنترن) الذي قتله ستالين هو أيضًا، من أن يكون المقرر الأول في مؤتمر الحزب الاشتراكي الذي عقد في (هال).

وكنت لا أزال تلميذًا، ومضـطرًا إلى كسـب عيشـي، فشـهدت المؤتمر كمراسـل لصـحيفة هولندية وأخرى سـويسـرية. وأشـهد أني قلما التقيت برجل موهوب فصـيح اللسـان أفضـل من "زينوفيف"، فقد ألقى هذا الرجل خطابًا اسـتغرق سـبع سـاعات، استطاع به إثارة الخلاف بين صـفوف الاشـتراكيين. وحمل نصـفهم على اعتناق المبادئ الشيوعية. وصار معظم أعضاء الحزب الاشتراكي المستقل أعضاء في الحزب الشيوعي الألماني، الذي تولى قيادة حركة المتطرفين من حزب اليسار.

وكان الجناح اليمين يتألف من (أصـــحاب الخوذات الفولاذية) بقيادة "زيلتا" و"يتســـبرج"؛ ومن حزب العمال الاشـــتراكي الوطني برئاســـة هتلر. أما "راديكالية" أحزاب اليمين فإنها لم تخط إلى الإمام إلا فيما بعد وذلك بفضـــــل نفوذي ونفوذ أخي (جريجور).

وكانت حالة ألمانيا بعد الحرب ينطبق عليها المثل الفرنسي القديم: "الطرفان يلتقيان" انطباقًا تامًا. فكان من المستطاع إنشاء حزب نموذجي أو مثالي من العناصر الطيبة من أحزاب اليمين واليسار. وجرت بالفعل محاولات عدة في هذا الصدد، أسفرت عن الفشل وخيبة الأمل. وكانت المحاولة الأخيرة تحت رعاية "أدولف هتلر"، فأخفقت كسابقاتها. ولا زلت أذكر جيدًا أول سعي جرى في سبيل التقريب بين هتلر والدولية الثالثة، فقد وقع هذا التقرب بعد إعدام "شلاجيتر" في "الرور" بزمن قليل.

وكان الكونت "دي رفانتلوف" النائب الوطني، الذي أصبح فيما بعد من أنصار هتلر المخلصين يدير إحدى صحف اليمين، المسماة (حارس الرايش)، كما كان "راديك" رئيس الدولية الثالثة يصدر إحدى صحف اليسار وهي "العلم الأحمر".

وقرر هذان الرجلان النابغان اللذان اقترب أحدهما من الآخر بواسطة حزب العمال الوطني الاشتراكي، أن يتبادلا المعونة في العمل؛ فدهش القراء عند اطلاعهم في جريدة (حارس الرايش) على مقال بإمضاء "راديك" مدح فيه "شلاجيتر" الملقب بـ "الراحل إلى عالم الفناء".

ولقد كتب كثير من الكتاب عن هذا الرجل، وجعلت منه ألمانيا المعاصرة بطلًا من أبطالها الوطنيين. أما الرجال بعيدو النظر - الذين عرفوا هذا الرجل وهو في مقتبل العمر، تتملكه رغبة قوية في العمل، وهيام جنوني بالاستقلال - فإنهم يرون فيما حدث لـ "شلاجتر" غموضًا وتعقيدًا. وهم يتساءلون عن الحالة التي صار إليها هذا الثائر، عدو الاشتراكية اللدود والنظام الهتلري.

.ألم يثر هو أيضًا على الاستبداد؟ ألم يستيقظ هذا المغامر ليدافع عن البلاد التي كان يحبها ضد أبشع ضروب العنف والاستبداد فكان في يقظته كمن يمشي في النوم إلى حتفه؟ إنه لم يفلت من مخالب الأحداث التي وقعت في 30 يونيه.

لقد تأثرت الثقافة والعادات والآداب الألمانية، كما تأثر المســـرح والتمثيل الســينمائي في ألمانيا بذلك العهد المضــطرب الخطر الذي هوت فيه الأخلاق في لجج النســيان؛ فانغمس الشــعب في حمأة الملذات والرذيلة. وكثرت المنتديات الليلية كما تكثر الأعشاب بعد تهاطل الأمطار. وكانت الراقصات العرايا يعرضن أجسامهن على الجماهير التي أثملتها الخمور والملذات، فكان عصر المجون والرذيلة، وإنصاف المعتوهين والفلكيين والمنجمين والضالين وغيرهم.

ولا ريب أن أحدًا لم ينس الضـجة الهائلة التي قضـيتا أثارتها "كيرتن" و"هارمان" سفاح "دوسلدورف". ومن أعجب الأشخاص الذين ظهروا بعد الحرب المنجم البارع "هانوسين" أو "كاجليوسترو" ذلك الوسيط الملقب بـ "أدولف هتلر"، ولقد ظن الناس أن "هتلر" تخلص من صاحبه هذا كما تخلص من كثير من أصـدقائه الآخرين، غير أن الحقيقة هي أن "هانوســين" كان يهوديًا فأيقن أنه ســيأتي يوم من الأيام يســتهدف فيه مســـتقبله لأخطار مبادئ هتلر العنصـــرية؛ فعمد الرجل إلى التقرب من الكونت "هلدورف" وهو مخلوق خليع في حاجة دائمة إلى المال؛

فأقرضـــه مبالغ كبيرة واســتكتبه بها عقودًا حرص عليها كل الحرص. بيد أن الكونت "هلدورف" لم يفكر قط في أن يرد الدين إلى صـــاحبه، وعندما قبض هتلر على زمام الحكم في ألمانيا، عين "هلدورف" مديرًا للبوليس؛ فأوعز هذا الأخير إلى معاونيه فقتلوا المنجم "هانوســين" الذي تنبأ بكل شــيء عدا هذه الجريمة! أما عقود الدين التي كان يحملها القتيل فلم يعثر عليها قط.

ولقد نشـأ من تلك الحال المضـطربة التي كانت تتخبط فيها البلاد، فن سـقيم واقعي من فنون (الدراما)، وكان الأدب الـــ "رومانسسم" في ذلك الوقت يدور حول الفجور والبغاء، فشهدنا على الشاشة البيضاء شريطًا للممثلة الشهيرة "جريتا جاربو" يسـمى: (الشـارع الحزين) من رواية (بتور) النمسـاوي الذي قتله ذات مسـاء نفر من قرائه في شوارع "فيينا"، ورأينا على المسرح رواية "قاتل أبيه" للكاتب "برونين" و"الحياة لنا" بقلم "تولر" و(كاســترال) وهي مســرحية رمزية، كان بطلها المجرد من رجولته يمثل (الرايش) جميعه، وشـهدنا مسـرحيات أخرى كمسـرحية: (كاترسـو) و(ماهاجوني) كما سمعنا موسيقى (كورت فيل).

وبينما كانت مبادئ أحزاب اليســـار الثورية تطغى على المســـرح، كان كتاب اليمين يصـــدرون كتبًا ســياســية وفلســفية، يؤيدون فيها مبادئ هتلر من حيث لا يشعرون. وليس في استطاعة مؤرخ العصـور القادمة أن يفهم ويشـرح تاريخ (الرايش) الثالث إلا إذا قرأ كتابي (تدهور الغرب) و(البروســية والاشـــتراكية) للكاتب الكبير (شـبنجلر) و(شـعب بلا مجال حيوي) و(ميراث من ليس له ميراث) وكتب أخرى من هذا النوع. ولا يفوتني أن أذكر كتبًا أخرى مهمة مثل: (ثورة اليمين) و(الرايش الثالث) لصديقي الكبير (مولز فون دن بروك) أخلص المخلصين بيننا.

ولقد جرى حوار خالد بينه وبين (شبنجلر) الذي كان يقدس البروسية في جلسة عقدت في (نادي يونيه) شهدها هذان الرجلان اللذان يعتبران في طليعة كبار المفكرين في هذا العصر، فكان من رأي (شبنجلر) أنه يجب استخدام الاشتراكية لمصلحة البروسية، وهذا هو الرأي الذي أخذ به هتلر، أما "مول رفون بروك" فقد لخص رأيه في هذه الجملة: "لقد كنا جرمانيين، ونحن الآن ألمانيون، وسنكون غدًا أوربيين" غير أن هتلر لم يفهم هذا الرأي مطلقًا.

وفي سنة 1929 كان هتلر لا يزال يقول مستندًا إلى كتاب "الرايش الثالث" لصديقي السابق الذكر: "كان الرايش الأول "بسمارك"، والرايش الثاني لجمهورية فرساي، أما الرايش الثالث فهو أنا".

وكنت كلما سمعته يقول هذا القول الشنيع، رددت عليه: "كلا لقد قال (مولر فون دنبروك): (كان الرايش الأول إمبراطورية شرلمان المقدسة المؤلفة من الولايات المتحدة المسيحية، وكان الرايش الثاني رايش غليوم وبسمارك، ويجب أن يكون الرايش الثالث (اتحاد أوربي مسيحي).

"وصلت الأوامر من ميونيخ. وهي تقضى بالشروع في العمل هذه الليلة".

كان "هينريش هملر" مساعد أخي "جريجور" واقفًا في مكتب هذا الأخير وقفة عسكرية، وهو في أشد حالات الانفعال.

"هل هي أوامر من هتلر؟"

"نعم"

أعلن هتلر منذ عدة أسـابيع، وخاصـة خلال الأيام الأخيرة من شـهر أبريل عام 1923، في اجتماعات عدة: (لن تحدث مظاهرات أول يونيه إلا إذا مشى المتظاهرون على جثتي بأقدامهم).

وبناء على هذا دقت ساعة العمل، وكانت جمعيات اليمين تستعد للرد في اليوم التالي، على الاضطرابات التي قام بها الشيوعيون في الأيام الأخيرة، بحملة فاصلة.

وكان قد اتخذت طيلة نهار 30 أبريل اسـتعدادات سـريعة سـرية في مدينة (لاندشوت) الصغيرة. ووردت الأوامر بشأن ذلك من عاصمة المقاطعة إلى قرى بافاريا السـفلى. وكان جنود (جريجور) من المحاربين القدماء، الذين انخرطوا منذ ثلاث سـنين في سـلك فضـائل الهجوم، يتأهبون لإقامة نظام جديد في ألمانيا. فلم يكن هناك بيت يخلو من السلاح، وكان الناس يرقبون بشوق ولهفة قدوم اليوم الذي تشتعل فيه نيران الثورة. وكانت الحظائر مملوءة بسـيارات النقل القديمة التي أعدت للثوار عندما تتاح لهم فرصة العمل.

وعندما أرخى الليل سدوله أخذ رجال (لاندشوت) الطريق وعلى رءوسهم خوذات فولاذية ثقيلة. وكان هؤلاء الرجال من جماعة (فلدجرو) الذين خاضت ملايين منهم غمار الحرب الماضية وانطلقت سياراتهم المضاءة بمصابيح محجبة الأنوار في الطريق المنبسط الذي يخترق السهل الممتد من (داشو) إلى ضواحي (ميونيخ)، وكان (جريجور) يتولى قيادة تلك القافلة السوداء المؤلفة من 3000 رجل، والتي كانت تشبه أشباحًا تسير في أحشاء الظلام الدامس. وهنا دوّت وسط سكون الليل أبواق سيارات مجهولة، وأضاءت هذه السيارات الطريق بأنوارها الساطعة، وهي تطوي الأرض طيًا فتهامس رجال (جريجور): (البوليس، البوليس).

ولحق بعض هذه السيارات بالقافلة، وأوقف رئيس الشرطة سيارة (جريجور) فالتقى الرئيسان وجهًا لوجه، وصاح (جريجور) (أهل هو أنت، من أي بلد قدمت؟) فقال الملازم (جورج هوفلر) زوج شقيقتي (أولجا): (أنا قادم من لاندشوت) مثلك.

كان (جورج هوفلر) ضابطًا في البوليس ورئيسًا لشرطة (لاندشوت) منذ أن ترك الخدمة في الجيش العامل، فقال (جريجور).

– أي بلد تقصد؟

– ميونيخ، مثلك

– أمعنا أنت أم ضدنا؟

– لا أدري. سيتسلم كلانا أوامره في ميونيخ

ومكث (جريجور) و(جورج هوفلر) لحظة وجهًا لوجه، ينظر أحدهما إلى الآخر في تردد وحيرة، وكان الأول طويل القامة أشقر الشعر مفتول العضلات، وكان الثاني نحيف القوام، رقيق البدن، ولكنه ذو وجه نحاسي تبدو عليه الشجاعة ومضاء العزم. فقال (جريجور) في شيء من الفلسفة: (سنرى غدًا).

وقال (هوفلر) وهو يشد على يد صاحبه: (أتمنى لك حظًا سعيدًا!) واستأنفت سيارات البوليس سيرها الحثيث قاصدة إلى (ميونيخ) كما انطلقت سيارات فصائل الهجوم في طريقها إلى (ميونيخ) أيضًا.

ولقد كانت تلك المقابلة الليلية التي انتهت بعد مضي بضعة شهور بمأساة، أول فصل مضحك من فصول تلك الدعابة التي حدثني عنها أخي (جريجور) وزوج شقيقتي مرات عديدة. وقال لي (جريجور) وهو يقص على تفاصيل الحوادث التي وقعت في أول مايو:

(كان ذلك اليوم يوم التجربة العامة لثورتنا).

وكنت كلما أكدت لأخي أن هتلر – بطل هذه الحوادث – كان يستحق استهجان الجمهور وتعريضه، هز (جريجور) كتفه كمن أراد أن يقول (إنك لن تفهم شخصية هتلر أبدًا..).

واصـــل "جريجور" الســير في طريقه خلال الليل، وهو مشــغول بفكرة لا تبرح خاطره: إما أن هتلر يعمل لحســاب الحكومة وقصــد رجال الشــرطة إلى (ميونيخ) لتعضـــيد الثورة، وفي هذه الحالة ســتكون الثورة مرة أخرى ثورة (بورجوازيه)، وإما انفضـح سـر الثوار حتى أنهم سـيحرمون من ميزة المفاجأة، وسـتتمكن السـلطات من القبض عليهم في هذا المساء نفسه.

ومع ذلك لم ير أحد أي شــيء يدعو إلى الريبة والشـك حتى وصـول فصـائل الهجوم إلى (ميونيخ).

واتصـلت فصـائل اليمين الثلاث بعضـها ببعض في سـاحة المناورات الكبرى في المدينة دون أن يقع حادث ما، فظهرت فصـــائل (جورنج) الهجومية بكامل عدتها، وبجانبها كتيبة (أوبرلاند) التابعة للدكتور (فيبير) ثم فصـــيلة (اتحاد علم الرايش) بقيادة الكابتن هيس، وكانت الثورة تحت رعاية الجنرال (لودندورف) وبزعامة هتلر سـياسـيًا، وبقيادة الليوتنانت كولونيل (كريبل) حربيًا.

وكانت الساعة الثامنة صباحًا، وكان الطقس حارًا كما هي الحال في شهر يوليه، وكانت الشـمس ترسـل أشـعتها على عشـرين ألف خوذة فولاذية وعلى ملابس الثوار القديمة التي كانت لديهم منذ الحرب، وكانت فصـــائل هجوم (ميونيخ) بقيادة الملازم (روسباخ) ترتدي القمصـان السـمراء التي كان هتلر يمقتها أشـد المقت. فقد حمل هذا الضابط الشاب الذي نظم شباب الرايش؛ جنوده على قبول هذا الزي.

كذا اجتمع رجال (أدولف هتلر) في مكان واحد، فكان هناك (هرمان جورنج) يرتدي لباسًا ضاق بجسمه اليدين، و(فريك) و(هيس) و(شترايشر) و(جريجور ستراشر) و(هملر)، وكبار المأساة الهتلرية وصغارها، وجميع هؤلاء الذين كتب عليهم أن يلعبوا دورًا ما في هذه الثورة، وأولئك الذين ظلوا أشخاصًا خاملين، ومن قضت عليهم أساليب العنف الدموية.

ومضت عشر ساعات على أدولف هتلر، وهو مقطب الجبين، يرفع خوذته الثقيلة من وقت لآخر، ويجفف جبينه المتصبب عرقًا. نعم مضى وقت طويل دون أن تصدر إليهم الإشارة المتفق عليها، وفي الساعة الحادية عشرة لاحت في الأفق فصيلة من الجيش يحوطها من اليمين واليسار رجال البوليس.

ولم تمض لحظة حتى ضربت هذه الفصيلة حصارًا محكمًا حول الثوار، وكان الملازم (هوفلر) يتولى قيادة البوليس، وكان الكابتن (ريم) أحد ضباط الفصيلة، وهنا ثار هتلر ثورة جنونية وانقض وهو يرغي ويزبد على الكابتن (ريم) وصاح به قائلًا: "لقد غدرت بنا".

غير أن "ريم" لم يكن يخشى هتلر، بل كان لا يزال يعتبره ذلك المرءوس الصغير و"أونباشي" الفرقة السابعة التي كان "فورايب" يتولى قيادتها. وكان (ريم) قد عرف (هتلر) في سنة **1919** واستخدمه منذ ذلك العهد مخبرًا لاستقاء الأنباء والأخبار. وكان (ريم) ضابطًا في هيئة أركان حرب (فون إيب) ومسئولًا عن الشئون السياسية في (بافاريا).

وكان تحت أمرته عدد من الرجال والضابط المكلفين باستراق السمع واستقاء الأنباء عن الأعمال السرية لمختلف الأحزاب. واتفق لـ (ريم) أنه أرسل هتلر يستطلع ماهية ذلك الحزب الجديد، المسمى بحزب العمال الوطني الاشتراكي الذي بدأ الناس يتحدثون عنه في (ميونيخ) فوضع الأونباشي هتلر تقريرًا قال فيه:

(إن هذا الحزب يتألف، يا سيدي الرئيس، من عامة الشعب والعمال وهم من أعداء الماركسية).

وكان (ريم) سريع الخاطر، منظمًا من الطراز الأول، يعرف رجاله خير المعرفة. ولقد استوقفت نظره منذ عهد طويل قوة هتلر الإيحائية. وذات يوم أصدر (ريم) الأمر التالي إلى الأمباشي الصغير: (التحق بهذا الحزب، واجتهد أن تؤثر في نفوس هؤلاء الناس). فقام هتلر بمهمته خير قيام، حتى أنه استطاع في بضعة شهور أن يسيطر على زعيم الحزب (دركسلر)، كما أنه تمكن من فصل المهندس (هارير) الذي كان معدودًا من الأعضاء المهمين في الحزب.

واستطاع هتلر بمعونة (ريم) المالية أن ينظم الحزب، وينشئ جماعات مهمة من فصائل الهجوم ذات الصبغة الحربية، وكانت فرق الجيش النظامي التي اضطرت إلى التجرد من سلاحها تتخلى لفصائل الهجوم عن الأسلحة التي كانت تريد إخفاءها عن مراقبة الحلفاء.

كذلك توصل هتلر بنقود (ريم) إلى شراء جريدة فولكشر بيوباختر Volkischer Beobachler وهي صحيفة محلية نصف أسبوعية، صارت فيما بعد لسان حال الحزب الاشتراكي الوطني.

أما (ريم) فقد بقي في مكانه، ولم يلق بالًا إلى صعود هتلر السريع في مراتب حزب العمال الوطني الاشتراكي. وشمل "ريم" برعايته الودية صاحبه الثائر ذا النظرات الدموية.

وكان (ريم) عملاقًا ينم حديثه عن خلق السيد الآمر. وكان مسيطرًا على الجنرال (فون إيب) نفسه، وكان يوجه مساعديه كيفما يحلو له ويريد.

وقال هتلر: (ماذا حدث؟)

فقال (ريم) بهدوء: "إن الوقت لم يحن بعد. ولا تزال الحكومة والجيش يستسيغان مظاهرات أول مايو الحمراء، كما أن ألمانيا الشمالية ليست مستعدة بعد".

فحاول هتلر أن تلتقي نظراته بعيني الكابتن (ريم) ثم غض من بصره.

(إن الوقت لم يحن بعد)

بينما أشـــار (جريجور) و(كريبل) بالعمل في الحال، وإطلاق النار على جنود الجيش، فرفض هتلر هذا الرأي رفضًـا باتًا. وظل الجيش يحاصـر الثوار حتى المسـاء، فلم يسـتطع هؤلاء العودة إلى معسـكراتهم إلا تحت سـتار الظلام. وجرت مظاهرات الشـيوعية دون أن يقع حادث ما، فباء الوطنيون الاشـتراكيون بالخيبة والسـخرية. وهكذا مني هتلر في أول مايو بفشــل لم يجد عنه عزاءً، وحقد بســببه على الكابتن "ريم"، ولم تقو الأعوام التالية على محو ذكرى هذا الفشـل المخزي الذي صـادفه ثوار "ميونيخ".

فلم يهدأ لهتلر بال، وراح يتأهب ليل نهار ليثأر لحزبه. واتفق أن تألفت وزارة حمراء في (ذاكس تيرنج) فزاد تأليف هذه الوزارة في تحرج الحال واسـتفحال الخطر، وأظهر "ريم" عزمه على البدء في العمل، وانضم الجنرال "إيب" إلى صفوف المتآمرين.

غير أن تقدم الشـيوعية في شمال ألمانيا أثار قلق الحكومة؛ فحاولت عزل ألمانيا الجنوبية وحمايتها من هذه المبادئ الخطرة، وأراد ولاة الأمور أن يتفادوا الحرب الأهلية، التي كان لا بد من وقوعها إذا قام الحزب الوطني الاشـتراكي بثورة فجائية لقلب نظام الحكم في البلاد، فتولى (فون كار) ذو القبضـة الحديدية، في 26 سـبتمبر، قمسـارية الدولة في باقاريا، وأقيل (فون إيب) وعين مكانه الجنرال (فون لوسوف) وأقسم الجيش يمين الطاعة والإخلاص لـــ (بافاريا) لا (للرايش) وحظر على "لودندورف" الإقامة في (ميونيخ).

فغضب الجنرال "لودندروف" و"فون إيب" غضبًا شديدًا، وأقيل الكابتن "ريم" فراح يرغي ويزبد. أما هتلر فقد ثارت ثورته وأشار "جريجور" – الذي كان يميل إلى الحلول الجريئة – بالعمل السريع، وكانت الفكرة تقضي بإرغام حكومة (بافاريا) الجديدة على مناصرة ثوار اليمين والعمل معهم ضد بروسيا وألمانيا الشمالية الشيوعية.

وكان المتآمرون يجتمعون كل مساء في قاعات "بورجير براو" الخاصة وهو مطعم من مطاعم "ميونيخ" الذي توجد به قاعة كبيرة للاجتماعات العمومية، وكان من بين المجتمعين الكابتن "جورنج" أحد ضباط الطيران وجندي من الطراز الأول، ولا ريب في أن "جورنج" لو أمكنه الاحتفاظ بوظيفته التي اختارها، لما زج بنفسه في طريق المغامرات.

تخرج "هرمان جورنج" في مدرسة الحربية، وكان ضابطًا ذا نظر قصير وخيال ضيق وذكاء متوسط. وكان فظًا غليظ القلب، أكولا، محبًا للخمر والملذات واللهو والمجون.

أما "هنريش هملر" فقد درس فن الملاحة، ولكنه لم يجد عملًا، وكم تمنى أن يكون ضابطًا في الجيش دون أن تتحقق أمنيته! وكان "هملر" مغرمًا مثل "جورنج" بالملذات واللهو والمجون، وكم من مرة قال له أخي "جريجور": "أعتقد أنك ستظل صبيًا العمر كله". وقال له أيضًا: "إن روحك وشعورك كروح القصاب وشعوره".

لم يكن "هملر" غليظ القلب، ولكنه كان ممن لا مبدأ لهم ولا خلق ثابت. وكان عاجزًا عن استشعار الألم أو التأثر بالعواطف، ومما هو جدير بالذكر عن هذا الرجل أنه اعتقل شقيقه. وما من ريب في أن "هملر" لا يحجم لحظة عن قتل أبيه وأمه إذا أمره رئيسه بذلك.

أما من حيث النساء، فقد كانت صورة "هنريش هملر" تذكرني على الدوام بكلمة "جرتش" في رواية "فاوست": "هنريش، إن سحنتك تنفرني"، ولقد وقع لـ "هملر" حادث غرامي واحد، رواه لي بلسانه. ذلك أنه قد اتفق لـ "هملر" وهو في الثانية والثلاثين؛ أن أمضى ليلة في أحد الفنادق، فعشقته صاحبة الفندق، وكانت تكبره بعشر سنين. ولا بد للمرأة التي استطاعت أن تعشق "هملر" من أن تبقى مخلصة لهذا الحب إلى النهاية!

أما "رودلف هيس" فليس لدي ما أقوله عنه سوى أنه كان فنانًا مثقفًا، وضابطًا شاعرًا وشابًا وسيم الطلعة، مخلصًا شديد الحماسة، ولقد أعجب (هيس) بشخصية (هتلر) إعجابًا قويًا لم يهن ولم يتغير يومًا ما. غير أن ألسنة السوء كانت تسمى "رودلف هيس" – الآنسة هيس– وذلك لهيامه بـ (أدولف هتلر)، ولكني أعتقد شخصيًا أنه هيام طاهر وحب شريف.

وليس ثمة أعجب من ذلك التباين الكبير بين (هيس) و(يوليوس شتراشر)، هذا الخليع الماجن. ولعمر الحق أني لم أعرف رجلًا سيطرت عليه الغريزة الجنسية قدر ما سيطرت على (شتراشر).

ولقد اتخذ (شتراشر) المبادئ العنصرية وسيلة لنشر آرائه الخطرة الصادرة عن خيال سقيم في جريدة (شتور)؛ فقال لي ذات يوم: (إن جريمة جنسية يرتكبها اليهود، وتنشرها جريدتي في الصفحة الأولى، لهي كنبيذ لذيذ الطعم يشحذ الشهية أو كأكلة بدأت بصحن فاخر من (البطارخ). ولا غرو فقد كان (شتراشر) منبوذًا دميم الخلقة حتى كانت النساء تنفر منه نفورًا شديدًا. وعوقب (شتراشر) أبان الحرب الماضية بتجريده من أوسمته، لأنه اعتدى على عفاف معلمة فرنسية.

ولا يفوتنا أن نذكر، من بين زعماء المتآمرين، الهر (فريك)، وليس ذلك لأهميته الشخصية بل لخطورة الأعمال التي كان يقوم بها لحساب أحد الشخصيات الكبيرة. ولقد كان (فريك) نزيهًا، مستقيم الخلق والسلوك، وكان يعمل في دور الشرطة، واستطاع أن يكون موضعًا لثقة مدير شرطة (ميونيخ) الهر (يينر) رئيس الملكيين في بافاريا، وكان (يينر) هذا من كبار المتآمرين الذين لا يثنيهم شيء عن المضي في سبيلهم، كما أنه كان من الرجال الذين يتحملون مسؤولية أعمالهم، إذا تطلب الأمر ذلك.

وبفضل (بينر) استطاع (لوندورف) أن يمكث في (ميونيخ) بعد فتنة (كاب) كما تمكن قاتلو (أرزبيرجر) من أن يعودوا إلى ألمانيا بجوازات سـفر مزيفة، وكان (بينر) يحلم بعودة (فيتلسـبلخ)، ويسـتعلم من فريك عن تطور الحركة الوطنية الاشـتراكية التي كان يفكر في الاســتعانة بها لتحقيق أغراضـه. ولقد توفي (بينر) عام 1925 في حادث عجيب من حوادث السيارات، وأكد بعض الناس أنه قتل بأمر (هتلر).

وكذاك كان (فريك) متممًا للجماعة المؤلفة من: "هتلر"، و"جورنج"، و"ريم"، و"جريجور شــتراســر"، و"هيس"، و"شــترايشــر". وكان (فريك) من رجال القانون الأكفاء، فأســدى خدمات جليلة للحزب. وهو أكبر الثوار ســنا، والعضــو الوحيد الذي كان ذا عمل في المجتمع وأسرة وعيشة منظمة.

وكان هتلر يتسـاءل كيف يمكنه أن يضـم إليه (فون كار) والجنرال فون لوسـوف والهر زيسـر، رئيس شـرطة بافاريا. واعتقد أنه لو انضـم إليه هؤلاء الثلاثة الذين كانوا يمثلون السلطة البافارية، لاستطاع إحراز النصر على وجه التحقيق.

وكان يدور بخلد (هتلر) أنه من المستطاع أن تندلع نيران الثورة الحربية أيضًا من بافاريا، وكان "لوندورف" يناصــر هتلر، ولم يزل نفوذه قويًا حتى لدى قواد بروســيا العسكريين.

وبدأ هتلر يتفاوض مع أعيان الناحية. ولقد عرف عن (الفوهرر) أنه يحترم الأسر الألمانية القديمة وحملة الرتب والنياشين والطبقة المهذبة. ولطالما استمع "فون لوسوف" إلى "هتلر" يتحدث عن مشـروعه، فشـعر بأن الفوهرر مريض بحب العظمة، وداخلته الريبة في نجاح المشـــروع. وكثيرًا ما حاول "فون لوســـوف" أن يخفف من اندفاع هتلر وحماسـته دون جدوى إذ كان الزعيم مصـممًا على العمل. وعندما سـأله فون كار عن الرجل الذي سيكل إليه إدارة الشئون السياسية في ألمانيا، قال بكل بساطة:

"سأكلها إلى نفسي"

وطبعي أن "فون كار" لم يوافق على هذه الخطة، كما طالب "فون لوســـوف" بضـمانات عدة وأظهر "زيسـر" ترددًا وإحجاما. ومع ذلك فقد قضـي الأمر، وكانت الغلبة لـــ (هتلر) في النهاية. واستقر الرأي على تحديد يومي 10 و11 نوفمبر لقيام الثورة، بيد أنه اتصل بـــ (هتلر) في اللحظة الأخيرة، أن (فون كار) قد وجه دعوة إلى عقد اجتماع يوم 8 نوفمبر في بيرجربو ويكيلر، ليلقي فيه خطابًا عن برنامج الملكيين

في بافاريا؛ فبادر الفوهرر إلى تغيير الموعد المتفق عليه، وحدد 8 نوفمبر يومًا تاريخيًا لقيام الثورة الألمانية.

ولابد من أن طبيعة هتلر قد أوحت إليه أن يعمل دون معاونة موظفي ذلك النظام القديم الفاســـد، والجنود القدماء الذين خدموا غليوم الثاني. وعلى الرغم من مناقشـــات طويلة اســـتمرت عدة أســـابيع، فإن (هرمان جورنج) لم ينته إلى اتخاذ أي إجراء جدي. أما هتلر فقد أراد بجماعة قليلة أن يغامر بثورة ألمانيا الكبرى ويعرضـــها لأخطار كثيرة. وكان لديه ستمائة رجلًا يصـدعون بأمره. وأحيط (جريجور شـتراسـر) بعزم (الفوهرر) في اللحظة الأخيرة، فجمع ثلاثمائة وخمسين جنديًا من فصائل الهجوم في (لندشـــوت) واقتادهم إلى ميونيخ. وكان الجنرال (لودندورف) الذي أغفل إبلاغه الأمر، في (لودفيجســـهوهي)، قد أرســـلت إليه ســـيارة في طلبه على وجه الســـرعة. وارتدى (هتلر) لباس (الريدنجوت) وزين صدره بوسام الصليب الحديدي.

ثم بدأت فصائل الهجوم الزحف نحو المكان المقصود. وكانت الخطة تقضي بأن تضـــرب هذه الفصـــائل الحصـــار حول مبنى (بورجير براو) ويقتحم هتلر ورجاله قاعة الاحتفال، فيعتقلون (كار) قبل أن يبدأ خطابه.

وقال هتلر لصاحبه (شويبنر رشتر) الذي انطلق إلى (ميونيخ) في طلب الجنرال (لودندورف).

"سيضطر "كار" إلى التسليم والانضمام إلينا، ثم يتبعه أنصاره".

واســـتقل (هتلر) الســـيارة، وهو مؤمن بصـــواب رأيه، فانطلقت به صـــوب (بورجيربراو).

وعندما بلغ (هتلر) ورجاله مكان الاحتفال، وجده غاصًا بالحضور، واعترضت الجماهير المحتشدة في مدخله ذلك الثائر الذي زين صدره بوسام الصليب الحديدي، فطلب إليهم، وهو في أشد حالات الاضطراب والانفعال، أن يسمحوا له بمقابلة المحافظ "كار". غير أن "كار" كان قد بدأ خطابه في قاعة الاحتفال. فتردد هتلر، ولم يكن هناك متسع للتردد والإحجام. وأرهف السمع فسمع صوت خطوات فصائل الهجوم تقترب من المكان طبقًا للتعليمات المتفق عليها.

وهنا صاح (هتلر) بالشرطي المكلف بالمحافظة على النظام: "أخل هذا الممر من الجمهور"، فبهر الرجل عندما وقع نظره على وسام الصليب الحديدي، وصدع بالأمر دون سؤال أو استفسار، وبعد ذلك ببضع دقائق اقتحمت فرق الهجوم مدخل المكان؛ حيث كان (أدولف هتلر) ينتظرهم، وهو يقبض على مسدسه في أحد جيوبه، وقد شعر (الفوهرر) في تلك اللحظة بنظرات جنوده الشبان تتجه إليه، ولم يكن قد فكر فيما سيفعل لو فشلت هذه المفاجأة أو رفض الرجال الثلاثة الذين اعتمد عليهم، أن يتبعوه.

ولكنه لم يلبث أن اقتحم قاعة الاحتفال كما يقتحمها مجنون ثائر، فوجد ثلاثة آلاف من البافاريين جالسين حول أقداح الجعة، يرتشفونها ويستمعون إلى فصاحة (فون كار) الخلابة، فقفز (هتلر) إلى أحد المقاعد. وأطلق مسدسه نحو سقف القاعة، وصاح بصوت خشن مضطرب: (لقد بدأت الثورة الوطنية). وكانت فرق الهجوم قد تبعته إلى القاعة، حيث كان الحضور الذين أذهلتهم هذه المفاجأة، قد أحيطوا علمًا بثورة هتلر. فأين كان رجال الشرطة في ذلك الوقت؟

كان هناك اتفاق سـري بين هتلر والمحافظ (فون بينر) الذي وعد بأن يسـاعده مساعدة تامة، وكان (فون بينر) يتأهب منذ تلك اللحظة لتأليف وزارة جديدة، وعهد إلى الدكتور (فريك) ساعده الأيمن، بالسهر على ألا يعرقل رجال الأمن أعمال هتلر.

لقد كتب كثير من الكتاب عن فتنة (كاب)، وتحدثوا عنها تفصـيلًا وإجمالًا، لذلك سألقي نظرة عاجلة على تاريخ الحوادث التالية.

أصـدر (هتلر) أمره إلى (فون كار) و(لوسـوف) و(زيسـر) أن يتبعوه إلى غرفة مجاورة للقاعة الكبرى، حيث جرى ذلك الحوار المشـهور الذي أقسـم فيه هتلر بأنه سينتحر إن فشلت الثورة. ووضع هتلر فوهة المسدس على جبهته، وصاح قائلًا:

"أيها السـادة: إن أحدنا لن يخرج حيًا من هذه القاعة: أنتم ثلاثة، ولدي أربع رصاصات في مسدسي تكفي لقتلنا نحن الأربعة، إذا فشلت هذه الثورة".

فيا لها من مهزلة مروعة! الحقيقة أن هتلر لم يرد الانتحار كما لم يرد قتل ممثلي السـلطة الشـرعية الثلاثة، أو لم يعترف أمام القضـاة بأن (فون كار) كان في حالة اضـطراب تدعو إلى الشـفقة، وأنه (أي هتلر) يأسـف على أنه اضـطر إلى اسـتخدام الشدة مع رجال من ضباط الجيش؟

لقد كان هتلر في تلك اللحظة مسـيطرًا على هؤلاء الرجال الثلاثة، فهل كان بحاجة ماسـة إلى معونتهم ووقوفهم في صـفه؟.. لا ريب أنه كان يمكنه العمل دونهم، ولكنه كان محتاجًا إلى موافقتهم على أعماله، كما كان متعطشًـا إلى تصـفيق الجماهير وهتافهم بحياته.

وتعلق هتلر كما يتعلق الجبان الغادر بما قاله (فون كار) في مهارة وكياسـة بغية التخلص من ذلك المركز الحرج الذي كان فيه هو ورفيقاه أمام ذلك الرجل الثائر:

(كل هذا جميل، غير أني من أنصار الملكية، ولا أقبل أن أكون وصيًا على عرش بافاريا إجابة لطلبك إلا لأخدم الملكية كأحد خدامها المخلصين).

والحق أن هذا كلام طيب خليق أن يصـدر من ملكي صـميم، فلو أن هتلر من الثوار الصـادقين، لاعتقل هذا العدو المناصـر للنظام القديم، ولكنه راح يداهن "فون كار"، فقال:

(يا صـاحب السـعادة أرجو أن تصـغي إلي، وتفهم قولي، نحن مدينون للبيت المالك بإصـلاح ما اقترفه المجرمون من مظالم ومحاز. وإني مسـتعد لو سمحتم أن أتوجه بنفسـي لمقابلة صـاحب الجلالة الملك وأبلغه أن الثورة الألمانية الكبرى قائمة لإزالة الظلم الذي اقترف ضد المغفور له والد جلالته).

هكذا أراد "هتلر" الجمهوري أن يتوجه بنفسه لمقابلة صاحب السمو الملكي "روبرشت" ويبلغه أنه سيثأر للمرحوم والده! وبعد هذا الحوار أظهر "فون كار" أنه مقتنع بأقوال هتلر، وانضم "فون لوسوف" و"زيسر" إلى "كار" فاعتقد هتلر أنه قد كسب القضية.

وهنا ترك "الفوهرر" أصحابه حيث كانوا؛ وعاد إلى قاعة الاحتفال حيث خطب الحضور مدافعًا عن قضيته فقال: (إني أقترح أن أتولى بنفسي إدارة الشئون السياسية للحكومة الوطنية حتى نخلص من محاسبة المجرمين الذين ساقوا الوطن إلى الخراب والدمار.

ولقد اتفقنا على أن يكون "فون كار" وصيًا على عرش بافاريا، و"بير" رئيسًا لمجلس الوزراء وأن يتولى الجنرال (لودندورف) قيادة الجيش الوطني، والجنرال (فون لوسوف) وزارة الحربية والكولونيل "فون زيسر" وزارة الأمن.

أما مهمة هذه الحكومة الوقتية فهي الزحف على برلين، وإني أطلب إليكم أن توافقوا على اقتراحي هذا).

هكذا قال هتلر: (إني أقترح!!. إني أطلب!!) وفي هذه الأثناء، بلغ الجنرال "لودندورف" مكان الاجتماع، وكان رابط الجأش، على الرغم من امتقاع لونه، وأعلن قائلًا: (إني أضع نفسي مختارًا في خدمة الحكومة الوطنية.)

فتصاعدت هتافات الفرح والسرور من صدور المجتمعين، وتبادل (هتلر) و(فون كار) تحية الوفاق والســـلام. وأراد هتلر تأليف الوزارة في الحال، فقال "فون كار" أنه متعب ويفضل البحث في هذا الموضوع في الساعة التاسعة من صباح غد. فقال هتلر، وهو يشرب نخب "فون كار":

"إني أرجو، سموكم أن تضعوا نصب عينيكم قضيتنا المشتركة ومصالح ألمانيا المقدسة، وغدًا ستؤلف الحكومة الوطنية أو نموت جميعًا".

كلام ليس له معنى، فقد أقســـم هتلر مرتين في تلك الليلة أن يقتل نفســـه لو فشل في ثورته، ولكنه لم يفعل بل على العكس عمَّر بعد ذلك طويلًا... أما "فون كار" فقد نقض عهده، واتخذ في نفس الليلة العدة لمقاومة هتلر. وصدت فصائل اليمين في محاولتها الاســـتيلاء على كثير من الدور العامة، ولم يعلم هتلر بخيانة "حليفه" إلا في صباح اليوم التالي.

ولقد وصـــف "الفوهرر" الحوادث التي وقعت، فقال: "اجتمعنا: منذ طلوع الفجر، في "بورجربراو" ولحق بنا الجنرال "لودندورف" ومكثنا حتى الظهر دون أن يصل إلينا نبأ ما".

هكذا مضت ساعات عدة دون أن يدرك هتلر حقيقة الأمر من تلقاء نفسه، ولكنه فضل أن يخطب الجماهير طويلًا ويستميل إليه صغار الطبقة المتوسطة؛ فقرر عند الظهر أن يبدأ هو ورجاله التجول في أنحاء المدينة لنشرة الدعوة.

وكانت "ميونيخ" قد غصت بفصائل عدة من الجيش والشرطة وجعل الموكب وعلى رأسه "هتلر" و"لودندورف" وفي مؤخرته فصائل الهجوم، يتجول في طرقات المدينة. وبناء على أمر الزعيم، احتفظ الثوار ببنادقهم داخل غلافاتها وتركها بعضهم معلقة بأكتافهم. ذلك أن هتلر كان متفائلًا مطمئنًا إلى وقوف الجماهير بجانبه، ولم يكن يتوقع نشوب معركة ما! ولكن أي اعتبار وأية قيمة لرغبات الشعب في تلك الساعة؟ عبثًا صفق هذا الشعب وهلل للثوار ودعوتهم في (هيلان مارين) وعبثًا طالب الشعب بمعاقبة مجرمي سنة **1918**، فقد كان رجال الأمن يريدون شيئًا آخر.

وعندما بلغ هتلر ورجاله (فلدهر تهاللا) أطلقت عليهم نيرانًا حامية... ووقعت عقب ذلك حوادث تعد من أخزى الحوادث التي سجلها التاريخ بعد الحرب الماضية، فبينما كان "لودندورف" يقترب، عالي الرأس، من مكان الشرطة الذين كانوا يطلقون النار على رجاله، انبطح هتلر على الأرض، بعد أن وقف أمامه الملازم "أولرش جراف" ليفتديه بنفسه ويحميه من رصاص الشرطة.

وإني أقرر هنا أن جميع الأقوال التي نفت هذا الحادث ليس لها نصيب من الصحة على الإطلاق، فالذي أنطرح على الأرض هو "هتلر" نفسه لا أحد غيره. وتبع ذلك هرج قتل فيه ثلاثة عشر من الوطنيين الاشتراكيين، وجرح عدد كبير من الرجال، من بينهم "هرمان جورنج"، واعتقل الشرطة كثيرًا من الثوار في الحال، غير أنهم لم يعثروا "لهتلر" على أثر؛ لأن سيارة خاصة التقطته وانطلقت به إلى مكان ما.

وبعد انقضـاء هذه المعركة الصـغيرة اسـتطاع "جريجور" أن يرتد برجاله إلى طريق (لاندشــوت)، وإذ كان يقطع تلك الطريق في أحشـاء الظلام، اعترضــته فصـيلة من الجيش، وصــاح الكابتن (أرهارت) مخاطبًا أخي: "ســلموا أنفســكم". فرد (جريجور): "أفســـحوا الطريق وإلا أطلقت عليكم النـار"، فتركهم الجيش يمرون حقنـا للـدمـاء؛ واستطاع (جريجور) ورجاله أن يعودوا إلى مدينتهم سالمين.

وفي اليوم التالي بينما كان (جريجور) و(هملر) جالسـين إلى مائدة الطعام، إذ طلع عليهم (جورج هوفلر) يرتدي لباسًا رسميًا، فقال جريجور (تفضـل معنا)؛ فقال (هوفلر) بصــوت خشــن (إني أتيت لاعتقلك)، وفي تلك الأثناء كان رجال الشــرطة يحاصــرون الدار؛ فنهض أخي (جريجور) وتبعه (هوفلر) زوج شقيقته حتى سجن (لاندشوت). أما هتلر فقد اعتقل بعد ذلك ببضــــعة أيام، وكان قد لجأ إلى (إيفنج) عند صــــديقه (هانفسـتنجل) الذي صـار فيما بعد رئيسًـا للصـحافة الهتلرية، ولقد عثر الشـرطة على (هتلر) مختبئًا في خزانة ملابس الآنسة (هانفستنجل).

الفصل الثالث

هتلر يكتب "كفاحي"

إن أكثر الحكومات حبًا من الشـــعب، تتعرض لفقدان ثقة هذا الشـــعب إذا حنثت بعهودها علنًا. ولم تكن حكومة (فون كار) محبوبة من الشـــعب كله، غير أن الطريقة التي خدعت بها ثوار (بورجر براو) جلبت عليها كراهية الناس واحتقارهم.. فقد أثارت أعمالها حفيظة الجماهير، واشتعلت نفوسهم غضبًا لدماء الثوار التي أراقها رجال الشــرطة في 9 نوفمبر، وكســب الحزب الوطني الاشــتراكي عطف الجماهير في قضــية (ميونيخ) التي كانت صــورية أكثر منها قضــية حقيقية، وذلك على الرغم مما أظهره القضاة من التسامح إزاء الثوار، بيد أن هتلر قد خسر من جراء موقفه المخزي عددًا من أصدقائه القدماء.

وفي بداية عام 1924، عقدت محكمة بافاريا الشـعبية جلسـاتها في "ميونيخ"، وكان هتلر في ذلك الوقت أحد الثوار المعتقلين في حصـــن (لاندســـبرج). ولم يلبث (الفوهرر) أن انقشـعت غمته، وامتلأت نفســـه بآمال جديدة، فأصـــبح لا يفكر في رجاله وأصحابه الذين قتلوا في أثناء الثورة. وعندما علم بوفاة صديقه وزميله (ديتريش ايكارت) الذي لم يقو على احتمال صـدمات الأحداث الأخيرة، لم يزد على أن قال: (لقد كان من رؤســـاء التحرير النابهين، ولن يقدر أحد على إدارة جريدة (فولكشـــر بؤباختر) كما كان يديرها!).

غير أن قضـية (ميونيخ) فتحت أمام هذا الثائر الضـال طريقًا جديدًا، وأتاحت له فرصة عظيمة للدعاوى والترويج. أما "كار" و"زيسر" و"لوسوف" الذين اشتركوا في المؤامرة الفاشلة لقلب نظام الحكم، فكانوا لا يزالون أعضاء في الحكومة.

وفي مصـــلحة هؤلاء الثلاثة أن تبقى تفاصـــيل الحوادث التي وقعت في اجتماع "بورجربراو" طي الكتمان.

ثم أن أسماء المتهمين الآخرين كانت من تلك الأسماء التي تســـترعي الأنظار في ألمانيا والعالم أجمع؛ فمما يشـــرف الإنســـان أن يجلس في قفص الاتهام بجانب "لودندورف" و"ريم" و"بينر" و"تيبر" و"كريبل".

أضـــف إلى ذلك أن "هتلر" كان يســـتند في أعماله إلى معونة قوية من جانب صديقه الدكتور "جيرتنر" وزير العدل في بافاريا.

وقضـــى نقاش "براوناو" أي هتلر بضـــعة شـــهور في الســـجن رهن التحقيق، فانطبعت روحه خلال هذه الفترة بطابع جديد، ولم يشـــهد القضـــاة أمامهم ثائرًا من الثوار المجددين بل إنسانًا محبًا للإنسانية، ومطيعًا للسلطة الشرعية. ومنذ ذلك العهد لم يحاول "هتلر" الوصـول إلى الحكم عن طريق الجهاد والنضـال الكبيرين بل عمد إلى التهريج والمداهنة حتى نال بغيته.

هكذا بدأت القضية المشهورة التي تجنب القضاة فيها الأسئلة المحرجة الشائكة، والتي أجاب خلالها كل متهم من المتهمين وفقًا لخلقه ومصالحه وشرفه.

أما "هتلر" فإنه لم يعن إلا بشـيء واحد، وهو إثبات براءته وحسـن نيته وطهارة مقصده؛ فجعل يداهن الكبراء، وينحني أمام (حضرة رئيس المحكمة) ثم قال:

"إني لم أقصـد الثورة بل قصـدت إلى معاونة السـلطة الشـرعية لإيجاد وحدة وطنية".

واستطرد هتلر في الدفاع عن نفسه أمام المحكمة، فقال في فصاحة طنانة وبلاغة رنانة:

"إني لا أريد مطلقًا، إزاء المصـائب التي يعانيها وطننا العزيز، أن أحفر حفرة سحيقة بيننا وبين الذين سيكونون في المستقبل أعضاء في الجبهة المشتركة الكبرى التي يجب علينا تأليفها لمناهضـة أعداء الوطن. وإني على يقين من أن أعداءنا اليوم سينظرون يومًا ما بعين الاحترام والتبجيل إلى أولئك الذين اختاروا طريق الموت لإنقاذ الشعب الألماني".

ثم استجوب الجنرال "لودندورف" فأوشك استجوابه أن يميط اللثام عن أشياء مهمة، لولا أن وكلاء النيابة الذين استمعوا لتعليمات وزير العدل قد عمدوا جاهدين إلى خنق صوت الحق، ومع ذلك شتان بين ما قاله الجنرال "لودندورف" وبين ما تشدق به زعيم حزب العمال الوطني الاشتراكي من عبارات جوفاء؛ فقد قال الجنرال:

"لقد ضاعت الآمال التي عقدتها على يوم 8 نوفمبر لتخليص وطننا المحبوب لأن "كار" و"لوسوف" و"زيسر" قد تناسوا الهدف المشترك، وبرهنوا على أنهم صغار النفوس في الساعة الخطيرة، أما الأخطار التي شهدت ظهورها، فهي لا تزال قائمة، ولشد ما يؤلمني أن الحوادث قد جعلتني أعتقد أن ولاة الأمور فينا عجزوا عن بث العزم والحرية في نفوس الشعب الألماني".

ويؤثر عن "لودندورف" جملة أخرى هي الجملة الوحيدة التي كان على الاشتراكي "أودلف هتلر" أن يفهمها ويعلنها مرات عديدة: "لا سبيل إلى قتل الماركسية بالعنف والشدة ويجب أن نعطي الشعب مبدأ جديدًا".

ومما يجدر ذكره أن المتهمين العسكريين قد ظهروا في مظهر كان أكثر كرامة وإباء من مظهر المدنيين في تلك القضية، فصاح "بينر" في وجه القضاة: "لا شك أني خائن. أليس من الحماقة أن أحاول نفي ذلك أمام فقهاء مثلكم؟!"

أما "ريم"، الذي لم يشترك في إعداد الثورة إلا بقيادته فصيلة ذات صبغة حربية من فصائل الحزب، فإنه استنكر مسلك هتلر المخزي استنكارًا شديدًا. وعلم "ريم" أن "جونج" رئيس فصائل الهجوم فر إلى الخارج، ولقد كان "ريم" الرجل الوحيد الذي قام بعمل حربي في 8 نوفمبر، فاستولى على إحدى ثكنات الجيش، ولم يجل عنها إلا بالقوة.

ولشد ما أحس "ريم" مرة أخرى بخيبة الأمل من جراء أعمال ذلك (الأونباشي السابق) الذي كان أحد جنود فرقته البافارية؛ فعقد "ريم" عزمه على أن يناصر الجنرال "لودندورف"، وتناول ثوار 8 نوفمبر وأساليبهم بالنقد اللاذع في كتابه الذي جعل عنوانه: "مذكرات رجل متهم بالخيانة العظمى".

وبلغ الغضب بـــ (ريم) مبلغًا حمله على الانفصال عن هتلر، عقب عودته من قلعة (لاندسبرج)، ونشر في جريدة (فولكشر يئوباختر) خطابًا مفتوحًا أعلن فيه انشقاقه على الحزب. وها هي ذي إحدى فقرات مذكراته التي حذفت من الطبعات التي ظهرت بعد إجراء الصلح بينه وبين هتلر.

(وإن هناك فريقًا من الناس يأبى الاستماع إلى من ينبهونه إلى الأخطار المحدقة به، وإني لأستنكر هذا الإجراء الخاطئ، ولقد كانت تربطني بـــ (هتلر) صداقة وثيقة العرى غير أنه كان محاطًا بعدد من المداهنين والمداحين، ولم يجرؤ أحد على أن ينقده. أما أنا فكان واجبي يلزمني بأن أكلمه صراحة).

أما المتهمون بثورة (ميونيخ)، فلم يلبثوا أن وضح الخلاف بين صفوفهم وضوحًا أدى بهم إلى أن يأبوا الجلوس على مقاعد الاتهام بعضهم بجانب بعض. فاتخذ (هتلر) مكانه بجوار (فيبر)، وانتحى (فريك) و(لودندورف) و(بيتر) و(كريبل) و(ريم) ناحية خاصة بهم.

وانقضت أسابيع وشهور دون أن تظهر الحقيقة بأكملها من تلك القضية التي كان يخيل إلى الناس أن فصولها وأدوارها قد وضعت ورتبت من قبل.

ويرجع الفضل إلى الدكتور (جيرتنر) وزير العدل، في أن هتلر لم يحكم عليه بالطرد من البلاد، وهو الحكم الذي كان يخافه (الفوهرر) أشد الخوف. ذلك أن هتلر كان قد جرد من جنسيته النمساوية، لهربه من الخدمة العسكرية، ولم يكن قد حصل بعد على الجنسية الألمانية، فإذا حكم عليه بالطرد من ألمانيا، فليس ثمة بلد يقبل أن يأوي ثائرًا لا جنسية له.

ولا يزال ماضي هتلر محاطًا بكثير من الغموض، وكل ما يعرف عنه أنه خاص غمار الحرب الماضية في الجيش الألماني؛ ولكن أحدًا لم يعرف كيف حصل هذا "الأونباشي" الصغير على وسام الصليب الحديدي..

وفي أول إبريل أصـــدرت المحكمة حكمها في قضـــية الثوار. فحكمت ببراءة "لودندورف" وبالحبس خمســة أعوام على كل من "هتلر" و(بينر) و(فيبر) و(كريبل)، وبأحكام تتراوح بين ثمانية عشر شهرًا وستة شهور على (جريجور شتراسر) و(فريك) والآخرين.

ذاع نبأ الحكم في هذه القضـــية في جميع أنحاء ألمانيا الجنوبية، وأصـــبح "أدولف هتلر" في نظر الشعب بطلًا من أبطال القضية الألمانية، وتداولت الأيدي صورًا تمثل هتلر شهيدًا من الشهداء، تتدلى على جبينه خصلة من الشعر. وترتسم على وجهه علامات الألم العميق، وهو واقف في ســجنه خلف نافذة تتخللها قضــبان سميكة من الحديد، لا ينفذ منها إلا بصيص ضئيل من ضوء النهار!.

وإذ كانت الجماهير تفكر في الســجين الشــهيد؛ وتنظر إلى صــورته في حســرة وإشـفاق وألم، كان هتلر في الحقيقة وواقع الأمر يقيم في أحســن ســجن في ألمانيا من حيث العدة والراحة والنظام، وكانت صحته في تقدم مطرد ووزنه في ازدياد.

وكانت الحياة في سـجن "لاندسـبورج" كالحياة في أحد الأندية العسـكرية، لا في قلعة قد أعدت لتكون سجنًا، فأعدت لـــ "هتلر" وزملائه غرفة أو غرفتان لاستقبال الزائرين. وكان "الفوهرر" وصـحبه يقضـون النهار مجتمعين بعضـهم ببعض، يدخنون، ويلعبون الورق، ويطلبون إلى حارسـهم أن يأتيهم بما يشـتهون من ألوان الطعام. وأُعد الطابق الأسـفل من السـجن لإقامة بقية الثوار الذين كانوا يعيشـون عيشـة مرضـية لا يعكرها عليهم إلا خطب هتلر الطويلة المملة.

وذات ليلة عقد هؤلاء الثوار جلسة بحثوا فيها الطريقة التي يستطيعون بها التخلص من خطب هتلر وثرثرته المتعبة، فوردت على خاطر "جريجور شتراسر" فكرية شيطانية، وهي أن يقترحوا على هتلر أن يضع كتابًا يضمنه ذكرياته!!

وأحيط "الفوهرر" علمًا باقتراح صحبه، فتقبله بارتياح وسرور، واستهوته لذة العمل، وبذلك استطاع "شتراسر" ورفقاؤه أن يلعبوا الورق ويحتسوا كؤوسهم في هدوء وسكينة. أما هتلر فجعل يذرع أرض غرفته جيئة وذهابًا؛ وبصحبته "إميل موريس" يلعب الدور الذي كانت تلعبه طاهية الطعام في إحدى مسرحيات "موليير"، ولقد قام هذا المخلوق البغيض بتمثيل فصل من فصول ليلة 30 يونيه الدموية.

وفي الوقت الذي كان فيه هتلر سجينًا نزلت بالحزب الوطني الاشتراكي الذي حرم من رئيسه أزمة شديدة. وحاول أعداء الصهيونية أن يقبضوا على زمام هذه الحركة الثورية، وتأثر الشعب تأثرًا عميقًا بثورة (ميونيخ) وقضيتها فانحاز إلى جانب الثوار.

ثم فاز حزب هتلر في انتخابات عام 1924 البافارية بسبعة وعشرين مقعدًا في مجلس النواب، وحدث ذلك في الوقت الذي كان يريد فيه "الفوهرر" أن يمنع رجاله من دخول البرلمان.

وكان من بين النواب الهتلريين: "بينر" و"جريجور شـــتراســـر" فأفرج عنهما قبل انتهاء مدة الاعتقال.واتجهت الرغبات في ذلك العهد إلى تأليف كتلة واحدة من جميع الأحزاب الوطنية في ألمانيا فاندمج حزب العمال الوطني الاشـتراكي الذي كان محظورًا بعد فتنة ميونيخ، في حزب الحرية الشعبي الذي أسسه "ألبرت فون جراف" ومنذ ذلك الوقت أصـبح "حزب الحرية الاشـتراكي الوطني" يديره "لودندورف" و"جراف" وأخي "جريجور".

بيد أن خلافًا كبيرًا نشـــأ بين "لودندورف" من جانب، وبين هتلر و"بينر" – الذي صـــار رئيسًـــا للهيئة البرلمانية – من جانب آخر. فأبى "الفوهرر" أن يســـتقبل "لودندورف" وأراد "جريجور" أن يظل مخلصًا للمبدأ فجعل من نفسه أداة اتصال بين الجنرال وهتلر.

وهنا بدأ "روزنبرج" الذي خلف "ديتريش أكارت" في إدارة جريدة "فولكشـــر بؤباختر" يقوم بدور هام في التعاون مع "جريجور". و"روزنبرج" هذا مهاجر بلطيقي فر من وجه البلاشفة، وقد دأب على زيارة هتلر في سجنه، فتأثر هذا الأخير بنفوذه تأثرًا ملحوظًا. وكانت "ميونيخ" في ذلك العهد تأوي المهاجرين من الروس البيض فحاول "روزنبرج" أن يستخدم الاشتراكية الوطنية لمصلحة مواطنيه البلطيقيين.

وطبيعي أن رجالًا من طبقة "لودندورف" و"جريجور" و"روزنبرج" لا يســـتطيعون أن يحتملوا طويلًا أعمال "يوليوس شـتراشـر" و"هرمان أسـر"، فهذان الرجلان جدير أحدهما بالآخر، وهما لا يمثلان رجل الشـارع فحسـب، بل يمثلان حفرة مليئة بالوحل والأقذار.

وعندما أحســـت تذمر أخي "جريجور" من هذه الحال نصـحته أن يبقى رغم ذلك بجانب "هتلر" وأن يتلافى ما أمكنه إثارة الشـــقاق والخلاف في الحزب. غير أن "شترايشر" و"أسر" بلغا من سوء الخلق ووضاعة النفس مبلغًا جعلهما لا يستريحان إلا إلى الدس والتعريض بأولئك الذين كانوا يواصـلون العمل الشـريف في سـبيل النهوض بالبلاد. فلا ريب أنهما من أحط طبقات المهرجين الأدعياء ويعتبران هما و"كرســـتيان فيو" و"هوفمان" من بين أعوان "هتلر" الذين ألحقوا العار بألمانيا، وعلى الأخص ذلك المدعي "هرمان أسر" الذي تظاهر بالعته والجنون أبان الحراب الماضية لكيلا يقاتل مع الآخرين في ميدان الشـرف والجهاد. ورغم ذلك قد توصـل بعد الحرب إلى أن يكون عضـوًا في شـعبة الجنود السـوفيتية، بل هو يتولى الآن إحدى وزارات "بافاريا" ووكالة وزارة الدعاية في "الرايش" كله..

إن "يوليوس شترايشر" و"هرمان أسر" يتساويان في وضاعة الفكر وسفاهة الرأي وانحطاط الخلق، وإزاء هذه الحالة اتفق "لودندورف" و"جراف" و"شـتراسـر" على أن يفصـــلوا هذين الرجلين من الحزب. ولكنهما لم يلبثا بعد عزلهما بقليل أن قاما بحركة جديدة ترمي إلى مناهضـة الصـهيونية وانطلقا يكتبان ضـد اليهود كتبًا مليئة بالسـب المقذع والقدح الفاضح.

ولقد حرص هتلر على الانحياز إلى فريق دون الآخر، فكان يسـتقبل في سـجنه "جريجور" و"روزنبرج" كما كان يستمع إلى "شترايشر" و"أسر"، ويقيد في ذاكرته أسماء الذين يمكنه الاعتماد عليهم.

أما السـبب في اسـتقالة هتلر من رئاسـة الحزب فيرجع إلى أنه لم يرد أن يتهمه أحد بالتآمر وهو في السـجن. ولشـد ما كان يخشـى أن يحكم عليه بالطرد من ألمانيا، ولكنه كان يشـعر بأن حالة الحزب آخذة في الانحلال والضـعف في أثناء غيابه عنه، فوطن العزم على أن يعمل بعد إطلاق سراحه على تولي زمام الحكم في البلاد.

وكان هتلر منذ شهر يوليه يملي كتابه على "رودلف هس" الذي كان معتقلًا معه في قلعة "لاندسبورج". وكان يعلم أن "هس" من أنصاره المخلصين فلم يكن يخشى أن يعارضه في تشويهه الحوادث التاريخية أو أن ينقد ما كان يمليه عليه من الآراء الشاذة والأقوال السخيفة. فقد تضمن كتاب "كفاحي" في نسخته الأصلية خليطًا مشوشًا من الأفكار العادية المرتجلة والأحكام النظرية والضغائن الشخصية، وهو إلى ذلك ثمرة مطالعات في الكتب السياسية لم يفهمها قارئها تمام الفهم، ونتائج مطالعات أخرى لخطب (لوجو) الذي أنشأ الحزب الاشتراكي المسيحي في النمسا، ولخطب "شاونيرر" رئيس الحزب الألماني المناهض للصهيونية الذي ألفه ألمان السوديت في عهد الملكية، أضف إلى ذلك مزيجًا من آراء "لاجار" و"هاستون تشمبرلن"، وهما الكاتبان اللذان عرف هتلر أفكارهما بواسطة "ديتريش أكارت"، ثم نظريات "شترايشر" المعادية للصهيونية وحملاته العنيفة على اليهود واتهامه إياهم بالإسراف في اللذات الجنسية. ويضم الكتاب إلى ذلك كله آراء "روزنبرج" الثمينة في شئون السياسة الخارجية. ولقد كتب هتلر كل هذا في أسلوب صبي من صبيان المكاتب.

وإذا أخذنا بقول الأب "ستانفل" الذي قرأ "كفاحي" في نصه الكامل مرتين، يمكننا أن نؤكد أن ليس في الكتاب سوى فصل واحد يعد بحق من مبتكرات المؤلف، وهو فصل الدعاية. وكان الأب "ستانفل" رئيسًا لتحرير صحيفة "ميسباخ" وهو من رجال الدين المثقفين تثقيفًا عاليًا، ولقد عكف شهورًا عدة على تنسيق الأفكار والآراء التي جاءت في "كفاحي" فهذبها وصحح أخطاء المؤلف البارزة وأغلاطه الصبيانية. غير أن هتلر لم يغفر له تصحيح الكتاب والاطلاع على أخطائه وركاكته، فأوعز إلى "فصيلة الموت" أن تغتاله فقتلته في ليلة 30 يونية 1934.

ولا زلت أذكر بمناسبة "كتاب كفاحي" قصة مضحكة أرويها فيما يلي: كنا في مؤتمر الحزب في "نيرونبرج" عام **1927** وكنت عضوًا بالحزب منذ عامين ونصف عام، ومكلفًا بوضـــع بعض التقارير، فتلوت في المؤتمر بعض جمل من "كفاحي" فأثارت في نفوس المجتمعين شعورا الإعجاب والتعظيم.

وبينما كنت أتناول طعام العشـــاء في مســـاء ذلك اليوم مع بعض زملائي من أعضاء الحزب، وهم "فيدر" و"كوفمان" و"كوك" وغيرهم، سألوني عما إذا كنت حقًا قد قرأت الكتاب، فاعترفت بأني اقتبست منه بعض الجمل ذات المغزى دون أن أقرأه كاملًا، فضحك الجميع.

واتفقنا على أن نســأل من يدخل علينا عما إذا كان قرأ (كفاحي) فإن كان قد قرأه ألزمناه بأن يدفع ثمن ما طلبنا من شـــراب، وكان أول من قدم علينا (جريجور شتراسر) فصحنا به: أقرأت (كفاحي)؟ فقال بصوت عال: لا. وتبعه (جوبلز) فأجاب بهز رأســـه في يأس مضـــحك. أما (جورنج) فقد رد بضـــحكة رنانة. واعتذر الكونت (رفنلتو) بأنه لم يجد متسعًا من الوقت لقراءته!

ولم يكن أحد منهم على علم بما سيناله من جزاء لو اعترف بأنه قرأ الكتاب...

وهكذا اتضح أن أحدًا لم يقرأ كتاب الزعيم، فدفع كل منا ثمن ما شربه!

***

وبعد فقد أسـلفنا القول بأن هتلر غيَّر خطته واسـتبدل بها خطة أخرى فهو لن يحاول القيام بأية حركة ضد الجيش أو السلطة المدنية. ولكن ربما لا يزال القارئ يجهل أنه إذا كان هتلر قد خلع عنه رداء الثورة فإنه قد لبس ثوب الوصـولي. ففي 20 ديسـمبر سـنة 1924 تلقى مدير السـجن برقية تضـمنت أمرًا بإطلاق سـراح هتلر وكريبل في الحال؛ فغادر (أدولف هتلر) السجن في اليوم نفسه واستقبل الحياة الطليقة بعد أن استحال من ثائر صاحب إلى مبشر مسالم كالقديس بول، وراح منذ ذلك اليوم يعمل جاهدًا في سبيل القبض على زمام الحكم في ألمانيا.

وكان أول عمل عني به سعيه لمصالحة روما، وقد قال في ذلك للنائب "جورجن فون رامن" الذي زاره في "لاندسـبورج": "لا يسـتطيع الإنسـان أن يقاتل عدوين في وقت واحد". وبقي هتلر مخلصًـا لفكرته هذه على الرغم من حملات صـحيفة اليمين "رايشوارت" التي كان يديرها الكونت "رفنتلو".

ولقد أفضـى إلى "هنرش هلد" رئيس وزراء بافاريا ورئيس الحزب الشـعبي الكاثوليكي، بتصـريح قال فيه أنه يسـتنكر مذهب "لودندروف" الإلحادي. ثم قال مؤكدًا: "لودندروف هو الوحيد الذي أعتبره عدوًا للكنيسة الرومانية".

مع العلم أن هتلر يعد من المشـركين الذين يؤمنون بالمذهب الجرماني لتعدد الآلهة، وربما كان أشد إيمانًا بهذا المذهب من الجنرال "لودندروف" و"روزنبرج" نفسه.

وذات يوم قال هتلر لصـديقه "هلد"، وهو رجعي من أنصـار البابوية: "كانت ثورة ميونيخ غلطة كبيرة". وهذا كلام يرضي "هلد"، ولا غرو فهو الرجل الذي كان في اسـتطاعته أن يزيل ما كان بين هتلر ورئيس الجمهورية والكاردينال "فولبابر" من خصام. ولتحقيق هذه الغاية كان يتحتم على هتلر أن يطلق الماضي ويتبرأ منه.

وثمة أمر آخر وهو أن كلمة من "هلد" كانت كافية لرفع الحظر الذي كان مضروبًا على الحزب الوطني الاشتراكي حتى يتسنى لفرق الهجوم أن تستأنف نشاطها السابق، وبذلك يصبح هتلر سيدا مطلق اليدين في توجيه دفة الحركة بغير حاجة إلى معونة "لودندروف" و"جراف"!

وراح هتلر يتوسـل بشـتى الوسـائل لبلوغ غرضـه، فلقي معونة كبيرة من الوزير "جورتنر"، وجعل "هلد" يقول لـ "جورتنر" في فخر وزهو: "لقد كبحنا جماح الوحش، فلا بأس من أن نفك عقدة عقاله".

ومع ذلك فقد خسر هتلر صديقين كبيرين من أصدقائه، هما "ريم" و"كريبل". أما (ريم) فقد هاجر إلى بولونيا حيث اشتغل بتدريس العلوم الحربية، وقصـد (كريبل) إلى شنغهاي حيث عينه هتلر –عندما تولى زمام الحكم في ألمانيا – قنصلًا للرايش في تلك المدينة.

وكان الجنرال (لودندورف) لا يزال يخاصم هتلر، ولم يجتمع به إلا مرة واحدة إجابة لرجاء أخي (جريجور) وإلحافه.

وفي ذلك الوقت توفي الرئيس (إيبرت) وكانت البلاد تستعد لانتخاب رئيس آخر للجمهورية؛ فرشح الوطنيون الاشتراكيون الجنرال (لودندورف) ضد جماعة (البورجوازية) والماريشال (هندنبورج)، ووعد هتلر بأن يناصر (لودندورف)، ولكنه نكث عهده، وأصدر الأمر إلى رجاله بأن ينتخبوا (هندنبورج) في دورة الانتخاب الثانية.

وهكذا خطا هتلر الخطوة الأولى في سبيل التقرب من العناصر القوية في بروسيا، وهي الجيش وأصحاب رءوس الأموال من أعيان الريف، بعد أن اصطلح مع روما واتفق مع حكومة بافاريا.

أما (لودندورف) فإنه لم يتألم كثيرًا لهزيمته السياسية، ولكنه لم يغفر الخيانة وصمت ثلاثة عشر عامًا. وقبيل وفاته عام 1937 أرسل إليه مستشار الرايش عصا القيادة أو (الماريشالية) فرفضها الجنرال في جفاء وخشونة.

الفصل الرابع

هتلر الرجل

من الصـــعب أن نحكم حكمًا عادلًا على رجل ما، حتى ولو كنا واثقين من أننا نعرف ما خفي من أخلاقه وشئونه تمام المعرفة. ويزداد الأمر صعوبة ودقة عندما يكون هذا الرجل عدوًا لنا ولدينا أدلة قوية ضـــد عداوته، وإذا أردنا أن نتناول بالتحليل شخصية قُدر لها أن تكون من بين الشخصيات التاريخية، وجب علينا قبل كل شيء أن نعرف كيف نميز بين هذه الشخصية وبين الرسالة التي تلقتها.

وقد يســـتطيع المؤرخ الذي عهد إليه في كتابة تاريخ بطل من أبطال الثورة الفرنسية أو الإنجليزية، أن يشوه وجه التاريخ دون أن يتنكب الحقيقة في شيء، وذلك بألا يتناول بتحليله سوى الصفات البشرية لذلك البطل.

إن المأساة التي نشهدها اليوم في ألمانيا هي مأساة ثورة لم تبلغ حتى الآن سوى مرحلتها الثانية. وتعتبر الفترة التي كانت بين ســـنة **1920** و**1930** فترة تمهيدية أو تحضـــيرية، ولقد ظهرت في أثناء هذه الفترة طائفة من الفلاسـفة والكتاب والمبشـــرين والمثقفين كان من بينهم "مولرفون بروك" الذي قرنته "بجان جاك روســـو"، إذ كان حقًا من كبار الرجال وعظمائهم.

وأعقبت هذه الفترة مرحلة أخرى كان لا بد من مجيئها، وهي مرحلة الهدم التي تزلزل فيها الأرض زلزالها وتنهار دور الثقافة القديمة خلالها والتي تشتعل النار وتسيل الدماء أبانها، فهي فترة الثورة الحقيقية، وهي الفترة التي يجب ربطها بمرحلة البناء والتدعيم.

غير أننا لن نتحدث هنا إلا عن أدولف هتلر، فنرسم له صورة بشرية نحاول أن نستبين فيها العوامل التي جعلت من هذا المخلوق العجيب الذي أوتي القدرة على سبر غور النفوس، معولًا للهدم والتخريب. هذا الرجل الذي يشعر بدقات قلب الإنسان كما يشعر بها ميزان دقيق، قد عرف بإحساسه الفذ أن يجعل من نفسه معبرًا عن رغبات الشعب الخفية وغرائزه المكبوتة وآلامه وثوراته الدفينة.

غير أن هتلر لا يعرف إلا ما يريد تحطيمه وتدميره؛ وهو يهدم دون أن يفكر فيما سيقيم بدلًا مما هدم وقوض: إنه عدو للصهيونية وللبلشفية وللرأسمالية، ومن خلقه أن يفضح أعداءه ويشهر بهم. ولم يعرف لهتلر صديق مخلص، لأنه لم يعرف مطلقًا أن يصطنع لنفسه صديقًا. ولا زلت أذكر إحدى محادثاتي معه التي كاد يقع فيها أول شجار بيني وبينه، عندما صاح قائلًا: "الحكم، الحكم، لا بد لنا من الحكم".

فقلت: "قبل أن نفوز بالحكم يجب علينا أن نعرف ماذا سنفعل به؟ إننا لم نضع بعد برنامجنا في صيغته النهائية، ونحن نريد أن نعمل عملًا يبقى على مدى الدهر".

وكان هتلر أصبح لا يحتمل حتى منذ ذلك العهد أية معارضة، فضرب المائدة بيده، وقال بصوت خشن: "الحكم أولًا، ثم العمل حسب الظروف فيما بعد".

فقلت: "إن البغض يتولد من الحب فيجب أن تحب لكي تعرف ما ينبغي لك أن تبغض، وبذلك تقوى على تدميره".

أما هتلر فكان يبغض دون أن يعرف الحب، ولقد أثمله الطموح الأثيم، فتكبر كما تكبر "لوسيفر" (الشيطان) وأراد أن يرتفع بنفسه فوق الله. لقد نعت هتلر نفسه بنعتين لم يكذبهما الزمن، فقال في أحدهما إنه "يعد نفسه في الشعب الألماني كقارع الطبل في الجيش".

ودافع هتلر عن نفسه في قضية ميونيخ المشهورة فقال: "عندما وقفت لأول مرة أمام قبر "فاجنر" امتلأ قلبي بالفخر حينما تذكرت أن الرجل الذي يرقد هنا رفض أن يكتب على قبره: "هنا يرقد البارون فجنر، الموسيقى العبقري والمستشار المقرب"، فكنت فخورًا بما فعل هذا الرجل العظيم من أنه قد اكتفى بأن ترك للأجيال القادمة اسمه دون لقبه. وما قصدت التواضع إذ رغبت في أن أكون من الشعب كقارع الطبل في الجيش، فهي عندي من أعلى المراتب وأسماها، وكل شيء عداها تافه ضئيل!".

نعم ما اهتم هتلر بشيء سوى جمع الجموع، وما تمنى لنفسه أمرًا عدا أن يكون المركز الذي تتجه إليه الجماهير، فتذكره الأجيال القادمة على أية صورة من الصور.

أما النعت الثاني الذي نعت هتلر به نفسه فقد أنهى به إلينا بعد ذلك باثني عشر عامًا، وبعدما صار (قارع طبل الثورة) مستشار الرايش ورئيسه، فقال: "سأواصل السير في طريقي بدقة النائم الذي يسير في نومه". فهو في الحق نائم يمشي في نومه أو وسيط مسير كأولئك الوسطاء الروحانيين الذين تتمخض عنهم أشد العصور اضطرابًا في تاريخ التطور البشري.

كم من مرة سألني الناس عن السر في قدرة هتلر العجيبة على الخطابة، فلا يسعني أن أجلو سر هذه القدرة إلا فيما أوتي هتلر من شعور معجز يستطيع به أن يتعرف الداء الذي يشكو منه المستمعون إليه تمام المعرفة، فلو أنه حاول أن يدعم خطبه بنظريات علمية مشتقة من كتب لم يفهمها تمام الفهم لما ارتفع فوق مرتبة الخطيب العادي. أما إذا ترك العلم والكتب جانبًا وانطلق يهدر بما توحي إليه نفسه، فإنه لا يلبث أن يكون خطيبًا من أكبر خطباء العصر وأفصحهم.

إن هتلر لا يفكر في التدليل على أقواله، وهو قوي عندما يتكلم خاصة عن الأشياء المعنوية كالشرف والوطن والشعب والأسرة والوفاء، التي تأخذ معناها الحقيقي في خطبه.

ومما قاله هتلر: "إذا أراد الشعب الحرية، تيسرت له سبل الحصول على السلاح. أما إذا فقد الثقة بقوته وبأسه فإنه صائر حتمًا إلى الانحلال والانهيار".

فهذا كلام إذا كتبه رجل مثقف احمرَّ وجهه خجلًا من بساطته التافهة وفصاحته الجوفاء. أما إذا نطق به هتلر فإنه يشعل نار الحماسة في الصدور، وينفذ رأسًا إلى قلوب المستمعين إليه.

ولكن من المغالطة أن يقال أن هتلر كان منذ البداية مهرجًا لا عقيدة له، فقد كان فيما مضى مخلصًا في إيمانه بضرورة مذهبه وصدق عقيدته، فكانت له عواطف الثائر، ولكنه لم يخلق من الطينة التي خلق منها الثوار الصادقون. على أنه زعيم يقود الجماهير معتمدًا على غريزته التي تدرك ما يدركه علم النفس. فإذا دخل أدولف هتلر على حفل ما اشتم هواءه بضع دقائق وتحسس جوانبه وتفقد أرجاءه، فلبس للحفل لبوسه، ثم انطلق يخطب الجمع قائلًا:

"إن ألمانيا قد امتهنت كرامتها وديست بالأقدام، فلا بد من أن يتحد الألمان ولا بد من أن يخضع كل منا لمصلحة الجماعة. إني أعدكم بأن أعيد إليكم شرفكم وأن أجعل من ألمانيا قوة لا تقهر".

فينفذ خطابه كما يمرق السهم من الرمية، ويضرب الموضع الحساس، فينطلق العقل الباطن من عقاله، فهو خطاب يتحدث إلى قلوب المستمعين بما يريدون أن يسمعوا.

أما إذا خاطب هتلر كبار الصناع فإنه يلبس لهم ثوبًا يختلف عن الثوب الذي وضعه حينما يخاطب صغار الطبقات الوسطى، ويتريث لحظة يتلمس فيها كنه رغباتهم، ثم تدمع عيناه بوميض خاطف، إذ قد لمس قرارة نفوسهم، فيقول:

"إن مجهود الفرد يجدد الأمم، فالفرد هو الذي يستحق الاعتبار والتقدير، أما الجمهور فهو أعمى غبي، وكل منا رئيس، وألمانيا تقوم على أكتاف هؤلاء الرؤساء".

فلا ريب أنه يصيب منهم بهذا الكلام وترًا حساسًا، فيهتفون ويقسمون أن هتلر رجلهم المرسل وزعيمهم الملهم.

وفي مؤتمر (نورنبرج) عام 1937 تحدث إلى عشرين ألف من السيدات، وكن يتألفن من عجائز وفتيات، ومن قبيحات وجميلات، متزوجات وعانسات، متشائمات ومتفائلات، مستهترات ومحتشمات. وهتلر لا يعلم شيئًا عن المرأة ولكنه تحدث إليهن بما أثار فيهن حماسة جنونية فقال:

"ماذا أعطيتكن جميعًا، ماذا أعطاكن الحزب الوطني الاشتراكي؟.. إننا أعطيناكم الرجل!"

إني أعتذر إلى القارئ من ذكر هذه العبارة المكشـــوفة، ولكن ألم يقل اللورد (نورثكليف) بحق "أن الخطبة البليغة تتألف من عبارات وطنية أو ثورية دموية أو من الكلمات التي تمس المشاعر الجنسية!"؟

وعندما يقف هتلر أمام الجمهور تسـتولي عليه حالة عصـبية تتجلى فيها عظمته الحقيقية وإخلاصـــه إزاء نفســـه، فيؤمن بما يقول، وتتملكه قوة معنوية خفية، فلا يستطيع الشك في صدق رسالته.

ولكنه يكون غير ذلك عندما يعود إلى حالته العادية، فتعوزه بســـاطة الخلق والمظهر، ويترقب حركاته وســـكناته؛ ولا ينفك عن تمثيل دوره، ولقد بدأ هذا الرجل بالظهور في مظهر "الجندي المجهول" الذي عاش بعد الحرب، فهو بطل مجهول ســـريع الانفعال والتأثر، وهو يسكب دموعًا حارة صادقة للكارثة التي نزلت بوطنه، ولكنه لا يلبث يستبين أن عينيه تواتيانه سريعًا بدموع غزيرة، فهو يبكي حينما يريد ويسرف في البكاء والتباكي. وأحيانًا يظهر في مظهر القديس (جان باتســـت) الذي يمهد الطريق لقدوم المسيخ الدجال، ثم يتقمص روح المسيح نفسه حتى يصبح قيصرًا.

وذات يوم أدرك هتلر التأثير الهائل الذي تحدثه غضباته الثورية، فعمد منذ ذلك العهد إلى استخدام غضباته وصيحاته الصاخبة كسلاح ناجع لإنفاذ رغباته.

قد دارت بيني وبين هتلر، قبل خصامنا بزمن ما، مناقشة بشأن صحيفة (ناسيونال سوزيالست) التي كنت أديرها في برلين، وكان معنا أخي جريجور ومعاوني (هنكل) فظل الفوهرر زهاء نصف ساعة يدافع عن نظرية خاطئة. فقلت: "إنك مخطئ فيما تقول يا هر هتلر"

فرماني بنظرة حادة، وقال في غضب شديد: "إني لا أخطئ أبدًا، وكل ما أعمله وأقوله يعد من أحداث التاريخ".

ثم صمت مليًا وهدأت ثورته وخارت قواه وظهر كأنه شيخ هزيل أتعبه الفصل الذي مثله. ثم افترقنا دون أن نقول شيئًا. وصحبت أخي "جريجور" وأفضيت إليه:

"إنه مريض بحب العظمة"

"إنك تستفزه وتثيره بكلامك المنطقي المثقف".

غير أن "جريجور" قد أخطأ النظر لأن إيمان "هتلر" بأنه معصوم من الخطأ قد ولد في ذلك اليوم، وتأيد هذا الإيمان في عدة كتب اشتراكية وطنية وخاصة في الكتاب الذي أصدره أخيرًا (هرمان جورنج).

من الصـــعب أن تعين ما للإرادة وما للمرض من نصـــيب في التمثيل أي (الكوميديا) الذي يقوم به المصـابون بأمراض عصـبية أو (هسـترية)، ولا شـك في أن هتلر مصاب باختلال عصبي فإذا ركن إلى الهدوء والسكينة – وهو الرجل الذي قلما يسكن ويهدأ – ظهرت عليه علامات الذهول، وشعر بأن القطار الذي يطوي الأرض طيًا يسير في بطء شديد، وأن السيارة التي تجرى بسرعة مائة كيلو متر في الساعة ما هي إلا عربة صـــغيرة يجرها ثوران، وإذا اســتقل الطائرة ليبلغ مقصـــده في أقل وقت مستطاع، شكا من أنه لا يحس السرعة!!

ومن العجيب أن هذا الرجل الذي دفع أوروبا إلى كارثة مفزعة، يتردد أمام الإجراءات الثانوية. فقد اتفق أن رغب أخي (جريجور) في رؤيته ليشاوره في أمر بسيط يتصل بشئون فرق (لاندشت) الهجومية، فجعل هتلر يعتذر على مدى عدة أسابيع محتجًا بانشغاله بعمل مهم، ولكنه انتهى إلى أن ضرب موعدًا لأخي في أحد المطاعم، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث في وئام ومباسـطة حتى أشـار (جريجور) إلى موضـوع الاجتماع فامتعض هتلر وقال أنه يشعر بألم طارئ، واستأذن وانصرف.

إن هتلر ضـعيف بطبعه بقدر ما هو قليل الصـبر، وهو أحمق متقلب، يفزع مما قد يمس صحته بسوء أو مما قد يفقده السيطرة على أفكاره. ولقد قيل أنه متصوف، فهذا الوصـــف ينطبق على نوع الحياة التي يحياها أكثر من انطباقه على عقليته؛ لأن المتصـوف الصـادق يضـحي بلذة الطعام وبلذة الحب في سـبيل المثل الأعلى الذي يستمد منه قواه الروحية، أما تصوف هتلر فهو تصوف مادي محض، لأنه يعد اللحم مضر بصحته، والتبغ سما من السموم، والخمر مثبطة للهمة والنشاط.

فهذا الوحش الذي كثيرًا ما يثور، يخشى أن يفضي على الرغم منه بذات نفسه؛ فهو يرى أن الإفضاء بذات النفس سقوط خلقي ليس بعده سقوط، غير أني ذو طبع يحملني على أن أحذر الأشخاص الذين لا يهتمون بملذات الحياة المشروعة.

قال بسمارك: "لا يطاق الألماني إلا إذا شرب كل يوم نصف زجاجة من نبيذ الشمبانيا".

ولقد قلت لهتلر ذات يوم: "ينبغي لدكتاتور ألمانيا أن يعلم الشعب كيف يعيش عيشة رفيعة".

فنظر إلي دهشًا حتى أنه لم يستطع لأول مرة الرد علي، فاستطردت قائلًا:

"ويجب أن تنشأ جامعة يتعلم فيها الشعب كيف يعيش، إذ لا بد للألماني من الحصول على شهادة جامعية لكي يعد أستاذًا في فن من الفنون!!"

فقال هتلر: "إنك ساخر لاذع"

وكلما قلت لهتلر أن آلهة العصور القديمة كانوا أبطالًا حقيقيين لم يعفوا عن النساء والخمر، تظاهر بأنه يمثل الحياة الروحية السامية، واتهمني بالمجون وحب الخمر.

وكان هتلر ينفر من ذكر النساء وأحوالهن، ويكتفي بأن يقول عنهن:

"إن النساء يسلبن الرجل السياسي نشاطه وقدرته على تقدير الأمور تقديرًا صحيحًا".

فكنت أرد عليه قائلًا:

"ليس للرجل السياسي سوى معهدين كبيرين هما: التاريخ الذي يعلمه كيف يعرف القوى، والمرأة التي تعلمه كيف يعرف الرجال".

غير أن خوف هتلر الشديد من أن يطلع أحد على شيء من خصائصه كان يخفي وراءه سرًا يحتفظ به في قرارة نفسه، ولم يستطع حتى أقرب المقربين من "الفوهرر" أن يطلع على حقيقته وكنهه.

ولقد عرفت شخصيًا ثلاث نساء لعبن دورًا مهمًا في حياة هذا الرجل المتصوف، واستمعت إلى اعترافات إحداهن، فوقفت على أشياء كثيرة. وكانت أولى هؤلاء النسوة: زوج الهر "بشستن" صاحب مصنع (البيانو) المشهور في برلين، وكانت هذه السيدة تكبر هتلر بعشرين عامًا، وتحمل له حبًا عميقًا حارًا يخالطه شيء من عاطفة الأمومة، وكلما قدم هتلر برلين كان ينزل في أغلب الأحيان ضيفًا عليها، فيلتقى في دار هذه الصديقة الوفية بالرجال السياسيين الذين كان يرغب في الاجتماع بهم. وإذا خلا هتلر بها أو كان معهما بعض الأصدقاء المقربين، جلس إلى قدميها وأسند رأسه إلى صدرها الغليظ وأغمض عينيه، فتداعب بيدها البيضاء شعر طفلها الكبير، وتنضو بأصابعها الناعمة خصلة الشعر التاريخية عن جبين دكتاتور المستقبل، وتقول في حنان وعطف: "يا ذئبي الصغير يا ذئبي الصغير!!".

بيد أن هتلر لم يقنع، مع طول الزمن، بهذا الحب العذري، فتعرف بحواء أخرى أصغر سنًا وأشد جاذبية، وهي ابنة المصور "هوفمان" وكانت هذه الفتاة في مقتبل العمر وزهرة الشباب، على جانب عظيم من الجمال، ذهبية الشعر، شفافة البشرة، مرنة بضة. ولقد خالطها هتلر مخالطة عميقة، ولكنها كانت ثرثارة، فاتصل الأمر بوالدها، فطلب إلى من أغواها أن يصلح ما عبثت به يداه.

ولم يكن هتلر في ذلك الوقت مستشارًا للرايش، ولكنه كان ذا شهرة كبيرة، يتحدث عنه الناس في أوروبا، وانتهى الأمر بينهما بتسوية مرضية، فخرج (هوفمان) من عند هتلر، وهو يملك وحده حق صنع صور الدكتاتور لجميع أنحاء العالم. وبذلك صار (هوفمان) واحدًا من أثرياء الرايش وشخصياته المحترمة، وتزوجت ابنته في عام 1933 من (بالدور فون شيراش)، وهو شاب رشيق، شمله (الفوهرر) بعطفه وعنايته، وعينه رئيسًا للشبيبة الألمانية.

غير أن مغامرات "الفوهرر" الغرامية لم تنته جميعها على مثل هذه الصورة المرضية؛ ففي عام 1928 كانت تقيم معه ابنة أخته (أنجلا) وهي فتاة نمساوية مرحة ذات جمال فتان وحركات ظريفة جذابة، وكانت في التاسعة عشرة من عمرها، يلقبونها (جيلي)، ولم يكن من عاداتها أن تخرج للنزهة واللهو مع خالها (أدولف) وكم كانت تتوق إلى رؤية العالم وتذوق اللهو والرقص؛ فتوددتُّ إليها وغازلتُها واتفقت معها ذات يوم على أن أصحبها إلى أحد مراقص ميونيخ ذات الشهرة العالمية، وبينما كنت أرتدي ملابسي، دخل علي أخي "جريجور" بغتة وقال: "أدولف لا يريد أن تخرج مع جيلي".

ولم أكد أســـتفيق من دهشـــتي حتى دق جرس (التليفون) وكان المتكلم هتلر فسـمعته يصـيح بي قائلًا: "لقد علمت أن بينك وبين (جيلي) موعدًا؛ فأنا لا أسمح لها بأن تصحب رجلًا متزوجًا ولا أريد أن تتردد على مراقص ميونيخ الموبوءة".

فلم يسعني إزاء هذا الحديث سوى العدول عن الخروج مع الفتاة.

وفي اليوم التالي دخلت عليَّ جيلي، وعيناها حمروان ووجهها الصـــغير الجميل شاحب مكتئب، وهي ترتجف خوفًا كحيوان يطارده صياد، وصاحت:

"لقد حبسني.. إنه يحبسني كلما أجبت "لا".."

واستوضحتها الأمر، فأخبرتني في غضب واشمئزاز بما يطلبه خالها منها.

ولقد كنت على علم بنزوات أدولف هتلر، وكنت قد سمعت بالأشـــياء العجيبة التي ارتكبها مع ابنة المصـــور هوفمان، ولكني اعتقدت وقتذاك أن ابنة هوفمان كاذبة شهوانية، غير أن "جيلي" التي كانت تجهل تمامًا هذا الحادث قصت علي بالتفصيل ما يصعب على رجل ذي عقل سليم أن يصدقه.

فسألت نفسي ماذا أقول لـ (جيلي) وأية نصيحة يمكنني أن أسديها إليها؟.. لقد أفضت إلي بأن خالها يسجنها ويمنعها من رؤية الرجال، فاستولى عليها اليأس من جراء هذه الوحدة الموحشة، وكان "إميل موريس" سائق سيارة خالها، يراودها عن نفسها، وهم بها ذات ليلة فاستسلمت له، ولسوء الحظ داهمهما هتلر، ووقعت مشادة بين الرجلين استمعت إليها الفتاة من وراء الباب. فصاح هتلر بسائق سيارته: "إياك أن تضع قدميك بعد اليوم في هذا الدار" فقال الرجل:

"إن أنت طردتني فثق أني سأبلغ صحيفة "غازت دى فرانكفورت" كل شيء".

فلم يسع هتلر إلا أن يشتري سكوت الرجل بعشرين ألفًا من الماركات استطاع بها أن يشتري حانوتًا لبيع الساعات وإصلاحها أدر عليه أرباحًا عظيمة.

وخاصمت هتلر بعد وقوع هذا الحادث بزمن قليل فلم أتمكن من رؤية (جيلي).

وفي عام 1931 ماتت (جيلي) ميتة عجيبة.

ومنذ أن اكتشفت – بطريق الصدفة – جانبًا من حياة هتلر الخاصة، وعرفت عدم قدرته على الحب وعاداته الشاذة القبيحة التي اعتادها ليشعر نفسه بإحساسات مصنوعة، أقول منذ عرفت عنه ذلك لم أستطع أن أحس نحو تصوفه المزيف الاحترام الذي توحي إلي به الفضيلة الصادقة.

إن هتلر يعيش على هامش الحياة والمرأة والحب، وينتمي أصـــدقاؤه الحقيقيون إلى بيئة خاصـــة غير مرغوب فيها. ولقد تخلى عنه بســـبب تصـــرفاته وأعماله جميع الرجال النزهاء الذين أرادوا الجهاد بجانبه؛ فانفصـــل عنه (لودندورف)، وأنكره (بوهنر)، وأبى (هلموث فونموك) قائد (أمدن) وأحد نواب النازي في الريخســـتاغ أن يتبعه حتى النهاية، غير أن من بين أنصـــاره رجالًا كأخي (جريجور) أصـــروا على إخلاصهم له حتى جاءت الساعة التي رأى فيها أن وجودهم يضايقه فقتلهم.

أما الذين لا يزالون بجانبه فهم ليسوا أصدقاء، بل شركاء، وهم مخلوقات ذوو رذيلة أو آلة صماء أو وحوش ضارية، فهناك (أمان)، رئيس دار (أهر) للنشر والطبع؛ رجل أعمال وتجارة لا ضـــمير له. وهناك (هوفمان) الذي أثرى بطرق مشـــينة، وثمة (إميل موريس) سائق سيارة الفوهرر الذي صار رئيسًا لإحدى فصائل النازي، والذي كان أحد ســـفاحي هتلر في يوم 30 يونية المشـــهور، ثم (كرســـتيان وبر) أبغض الشـــخصـــيات التي تعاون هتلر إذ كان يتاجر هذا المخلوق بالنســـاء الســـاقطات، ويشتغل في حانة (دونسل) بميونيخ بطرد السوقة عندما يشتبكون في عراك ما، فهذا هو الرجل الذي يستشيره هتلر كل يوم. والشخص الذي له كما للمصور هوفمان، أن يدخل على هتلر بغير اســـتئذان، وهو إلى هذا (فتوة) هتلر وحارســـه الذي ينفذ أوامر ســـيده بنفس القســـوة التي كان يســـتخدمها في حانة ميونيخ. أما (شـــوب) و(شـــروك) و(بروكنر) الذين كانوا من صـــغار الموظفين في إدارة الأمن العام، فهم أقل انحطاطًا ممن ذكرنا، وهم في هذه العصابة أذناب لا شخصية لهم.

ويختص هتلر جماعة قليلة من المقربين إليه بعطفه ورعايته. ولأفراد هذه الجماعة وبعض الأصـدقاء الآخرين أن ينادوا هتلر بكلمة آدى (Adi) ولهم أن يتبسـطوا معه ويتحدثوا إليه في حرية مطلقة. ويحلو لهتلر مصـــاحبتهم والاجتماع إليهم، لأنهم من بيئته، ولأنهم يثبتون له اعتقاده الدفين بأن الإنسـان مخلوق شـرير بطبعه. وتلك عقيدة لن يتخلى عنهـا هتلر أبـدًا، ولقـد قرأ هتلر بإمعـان وروية كتـابي (مكيـافيلي) و(أنتي مكيافيلي) لمؤلفه فردريك الأكبر، على الرغم من أن القراءة تتعبه وتضـــايقه. وهتلر يؤيد (مكيافيلي) فيما ذهب إليه وينصــــره، وهو يحاول تبرير جرائمه وخياناته بآراء (مكيافيلي) ونظرياته.

وقد دار بيني وبينه حديث في هذا الموضــوع ذات يوم تناول فيه طعام الغداء لدى والدي في (دنكلسباوهل) من أعمال فرانكونيا – وهذه المدينة هي موطن والدتي الأصـــلي، أقام فيها والداي بعد ما أحيل أبي إلى المعاش – فقلت لهتلر: "كان يعيش (مكيافيلي) في عصـر امتزج الدين فيه بالسـياسـة، فنشـبت حرب شـعواء بين الخير والشــر، أما اليوم فالأمر يختلف عما كان عليه في ذلك العهد، فالدين تابع للســلطة الروحية، والسـياسـة مرجعها السـلطة البشـرية، والإنسـان طيب وشـرير في الوقت نفسه".

فقال هتلر: "كلا. إنه شــرير بطبعه، وليس في الإمكان تذليل قياده إلا بالعنف والقوة، وأرى أن جميع الوسـائل مشـروعة لقيادته وتسـييره فيجب أن نكذب ونخون ونقتل عندما يقتضي الأمر ذلك".

فقلت: "إني أوافقك على أن القتل والخيانة وسـيلتان يجوز اسـتخدامهما في السياسة، ولكن ماذا يصيبك أنت لو كان الإنسان شريرا بطبعه كما تؤكد؟ فلو أنه كان كذلك لخانك بل لقتلتك منذ زمن طويل".

فاقتضب هتلر الحديث كعادته حينما لا يجد حجة يدعم بها آراءه، وقال إأن نظريتي هذه لا تصلح إلا للرجال الذين قدر لهم أن يقودوا الشعوب، وهم يملكون الحق بمقتضاها في أن يعملوا ما يشاءون كأسياد لهم سلطان مطلق.

ولكن من أين يسـتمد رجل كهتلر بهجة الحياة ولذتها؟ إنه لا يحب أحدًا، ولا يتذوق حتى جمال الطبيعة، ولا يتبسـم إلا نادرًا، فهو محروم من نعمة الفُكاهة، هذه الهبة السماوية التي تحمل الإنسان على أن يضحك من نفسه كما يضحك من غيره. ولقد روى (نفيل هندرسون) السفير البريطاني، في الكتاب الأبيض أنه عجب لانعدام المرح والفكاهة عند زعماء النازي، فهم يظهرون بمظهر جدي خشـن وفي هيبة كهيبة البهائم.

وبعد، فقد أتيح لنا أن نلاحظ أن هتلر يخشـــى الحوار المنطقي وينفر منه، وهو يبتعد كالمرأة عن موضـوع الحديث ويدافع عند نهايته عن فكرة لا تمت إليه بصـلة ما. وكلما كانت الفكرة غامضــة كلما شــعر بارتياح إليها! وهو مع هذا كله مولع بالجمل البراقة. ومن العبارات التي يفضـــلها ويعتز بها هذه العبارة: "يجب أن تكون مصـــلحة الجماعة فوق مصـــلحة الفرد"، ولا شـــك أنها كلمة تطرح علينا مســألة تتعلق بنظام جديد، غير أن هذا الرجل المســير الذي يســير كما يمشــي النائم في نومه، لا يكلف نفسـه أقل عناء ليستطيع أن يرى الأمور في جلاء، وهو يغضـب من الوضـوح والمنطق والنقد غضبًا شديدًا. وهو رجل لا فكرة له وليس له مثل أعلى يعيش من أجله.

إنه يتقدم في طريقه مغمض العينين يقوده ذلك الشعور العجيب الذي وضعه في الحالة التي هو عليها اليوم. إنه يمقت المثقفين لأنهم قادرون على إدراك حقائق الأمور. إنه حقود ميت القلب والشـــعور إنه (هملســـتوس) في كتاب (رمارك): "لا جديد في الغرب". فهتلر يمقت الفكر و(هملستوس) يثور ضد (جوته).

ولو أن إنســـانًا تناول خطب هتلر بالبحث والتحليل، لوجد فيها كلمات معينة جاءت مرات لا تحصى على لسانه، وهي: الحقد والتدمير والتعصب؛ فهو لا يؤمن إلا بالفن الآلي، ويبدو عليه أنه يجهل ماهية التطور العضوي.

إنه لا يعلم شيئًا عن معجزة الخلق البشري وبقاء الجنين تسعة شهور في بطن أمه حتى يتم خلقه وتكوينه. وكيف يدرك هذا وهو الذي لم يولد له ولد، ولا أمل له في ذلك. إن الله سبحانه وتعالى قد حرمه من زينة الحياة الدنيا وأجمل شـيء فيها. ثم ماذا يعرف أدولف هتلر من جمال الطبيعة وبهجة الحياة؟

إن طبيعة نفســـه قد أعمته عن رؤية الورود والأزهار يكســـوها الندى، وعن مشاهدة حقول القمح تتماوج سنابلها الذهبية في أشعة الشمس الدافئة، وعن سماع ضـــحكات الأطفال البريئة ودقات أجراس الكنائس تدعو الناس إلى الصـــلاة، وعن الشـــعور بهزة القبلة الأولى وحب المرأة، وعن التمتع بالســـكون المخيم على الغابة تكسوها الثلوج وبرؤية الجداول وقد تجمدت مياهها من شدة الصقيع، وعن الشعور بالهموم التي تســـاور الإنســـان في يوم من أيام شـــهر نوفمبر، تلك الهموم التي تذوقها الشاعر الفرنسي (فرلن)، نعم لقد حرم هتلر من كل هذا الجمال الذي أسبغه الخالق على الكون.

فيا بؤس شـــعب لا خلاق له، ويا بؤس عالم بغير حب، ويا بؤس عصـــر لا إله له!!

ولكن كيف يكون هتلر على غير ما وصـــفنا وهو الذي يدعى أنه ذو رســـالة ورجل من رجال التاريخ؟! أو لم يكن لزامًا عليه أن يظهر في ثوب (لوســـيفر)، وينطق باللغة التي استخدمها "الشيطان" في إغوائه "فاوست"، "الشيطان" الذي لم يقل إلا ما كان يشعر به "فاوست" ويدور في خلده ويشتهيه، كهتلر الذي لا ينطق إلا بما يهوى الشعب الألماني ويحسه ويفكر فيه.

غير أن لـــ "فاوســت" روحين في جســد واحد، ولقد تولى "الشــيطان" مهمة الإعراب عما لهذه الشـخصـية من غرائز سـفلى وشـهوات عنيفة، أما هتلر فهو ممثل العنف والقسوة في ألمانيا حيث تسود العناصر السلبية وشياطين الهدم والتخريب.

ولقد اجتمعت في الإنســان، كما اجتمعت في الشــعوب عناصــر الفضــيلة والرذيلة، ولكن "فاوست" قد استطاع أن يتحرر من "ميفستو"، وسوف تتحرر ألمانيا من هتلر.

الفصل الخامس
الهتلرية ضد الاشتراكية

كل ما قاله لي أخي (جريجور) منذ مقابلتي الأولى لهتلر لم يحملني على الانضمام إلى الحزب، ولكني كنت أمحض أخي خالص النصح كلما اقتضت ذلك الأحوال والظروف. وكنت أرقب عن كثب ما يكسبه زعماء حزب العمال الوطني الاشتراكي وما يخسرونه. وكنت أعتقد أن الوطنية الاشتراكية هي التي يمكن بها إصلاح وطني وتجديده، ولكني أبيت رغم ذلك أن أتعاون صراحة مع رجال كان (أدولف هتلر) زعيمهم الأوحد، لأني شهدت أعماله وعجمت عوده فاستطعت أن أحكم عليه.

وفي عام 1925 تغيرت الحال؛ إذ أصبح هتلر بعد إطلاق سراحه رئيسًا للحركة في ألمانيا الجنوبية، ولكنه كان محظورًا عليه دخول جزء من ألمانيا الشمالية، ولم يسمح له إطلاقًا بالخطابة في أي بلد من بلدان بروسيا.

وكان هتلر على علم تام بمواهب أخي (جريجور) في تنظيم الحركة، كما كان على علم بمحبة العمال له وبأمانته الوثيقة؛ فطلب إليه أن يتولى أمر الحركة الوطنية الاشتراكية في ألمانيا الشمالية، وأطلق يديه في جميع الأعمال والتصرفات الخاصة بالحزب في هذه المنطقة.

ولقد رجاني أخي مرة أخرى أن أعاونه، فقبلت رجاءه بعد أن صارت الأمور إلى تلك الحال والتحقت بالحزب في ربيع سنة 1925. وكنت – في أثناء اعتقال هتلر – أساهم في تحرير صحيفة "فولكش بؤباختر" باسم مستعار. فبسطت في هذه الصحيفة قواعد النظريات التي قامت عليها الوطنية الاشتراكية، ومنذ ذلك العهد وقفت (الاشتراسية) أو الاشتراكية لأول مرة في وجه الهتلرية، وانتهى هذا العراك في مهده عندما أطلق سراح هتلر، فشعرت حينذاك أني قادر على أن أمد يد المساعدة إلى (جريجور) لأمهد طريق النصر لأفكارنا ومبادئنا.

ثم لم نستطع التعاون مع "فون جراف"، لأنه كان رجعيًا أكثر من هتلر، فاستعاد حريته واسترد رجاله واستمر في نشاطه مستقلًا عنا، وكان الجنرال "لودندورف" على اتفاق تام مع أخي "جريجور"، مما جعلنا نرى أن الوقت قد حان لبدء مشروعنا العظيم. وكان علينا أن نضع أساسًا قويًا لتنظيم حزب العمال الوطني الاشتراكي في الشمال تنظيمًا سياسيًا وثقافيًا.

وسواء أكان هتلر لم يدرك اتساع الخلاف في الرأي بيني وبينه منذ ذلك الوقت، أم أنه قبل التحاقي بالحزب كما يقبل الإنسان شرًا لا بد من قبوله. أقول سواء أكان هذا أم ذاك فإنه قد هنأ أخي "جريجور" تهنئة حارة عندما علم بانضمامي إلى الحزب، فقال: "أعتقد أن "أوتو" لن يفعل إلا كل خير، وأن رجلين مثلكما لا بد من أن ينجحا في مهمتهما".

وكانت مهمتنا صعبة في شمال ألمانيا، ولكنها كانت ذات فائدة كبيرة فكان علينا أن نجمع أعضـــاء الحزب المتفرقين في جماعات منظمة، وأن ننشـــئ لهم صـــحفًا تتفق وروحهم بقدر ما تتفق مع الأغراض التي كنا نرمي إلى تحقيقها؛ فأنشـأنا في بداية الأمر مجلة نصف شهرية أسميناها (الرسائل الوطنية الاشتراكية) وقصرنا توزيعها على موظفي الحزب.

ثم وجهنا عنايتنا إلى وضـع برنامج للشـؤون الاقتصـادية والسـياسـية والثقافية ينطوي على مبادئ اقتصـادية معادية للماركسـية والرأسمالية معًا ويرمى إلى إيجاد نظام جديد يقوم على أســاس امتلاك الدولة للأراضـــي فتضـــع الحكومة يدها على جميع الأراضـي وتؤجرها للأفراد على أن يكون المسـتأجر حر التصـرف في أرضـه، ولكنه لا يســـتطيع بيعها أو تأجيرها لأنها ملك للدولة. وكنا نؤمل بهذا النظام أن نقاوم الحركة العمالية، وأن نعيد إلى بني وطننا الشـــعور بالحرية، فالرجل الحر هو الرجل الذي لا يعتمد اقتصاديًا على أحد.

ومما هو جدير بالذكر أن هذا النظام قاصر على الممتلكات التي لا يمكن زيادتها بغير حد كالممتلكات الزراعية والصـناعية لبلد ما. أما من الوجهة السـياسـية فنظامنا اتحادي كالاتحاد الســـويســـري، ومناهض للنظام الكلي أو الدكتاتوري. فبدلًا من أن يتألف البرلمان من أعضـاء الأحزاب المختلفة، يجب أن يكون من ممثلي نقابات العمال والفلاحين والمستخدمين والموظفين والصناع وأصحاب المهن الحرة.

ويقضي هذا النظام بأن تنقسم ألمانيا سياسيًا إلى مراكز عدة كما هي الحال في سويسرا، وبذلك تنفصل بروسيا من مقاطعات (ريناني) و(هس) و(هانوفر) و(ساكس) و(شلسفج– هولستن)، بحيث يزول ما لبروسيا من السيادة على ألمانيا. ويجب أن يتولى أمر كل مركز من المراكز الموظفون الوطنيون الذين ولدوا فيه. وللحكومة فضلًا عن ذلك أن تضع يدها على جميع المصانع الكبرى وتقسم الممتلكات الزراعية الكبيرة إلى أقسام صغيرة تابعة للدولة.

ويقضي برنامجنا بالقضاء على العسكرية البروسية، بإنشاء جيش صغير من الجنود المحترفين أو الرديف كجيش الجمهورية اليونانية القديمة.

أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، فقد كنا نطالب بطبيعة الحال بأن يسمح لألمانيا بأن تخرج من العزلة التي فرضت عليها، وبأن تكون جميع الدول على قدم المساواة، غير أننا لم نذكر أي مطلب خاص بتعديل الحدود، واكتفينا بالإعراب عن أملنا في أن تجرى انتخابات عامة شريفة في البلاد التي كانت موضعًا للنزاع.

ولقد كنا نرى أنه يجب أن ينشأ اتحاد من دول أوروبا يقوم على نفس القواعد التي يقام عليها اتحاد ألمانيا الداخلي مما يجعل من أوروبا – المجردة من السلاح – كتلة يشد بعضها بعضًا ويحتفظ كل بلد فيها بإدارة شؤونه الخاصة وبعاداته ودينه.

كذلك كنا نقول بإزالة الحواجز الجمركية حتى تنتفع الدول جميعًا بنظام التبادل التجاري الحر كما تفيد من حرية التبادل الثقافي.

وكان من رأينا أن الحرب لم تندلع نيرانها في عام 1914 إلا بسبب الفساد التدريجي الذي أصاب المبادئ الاقتصادية والثقافية القديمة. وليس من المستطاع القيام بأي إصلاح ناجع إلا بواسطة نظام جديد يعيد التناسب والتناسق بين رأس المال والعمل، وبين الفرد والجماعة. والتناسق يتعارض كلية مع الدكتاتورية فيجب أن تزول دكتاتورية الطبقات ودكتاتورية العناصر.

ويجب أن يكون هناك انسجام بين الخالق والمخلوق، وبين الشعب والدين. ومما يؤسف له أن المادية أوجدت منذ عام 1900 مشكلة نفسية تسبب عنها انحطاط خلقي ونفسي عميق.

وجملة القول كان الانسجام في جميع الأحوال غايتنا الأولى، ولقد حاولت مرارًا أن أقنع هتلر بما لهذا الغرض من شأن وأهمية؛ فذهبت جهودي أدراج الرياح؛ لأن عقليته لا تستسيغ مثل هذه الآراء. فالوحدة عند هتلر تتجلى في الزي العسكري أو في عرض جماعة من الرجال أو النساء يمشون بخطوات عسكرية ويتحركون بحركة واحدة ويهتفون بهتاف واحد.

وبعد، فإن "جريجور" لم يستطع أن يستصحب مساعده (هنريش هملر) إلى برلين، إذ كان (هملر) يحل محل أخي في (لاندشوت) التي كان يتردد عليها من وقت لآخر، ليكون على اتصال برجاله وليتفقد الصيدلية.

ولقد أعجبت أنا وأخي منذ وقت ما بمواهب شـــاب "ريناني" يقال له (جوزف جوبلر) سـكرتير النائب (فيجر سـهاوس) قطب من أقطاب حزب (جراف). إذ كان هذا الشـاب القصـير القامة، القبيح المنظر، الأعرج، فصـيح اللسـان، قوى الحجة، ذا قدرة عجيبة على التبشير والدعوة.

ولقد اسـتمعنا إلى خطبه الملتهبة التي كان يهاجم فيها حزب العمال الوطني الاشـتراكي، فأدركنا أن محالفة رجل مثله يكون لنا فيها غنم وفائدة، وكان (جريجور) قد نقل مركز نشـاطه وعمله إلى منطقة (الرور) حيث كانت توزع مجلتنا نصـف الشـهرية، فشرع في التفاوض مع (جوبلز) فألفاه رجلًا سـلس القياد يرضيه القليل، إذ قبل (جوزف جوبلز) أن يتولى رئاسـة تحرير مجلتنا، وأن يكون سـكرتيرًا خاصًـا لأخي مقابل مرتب شهري يقدر بمائتي مارك.

ولكنا لم نلبث قليلًا حتى تبينًا أننا لم نوفق كل التوفيق في إلحاق هذا الشـاب بجماعتنا، إذ كان (جوبلز) طموحًا كذوبًا مذبذبًا يلبس لكل حال لبوسـها. وكان يزعم أنه أحد الأبطال من المحاربين القدماء في (الرور)، وأن الفرنسيين قد أسروه وأنهم كانوا يضـربونه بالسـياط كل يوم. وأكثر (جوبلز) من ترديد مثل هذه الأقاويل حتى داخلتنا الريبة في أمره، فأمرت باستقصاء حقيقة شأنه. فاتضح لنا أن (جوزيف جوبلز) لم تطأ قدماه أرض السجن إطلاقًا، وأنه اخترع قصته من أولها لآخرها...

ولقد ارتكب (جوبلز) تزويرًا بأن قدم تاريخ البطاقة الخاصة بعضويته في الحزب. وعلم بذلك الهر (كوفمان) رئيس دائرة (الرور) ومحافظ هامبورج الآن، فأمر بإجراء تحقيق آخر مع المزور الأعرج ثبتت فيه إدانته، ولكن عندما اتصل بنا نبأ هذا التزوير كان (جوبلز) قد خان العهد وانسل من جماعتنا.

وراح (جوبلز) يواصل نشاطه في حزب العمال الوطني الاشتراكي إلى أن وقع هذا الحادث الذي تركنا على أثره. وذات يوم وجه (جريجور) الدعوة لعقد اجتماع من رؤساء الأقاليم في (هانوفر) تحت رئاستنا المشتركة فأجاب الدعوة رؤساء دوائر الشمال، وهم: (كوفمان) و(روست) وزير التربية الحالي و(كرل) وزير الثقافة الآن، و(ليه) رئيس جبهة العمل و(هله براوت) محافظ مكلمبورج الحالي. فبلغ عددنا حوالي أربعة وعشرين عضوًا، وانضم إلينا الهر (جوتفرد فيدر) مندوب هتلر.

وعندما علم رؤساء دوائر الشمال أن هتلر ينوي إرسال مندوب يمثله في (هانوفر) أعربوا جميعًا عن استيائهم الشديد من ذلك، وصاح (جوبلز) الذي كان يتظاهر بأنه ملكي أكثر من الملك: (لا نريد أن يكون بيننا جواسيس علينا).

واقترع المجلس على حضـــور (فيدر) الاجتماع، فوافق على حضـــوره بأغلبية ضـئيلة. وكان من بين المسـائل التي سـيعرض لها المؤتمر مسـألة على جانب عظيم من الأهمية وهي نزع ملكية أمراء الأسرة الإمبراطورية التي اختلفت بشأنها الآراء في ألمانيا. وكانت فترة تضخم العملة – لحسن الحظ – قد انقضت، وعاد المارك إلى سعر ثابت. ومع ذلك لم تسـتطع الحكومة أن تدفع ديون الحرب لمسـتحقيها، كما لم يسـتطع أصـحاب السـندات الحكومية أن يتسـلموا شـيئًا من دخل سـنداتهم. أفلم يكن منافيًا للعدل والآداب في تلك الظروف أن يسـترد الأمراء الذين كانت عليهم تبعة الحرب ونتائجها، قصـورهم وحقوقهم ومبلغًا يقدر بنحو مائة مليون من الماركات الذهبية؟ لقد عارض حزبا العمال والديمقراطيين معارضـة شـديدة هذا المشـروع كما أظهر حزب العمال الوطني الاشتراكي عزمه على معارضته.

وانتظارًا لإجراء أول انتخاب عام في ألمانيا، أراد رؤسـاء الدوائر التابعة لجماعتنا أن يتخذوا قرارًا بشـأن المشـروع المشـار إليه. بينما كانت تأتينا من (بافاريا) أنباء تؤيد تقدم حركة (أدولف هتلر) وكنا نعلم أن موافقة حزب العمال الوطني الاشـتراكي على نزع ملكية الأمراء تتعارض مع خطة هتلر وتدبيره.

أما في (هانوفر) فقد لقي مشروع نزع الملكية موافقة الجميع عدا الدكتور (ليه)، وعندما احتج (فيدر) باسم هتلر على المشروع انبرى له (جوبلز) فألقى خطبة رنانة دافع فيها عن رفقائنا؛ وصاح في ختامها بأعلى صوته: "إني أطالب والحالة هذه أن يفصل أدولف هتلر البورجوازي الصغير، من الحزب الوطني الاشتراكي" فصفق له الحاضرون تصفيقًا حادًا.

وهنا تدخل (جريجور) في الأمر، وقال إن قرارًا كهذا لا يمكن أن يتخذه إلا مؤتمر عام للحزب. ولكنه كان مقتنعًا بأن حزب العمال الوطني الاشتراكي في الشمال سيقترع ضد الأمراء. وصالح الهر (روست): "إن الوطنيين الاشتراكيين رجال أحرار ديمقراطيون. وليس لهم زعيم أو "بابا" يمكنه أن يدعي العصمة؛ فليعمل هتلر ما يريد، ولنعمل نحن وفقًا لما تمليه علينا ضمائرنا".

ولقد وقعت حوادث مماثلة لهذه الحوادث في الحزب الديمقراطي؛ فخالف الدكتور (شاخت)، النائب وعضو مجلس إدارة الحزب، رأي الأغلبية، وأعلن أنه يناصر الأمراء، واستقال من الحزب. وهذه أول مرة اتفق فيها هتلر وشاخت في الرأي. وصار هذا الرأي فيما بعد أساسًا لاتفاق الرجلين.

وقد وافق المؤتمر الذي عقدناه في (هانوفر) على (برنامج شتراسر) وقرر استبدال الخمس وعشرين مادة التي وضعها هتلر لحزب العمال الوطني الاشتراكي بهذا البرنامج، وقررنا تنشيطًا للحركة أن ننشئ في برلين صحيفة تدعى (كامف فيرلا ج) بجانب عدة صحف أخرى، وتوليت إدارة هذه الصحف ودار النشر، وكانت تصدر في ألمانيا الشمالية صحيفة الدكتور (ليه)، فبقيت كولونيا هتلرية.

ولكي نفهم السر في سخط هتلر على مشروع نزع ملكية الأمراء، يكفي أن نتتبع التحول الذي طرأ على مبادئه؛ فقد أصبح هتلر من المحافظين لأنه كان بحاجة إلى المال لحزبه، وهو يعلم أنه لا يستطيع الحصول على المال إلا من الرأسماليين.

وطبعي أن مشروع نزع ملكية الأمراء من شأنه أن يزعج أصحاب المصانع الكبرى وكبار الملاك. فمن المنطق أن يرى هؤلاء جميعًا أن مسألة تقسيم ممتلكات الأسرة المالكة ما هي إلا الخطوة الأولى في سبيل اتخاذ تدابير أخرى مماثلة قد يكونوا هم ضحيتها.

ولم يتأخر الرد على مؤتمر (هانوفر) طويلًا إذ قرر هتلر عقد مؤتمر إقليمي، واختار له يومًا غير يوم الأحد، لأنه يعلم أن معظمنا يشتغل طول الأسبوع عدا هذا اليوم! ولم يستحضر إلى (هامبورج) رؤساء دوائر الجنوب فحسب بل استحضر أيضًا كثيرًا من صغار موظفي الحزب ليحصل على عدد كبير من الأصوات، وأمر بتعبئة فرق الهجوم لتعاونه على إحراز النصر.

ولسنا بحاجة إلى توضيح ما يفهمه هتلر من حرية الرأي، أو الطريقة التي يتبعها عندما يدعي أنه يرغب في استشارة معاونيه أو أخذ رأى الشعب، فأساليبه لم تتغير كما اتضح ذلك لأوروبا من الحوادث التي وقعت في السنين الأخيرة.

ولقد قرر هتلر منذ مدة طويلة، أن يحول منصب رئاسة الدائرة الحزبية إلى وظيفة لها مرتب بحيث أصبح هؤلاء الرؤساء الذين يشتغلون معه ويمحضونه النصح، مساعدين له يتقاضون أجرًا على ذلك.

ولم يكن بيننا من لديه الوقت والوسائل التي تمكنه من التوجه إلى (هامبورج) ما عدا (جريجور) الذي كان له – بوصفه عضوًا في مجلس النواب – بطاقة مجانية للسفر بجميع خطوط السكك الحديدية في ألمانيا؛ فقصد إلى (هامبورج)، واستصحب معه (جوزف جوبلز) المجاهد الكبير، ليعاونه في الدفاع عن قضيتنا.

واجتمع (مؤتمر هامبورج) في فبراير عام **1926** أي بعد مضي ثلاثة شهور على اجتماعنا في (هانوفر)؛ فدافع هتلر عن قضية الأمراء ومطالب أسرهم الارستقراطية دفاعًا حارًا. أما جوبلز فقد انتهز الفرصة للتفاوض مع موظفي حزب العمال الوطني الاشتراكي البافاري، ولقد اهتز لرؤية السيارات العديدة التي أعدت لأعوان هتلر ومساعديه؛ فراح يوازن بين حياته المتواضعة البسيطة وحياة النعيم التي كان يتمتع بها رجال كـ "شترايشر" و"أسر" و"فيبر" وغيرهم. فاختار لنفسه طريقًا جديدًا قبل أن يبدأ المؤتمر جلسته الأولى.

وبعدما ألقى هتلر خطابه، وقف "جوبلز"، وقال بأعلى صوته: "إن الهر هتلر محق فيما ذهب إليه– لم يكن هتلر في ذلك الوقت يلقب بـ (الفوهرر) – ولا جدال في أن حجته قوية مقنعة إلى حد لم نجد معه غضاضة ولا عارًا على أنفسنا في أن نعترف بأخطائنا، وننضم إليه في الحال".

فلم ينس أحد من أعضاء الحزب حتى اليوم هذا العمل الوضيع الذي ارتكبه ذلك الأعرج القصير في مؤتمر هامبورج، ولا يزال رفقاؤنا القدماء يطلقون على جوبلز عندما يذكرونه "خائن هامبورج".

ويظهر أن هتلر كان يتوقع حدوث هذا الانقلاب من جانب (جوبلز) كما كان ينتظر هزيمة "جريجور شتراسر" بعد أن تخلى عنه (جوبلز) في المؤتمر وأصبح وحيدًا لا يقوى على المقاومة.

وفي اليوم التالي وقعت مشـــادة عنيفة كان لابد من وقوعها بين هتلر وجريجور، ولقد قص علي أخي ما حدث فقال: "كنت أدافع عن قضـــيتنا دفاعًا قويًا، ولكني كنت أشـــعر بأن هتلر يغلبني على أمري، ولم يضـــطرني إلى اللجوء إلى العنف، لأنه استخدم معي جميع وسائل الإغراء التي عرف بها، وكان يقترب مني أحيانًا حتى خيِّل إلى أنه سيأخذ بخناقي ولكنه كان يمسكني من كتفي ويخاطبني في ود وصداقة قائلًا: "أصـــغ إلي يا جريجور، يجب عليك أن تترك حياة الموظف التافهة. وتبيع الصـــيدلية وتأخذ ما تريد من المال من صندوق الحزب، وتعيش عيشة تليق بمركز رجل مثلك".

وقد استمعت إلى رواية أخي، وأنا قلق مضطرب أشعر تمامًا بما كان يريده هتلر منه، فقد حاول هذا الرجل كما حاول مع الآخرين أن يجعل من (جريجور) ذنبًا من الأذناب وعبدًا للأموال التي اســتطاع جمعها. ولكن هتلر لم يســتطيع أن ينال منا في تلك المرة، تتمكنا زعم ذلك من أن نحافظ على استقلالنا وحقنا في إنشاء دار النشر، كما استطعنا أن نواصل إصدار صحيفتنا "الرسائل الوطنية الاشتراكية".

غير أننا اضطررنا إلى التخلي عن برنامجنا واعتناق برنامج هتلر المؤلف من خمس وعشرين مادة، وأسديت لأخي هذه النصيحة: "يجب أن نحتفظ بالصيدلية قبل كل شيء، وإياك أن تقبل مالًا منه".

وكنت في ذلك الوقت مستشارًا قضائيًا لإحدى الشركات الصناعية الكبرى، وباعتزالي هذا المنصب حصلت على تعويض مالي كبير، استعنا به على إنشاء صحيفة في برلين، وشراء ثماني صحف أخرى حولناها فيما بعد إلى صحف يومية.

وبدأنا النضال بنشاط وعزم كبيرين؛ فتوليت إدارة هذه الصحف التي كانت تعبر عن مبادئنا ونظرياتنا، وكانت إجراءات جماعتنا الديمقراطية تتعارض مع قرارات حزب العمال الاشتراكي للجنوب.. تلك القرارات التي كانت تقترب شيئًا فشيئًا من الرأسمالية، ولقد تسبب عن نشاطنا العظيم منافسة تجارية بين صحفنا وصحف (أهر) التي كان يديرها الهر (آمان) وكان لنا فيها قصب السبق.

وفي ذلك العهد عاد (جورنج) من رحلته الطويلة في إيطاليا والسويد، وطلب إلى هتلر أن يرشحه عن الحزب في الانتخاب لمجلس النواب، وهدد بقوله: "إذا رفض الحزب ترشيحي سأطالبه أمام القضاء بتعويض عن الجرح الذي أصابني في 9 نوفمبر".

ولقد قال لي ذات يوم أخي جريجور: "ألم يبلغك أن الحزب عدل عن ترشيح الفوهرر (كوك). ورشح (جورنج) بدلًا منه؟ وهكذا استطاع هذا الرجل أن ينال من هتلر بالتهديد".

ولكني كنت أرى شيئًا أبعد مما رأى أخي، فأدركت المنفعة التي كان يضمر هتلر إفادتها من (جورنج) الضابط القديم الذي كان له صلات وثيقة بأصحاب المصانع الكبرى. فلو لم يكن "جورنج" بجانب هتلر، لما استطاع هذا أن يتصل بغير الطبقة الوسطى من الرأسماليين الذين نجح بالفعل في ضمهم إليه.

وبمعونة (جورنج)، تمكن هتلر من أن يتصل بـــ (تيسن)، صاحب المصانع المشهورة، وبـــ (كيردورف)، مدير المصروفات السرية للمصانع الكبرى، وبالدكتور (شاخت الخبير) الذائع الصيت في مسائل العملة. ومنذ ذلك الوقت بدأ هتلر حياة أخرى وجعل ينفق أموالًا طائلة في سبيل القضاء علينا.

ولقد توجهت مرات عديدة إلى (ميونيخ) حيث دارت بيني وبين هتلر محادثات كانت تزداد عنفًا وحدة وتعرفت في داره عام 1928 بالآنسة (جيلي رويال) ولم يكن لهذه الفتاة أية صلة بالجفاء الشديد الذي طرأ على علاقتي بهتلر.

وفي تلك الأثناء كان (هملر) قد أغواه الأمل بتولي إدارة الحرس الأسود الذي ألفه هتلر لمصلحته الخاصة، فكف عن معاونة أخي وانحاز إلى الفوهرر. وجعلنا ندافع عن مبادئنا وأفكارنا بكل ما كان في وسعنا من نشاط وقوة، وكانت دعوتنا منظمة تنظيمًا بديعًا. وألقى (كوفمان) و(كوك) و(ستاوهر) و(وشوبك) و(فرانزن) و(جروه) خطبًا بليغًا في جميع أنحاء ألمانيا الشمالية قوبلت بحماسة واستحسان عظيمين، ونشرناها في صحفنا في برلين وغيرها، ولقد كسبنا مقاطعة (ساكس)، وربح هتلر (تورنج) واستطاع أدولف هتلر بفضل صلاته الجديدة القوية أن يلغي الأمر الذي كان يقضي بمنعه من الخطابة في ألمانيا الشمالية؛ فأصبح يستطيع أن يخطب الناس في عدة مراكز خصوصًا في (برمن) و(انهالت) و(ولدنبورج).

ويؤسفني أن أقول أن حوادث عامي 1928 و1929 أثرت على صلتي بأخي "جريجور" تأثيرًا خفيًا، فعندما كان في برلين أقام في داري وكنا نقضـــي ليالينا في مناقشـــات طويلة عديمة الجدوى. وبلغت الحال (إلزا) زوجة أخي التي كانت تنفر من هتلر، أن أعربت عن رغبتها في أن يكون لها ســـيارة كما كان لزوجات كبار موظفي الحزب في بافاريا.. أما "جريجور" فقد ذكر حججًا أخرى أكثر قوة لتبرير تمســـكه بإصلاح هتلر، فرحت أذكره بخيانات هذه الرجل المتتالية، وقلت:

"في الحق أننا لم نعد ننطق باللغة التي يتكلم بها هذا الرجل فنحن اشـــتراكيون، بينما قد وضـــع هتلر يده في يد الرأسماليين – ونحن "جمهوريون" – بينما ينحاز هتلر إلى جانب "فتلسباك" وأسرة "هوهنزولون"، ونحن أوربيون أحرار نطالب بحريتنا ونريد أن نحترم حرية الآخرين. أما هتلر فإنه يتحدث إلى أخصائه في بسط السيادة الألمانية على أوروبا، ونحن مسيحيون، وأوروبا بغير المسيحية صائرة إلى الضياع والتهلكة، إلى الإلحاد والزندقة".

فاســـتمع إلي (جريجور) وهو مقطب الحاجبين، تتجلى على وجهه علامات الجد والاهتمام، ثم صـــاح: "كلا. كلا، كلا. إنني لن أنقاد لهذا الجواد المتوحش الذي يجمح لكي يتخلص من فارسه، وأقسم أني لأكبحن جماحه".

قلت: "إنك لن تستطيع يا أخي أن تكبح جماحه، لأن الجواد لا يحاول التخلص من فارسه، بل بالعكس يستدرجه إلى طريق مشئوم، وعندي أن عنانه قد أفلت من يديك، فيجب أن تخاطر بكل شيء وتتخلى عن الجواد قبل فوات الوقت، نعم يجب أن ننفصل عن هتلر".

ولكني لم أستطع أبدًا أن أقنع أخي بالعدول عن رأيه، وكلما حاولت ذلك أجابني: "كلا. كلا".

الفصل السادس

معركة على المكشوف

ثم خطرت لهتلر فكرة مكيافيلية؛ فعيّن "جوبلز" رئيسًا لدائرة برلين؛ فأصبح لسكرتير أخي السابق بعض السلطة علينا، وصار في استطاعته أن يعطل أعمالنا بإجراءات إدارية لا يسأله أحد عنها، ووضع تحت تصرفه فريقًا من فصائل الهجوم التي كان (الفوهرر) يتولى الإنفاق عليها في جميع أنحاء ألمانيا الشمالية.

وفي عام 1927، أنشأ (جوبلز) في برلين صحيفة يومية يقال لها (أنجريف) ويقصد بها منافسة صحيفتنا (جريدة العامل) التي كانت الصحيفة الرسمية منذ مارس 1926 لحزب العمال الوطني الاشتراكي للشمال.

وطبيعي أن (جوبلز) لم يدع فرصة تمر دون أن يعرقل نشاط أنصارنا ويوعز بالقبض على بائعي صحفنا، ولقد بلغ به الأمر أن كان يخفي علينا مواعيد الاجتماعات التي يشرف على تنظيمها، بحيث عاد أعضاء الحزب لا يبتاعون سوى صحيفة (أنجريف) بدلًا من (جريدة العامل) حتى يمكنهم أن يكونوا على علم بما يجرى خاصة بالحركة، فكتبت أنا وأخي جريجور عدة كتب إلى هتلر احتججنا فيها على طريقة (جوبلز) غير المشروعة.

غير أن هتلر لم يكن رجلًا يكره الدس، فكتب إلينا يقول: "إن صــحيفتكم هي ولا شك صحيفة الحزب الرسمية في برلين فليس في استطاعتي أن أمنع "جوبلز" من أن يكون له صحيفته الخاصة" ولعمري كيف تكون صحيفة (جوبلر) في العاصمة صحيفة خاصة؟!

وتوالت الأيام والشهور بينما "جوبلز" يشتغل في برلين بتنظيم حرب شعواء ضد رجالنا وأنصــارنا المخلصــين، فكان يوعز إلى شــبان فرق الهجوم بأن يتخفوا في زي الأشــقياء ويتربصــوا برجالنا ويعتدوا عليهم في الطريق، ولقد حاول "جوبلز" مرات عديدة أن يعتقلني فذهبت جهوده أدراج الرياح.

وكنا كلما طالبنا بإجراء تحقيق خاص بهذه المعارك والاعتداءات العجيبة بغية تحديد المســئولية، قيل لنا: "الشــيوعيون يطاردونكم ويعتدون عليكم؛ فدعوا فرق الهجوم تحرسكم منهم".

ومعنى هذا بلغة أخرى: "دعوا الجواسـيس يدخلون بين صـفوفكم، ولكم علينا أن ندعكم وشأنكم!

واتخذ معظم أعواني ضــواحي برلين مقرًا لهم، لأنها تابعة لدائرة (براندبورج) السياسية ورئيسها (اشتراسي) محض. أما أنا فلم يمكني التخلي عن الدفاع عن قضيتنا في برلين نفسها.

وبينما كنت ذات صـــباح من ربيع 1928 وحيدًا في غرفة عملي التي اعتدنا فيها أنا وجريجور أن نكتب على مكتبين متقابلين، إذ دخل عليّ هتلر فجأة وبغير استئذان. ولم أكن أعلم بوجوده في برلين.

واتجه مسـرعًا نحو مكتب (جريجور) دون أن يقرأني السـلام، فأخذ مكانه، وقال بغتة:

"هذا لا يمكن أن يستمر على هذه الحال"

"ماذا تعني، ياهر هتلر؟"

"أعني مخاصـماتك المتواصـلة للرجال الذين يقفون في صـفي، فمنذ عام كنت تشكو من (شتراتشر) ثم من (روزنبورج)، وها أنت الآن تخاصم (جوبلز). فهذه حالة لا تطاق".

"لا وجه للشبه بين هذا وذاك. إن (يوليوس شتراتشر) رجل ساقط الخلق؛ ففي أثناء اجتماع مؤتمر نورمبرج في العام الماضـي، طلع علينا هذا المخلوق في صـحيفته بجرائم اليهود الجنسـية. فقلت له أن نفسـي تنفر مما يكتب في صـحيفته، وأني أحب الأدب وأمقت الخلاعة، ووقعت بيني وبينه مشادة عنيفة".

فقال هتلر الذي كان يبدو عليه الارتباك عند ذكر المسائل الجنسية: "ولماذا تخاصم (روزنبرج)؟".

قلت: "أخاصمه لإلحاده".

فنهض هتلر وراح يذرع أديم الغرفة جيئة وذهابًا، ثم صاح:

"إن نظريات (روزنبرج) ما هي إلا جزء لا يتجزأ من الوطنية الاشتراكية".

فقلت: "لقد كنت أحسب أنك صالحت روما".

فتوقف هتلر، ونظر إلي، وقال: "المسيحية هي في الوقت الحالي، جزء من برنامجنا الذي وضعته، ولكن يجب أن نكون ذوي نظر بعيد.. إن (روزنبرج) بشير ونبي، تعبر نظرياته عن الروح الألماني أتم تعبير وليس في استطاعة الألماني الصادق الوطنية أن يحكم بإدانة رجل مثله".

فأمسكت عن الرد عليه دون أن أغض من بصري إزاء نظراته الحادة وعجبت لسوء نيته ونفاقه. فبدرت منه حركة كأنه أراد أن يمحو أثر ما أفضى به إلي، وقال:

"فلنعد إلى مسألة جوبلز – التي جئت هنا من أجلها – فأقول مرة أخرى أن هذه الحال لا يمكن أن تدوم".

فقلت: "حسنًا. ولكن ما أجدرك بتوجيه هذا الكلام إلى "جوبلز"، إنه وفد على هذه المدينة بعدنا، وأصدر صحيفته بعد ظهور صحيفتي؛ فالحق لي وليس له".

فضحك هتلر ضحكة عالية وقال: "المسألة لا تستند إلى الحق، بل إلى القوة؛ فماذا تفعل لو أن فريقًا من جنود "جوبلز" دهمك في غرفتك هذه؟"

فتناولت مسدسي من موضعه بالمكتب ووضعته بجانبي، وقلت: "لدي ثمان قذيفات في هذا المسدس يا هر هتلر، وهي تكفي لإرسال ثمانية من جنود جوبلز إلى العالم الآخر".

فانتفض هتلر وصاح قائلًا: "أعلم أن جنونك قد يدفعك إلى إطلاق النار، كما أعلم أنك لن تتردد في الدفاع عن نفسك، ولكنك لن تجرؤ مهما كانت الحال على أن تقتل جنودي".

فبادرته بقولي: "أجنودك هم أم جنود "جوبلز"؟.. إذا كانوا جنودك فإني أنصحك بألا ترسلهم إلي، ولئن كانوا جنود "جوبلز"؛ فليس هناك أحد سواك يمكنه أن يمنعهم من المجيء هنا، أما أنا فثق أني لا أتردد في أن أطلق النار على أي إنسان يهاجمني، ولست أقيم أي وزن لزيهم وقمصانهم السمراء".

فخاطبني هتلر لأول مرة وآخر مرة باسمي الصغير قائلًا:

"أوتوا" اعتبر نصيحتي وعد إلى رشدك بحق حبك لأخيك".

وأخذ يدي في يديه، ومكثنا في وجوم رهيب، ثم ودّعني وانصرف.

ومنذ تلك اللحظة عقدت العزم على أن أحارب نفاقه حتى أغلبه أو أنفصـــل عنه. ولكني كنت أبقي على أخي "جريجور" إبقاءً جعلني أتردد طويلًا في الانفصـــال عن هتلر، إذ لو أني خرجت عليه لما وجدت بدًا من قطع صلتي بأخي.

ثم أني استمعت لنصيحة أخي؛ فأقمت كما أقام أصدقائي في "لينز" بضواحي برلين التابعة لدائرة (براندبورج)، ونقلنا إليها مطبعتنا وظلت (صحيفة العامل) الجريدة الرسمية للشـــمال، وأطلقت لأعواني عنان الحرية، فراحوا يناقشـــون وينقدون أعمال رؤساء الأقاليم الجنوبية ويحكمون عليهم في حرية وصراحة. وكان الكونت (رفنتلوف) من بين أنصاري المتحمسين الصادقين.

وكان (آمان) الذي ناهضنا صحفه ونشراته يحرض علينا (الفوهرر) فلم أشك منه، لأني كنت واثقًا من أن يومًا سيأتي يطهر فيه الدمل مما ينطوي عليه من صديد.

وأذكر أن هتلر عرض علي في عام 1929 أن أبيعه صحيفتي، فرفضت رفضًا باتًا، إذ كنت مصـــممًا على ألا أبقى في الحزب إلا مدى الفترة التي يمكنني خلالها أن أجاهد بصدق وحق في سبيل ما كنت أؤمن بصدقة وحقه، فلو أني حرمت الإشراف على صـــحفي، لأصـــبحت ككثير غيري موظفًا لرجل كان أعوانه في الجنوب يخاطبونه منذ ذلك الحين بكلمة (فوهرر).

وفي سـنة 1930 تحرجت الحال واسـتحكمت حلقاتها؛ ففي شـهر إبريل قررت نقابات العمال في (ســاكس) الإضــراب عن العمل في المصــانع، فوطنت العزم على تأييد هذه الحركة بكل ما لدينا من قوة ووسائل، ورصدت صحفي لخدمتها.

ويُمكنك أن تدرك في يسر مقدار الغضب الشديد الذي استحوذ على أصحاب المصـانع الذين ارتبط بهم هتلر بروابط الحلف والصـداقة! فقد كان (تيســن) وزملاؤه من كبار الصــناع يتكفلون بالإنفاق على فرق القمصــان الســمراء التي أشــاح عنها الجيش بوجهه، إذ كان يختص هيئات اليمين الأقصى بعطفه وتعضيده.

ولولا ما كان لهتلر من أصــــدقاء جدد لســــقط هو وحزبه في هاوية الخراب والتهلكة، فقد تلقى من اتحاد أصحاب المصانع في ساكس إنذارًا جاء فيه ما يلي:

(إن لم يعارض الحزب الوطني الاشـتراكي وصـحفه خاصـة صـحيفة (سـايشـيش باويشلر) إضراب العمال ويحاربه بكل ما لديه من وسائل، فإن اتحاد أصحاب مصانع الرايش جميعًا سيقبض يده عن الأموال التي يدفعها لحزب العمال الوطني الاشتراكي).

ولم يكن من المســـتطاع كتمان أمر هذا الإنذار المشـــين المهين، فوقفنا على ما تضـــمن، وقبل هتلر الإنذار، وأجاب الاتحاد إلى طلبه، فتأكدنا جميعًا من ذلك اليوم أن هتلر صار عبدًا للرأسماليين.

وأصـدر هتلر أمرًا بإمضـائه يحظر على أعضـاء الحزب في جميع أنحاء الرايش أن يشـتركوا في الاعتصام. واستطاع الهر (موتشـمان) رئيس دائرة سـاكس أن يحمل دائرته على قبول قرار هتلر بأغلبية ضــعيفة، فأصــبحت بذلك (ســاكس) مقاطعة هتلرية؛ فاشمأزت نفوسـنا - أنا وبعض الأصـدقاء - من غدر البعض ونفاق الآخرين، ورفضـنا الإذعان لأمر هتلر، ومضــينا نؤيد المتعصــبين في صــحفنا بكل ما وســعنا من قوة وحماسة، وحملنا على أعوان هتلر وأساليبه.

ومما هو جدير بالـذكر أن المفاجأة وما لها من أثر تشـــغل مكانًا مهمًا بين الأســاليب التي يســتخدمها أدولف هتلر ويفيد منها كل الإفادة. فبينما كنت حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر **21** مايو سنة **1930** أستعد للرحيل إلى (كرانيانبورج) التي اخترتها مقرًا لأعمالي. إذ قيل لي أن هناك من يريـد أن يتحدث إلي بالتليفون، فاستمعت إليه يقول:

"أنا أدولف هيس.. هتلر يرجوك أن تتوجه في الحال إلى فندق (ســانســوســي) لأمر مهم".

وكانت رحلة هتلر إلى برلين قد أحيطت بالكتمان الشديد، ولكنه لم يشأ هذه المرة أن يفاجأني في مكتبي، بل دعاني إلى منزله لحديث كنت أقدر أنه سيكون ذا نتيجة حاسمة؛ فقلت لنفسي: "من الخير أن نعجل بالأمر"، ولبيت الدعوة في الحال؛ فاستقبلني هتلر في بهو الفندق، ولم يكن معنا أحد فطلب إلي أن أجلس وأخذ مكانه قبالي، ثم قال:

"أفكرت فيما عرضته عليك في العام الماضي؟ لقد أطلعني (آمان) على تقرير يشهد لدارك للنشر شهادة طيبة للغاية. وإني مستعد لشرائها منك ومن (هنكل)، فيكون لكل منكما ستون ألفًا من الماركات، وتصبحان أنتما الاثنان عضوين في مجلس النواب".

فقلت: "إن الأمر لا يتعلق بهذا يا هر هتلر، ولا زلت مقيمًا على رفضي الذي أنهيت به إليك في ميونيخ".

فأمطرني هتلر وابلا من النقد واللوم قائلًا:

"تسلك صحفك بين الجمهور مسلكًا مشينًا، وأنت تخالف فيما تكتب قواعد النظام الأولية، ومقالاتك سبة لمبادئ الحزب. فلم يعد في طوق الصبر منزع. ولابد من أن توافق على غلق (دار النشر) وإن رفضت ذلك فإني محاربك بجميع الطرق والوسائل".

ثم أمسـك، فانتصـبت واقفًا، وقلت: "كنت أحسـب، يا هر هتلر أنك دعوتني للتحدث إلى حديثًا يوضـــح الموقف ويجلوه، ولا زلت مســـتعدًا لقبول هذا النوع من الحديث ولكني أرفض الإذعان لأي إنذار".

فقال هتلر في شيء من الود والملاطفة: "لا ريب أني أود حديثًا يجلو ما بيننا من نزاع، وإني لأحرص كل الحرص على الاحتفاظ برجل ذي شأن مثلك في الحزب. ولهذا الأمر قد اســـتدعيتك، فأنت رجل في مقتبل العمر وقد خضـــت غمار الحرب في الصـفوف الأولى، ونعدك واحدًا من الوطنيين الاشـتراكيين القدامى، وأعتقد أنك قادر على الإدراك والفهم، ولكني لا أستطيع أن أقول هذا عن شيخ كـــ "رفنتلوف" الذي أعده من الصحفيين الذين لا يستطيعون تصحيح آرائهم العتيقة، فهو في حالة لا أمل في إصلاحها. أما أنت...".

وهنا شعرت بأن هتلر يحاول أن يستخدم معي طريقته المعهودة في عزل منافسه عن بقية المنافسين، فقاطعته قائلًا:

"أرى أن لومك لي ينقصــه كثير من الدقة والوضـوح، وليس عندي ما أقوله ردًا على نقدك ســوى أن المقالات التي نشــرت في الأســابيع الأخيرة قد كتبها أعضــاء صـــحف النازي الرسمية، وأنها لقيت جميعها موافقتي التامة، ولكني مغتبط بأن أتيحت لي هذه الفرصة للتفاهم معك في هذا الموضوع...".

واستمر الحديث بيني وبين هتلر سبع ساعات بالضبط، اضطررنا بعدها إلى وقفه، ثم استئنافه في اليوم التالي، ولقد سجلت هذا الحديث في مذكرة كتبتها بالآلة الكاتبة، وأطلعت زملائي عليها، ولست أجد متسعًا لنصها الكامل في هذا الكتاب، ثم قد يدعوني نشرها إلى ذكر ملاحظات شائكة عن سياسة ألمانيا الداخلية فلن أذكر هنا من الحديث إلا أجزاءه الرئيسية التي تلقي بعض الضوء على الرجل الذي قد تصديت له بحيث يمكنني أن أوضح السبب الحقيقي في انفصالي عنه.

وعندما استأنفنا الحديث جعل هتلر يذرع الغرفة جيئة وذهابًا كعادته ثم قال: "إن المقالة التي نشرتها صحيفة (الوسائل الوطنية الاشتراكية) ما هي إلا طعنة خنجر في ظهر الدكتور (فريك) وزيرنا الوطني الاشتراكي. أما (شولز نومبورج) فهو فنان من الطراز الأول. ويدرك من هم على علم بشيء من الفن أن هذا الرجل من أكفأ الفنانين لتدريس الفن الألماني الحقيقي. ولكنك قد حالفت الصحف اليهودية في العمل على إحباط القرار الذي اتخذه هذا الوزير الوطني الاشتراكي في هذا الشأن".

قلت: "إننا لا ندافع في (الرسائل الوطنية الاشتراكية) إلا عن آراء الشبان من فناني الحرب الذين يلتفون حول (فندلاند) ونريد أن نقف في طريق من يبغون إقصاء هؤلاء الشبان لمصلحة الفنانين القدماء".

كان (شـولز نومبورج) أحد شـياطين هتلر ومهرجيه، ومن أولئك الألمان القسـاة الغلاظ الذين كان يرى فيهم هتلر صورة لروح الشعب الألماني.

ثم قال الفوهرر: "إنك لا تعرف شيئًا عن الفن، يا هر شتراسر، فالحقيقة أن فن الشـــيوخ وفن الشـــبان لا وجود لهما. وعندي أنه ليس هناك إلا فن واحد جدير بالاعتبار، وهو الفن اليوناني لأهل الشـمال، فالثورة من حيث هذا الفن لا وجود لها. وليس ثمة فن إيطالي أو هولندي أو ألماني. ومن الجنون أن يتحدث الإنســـان بالفن القوطي، فكل هذه الفنون ما هي إلا الفن اليوناني لأهل الشـمال، فهو الوحيد الذي يجدر بنا أن نسميه فنًا".

فقلت: "إني أرى، دون أن أدعي الخبرة التامة بهذا الموضـــوع، إن الفن يعبر عن روح الشـعب ومشـاعره، وأنه خاضـع لعوامل مختلفة متعددة"، ووجهت نظره إلى الفن المصري والفن الصيني.

فقال هتلر: "هذه آراء حرة عتيقة، وأكرر القول بأن هذا الفن لا وجود له، ولم يكن المصريون أو الصينيون شعبًا متناسقًا، بل كانوا من عناصر منحطة يتفوق عليهم في الذكاء أهل الشمال الذين أتوا بآيات بينات ومعجزات خالدات".

فلم أشأ الرد على آراء هتلر العجيبة في الفن، إذ كنت أود أن نعود إلى الحديث عن الشئون السياسية، فلم يلبث أن عرض لمقالة (بلانك) عن (الوفاء والغدر). فوجه إلي هذا السؤال:

"كيف يمكنك أن تبرر نظريات (بلانك)؟.. إنه يحض أعضـــاء الحزب على العصيان بما يكتبه عن (الوفاء) وبتفريقه بين (الفوهرر) و(الفكرة)".

فأجبت: "كلا.. ليس الغرض من هذا هو التقليل من نفوذ الزعيم وســلطانه، غير أن الألماني البروتســتانتي الحر يحرص على أن يخدم الفكرة قبل أي شــيء آخر. والفكرة هي من أصل سماوي، وما الإنسان إلا وعاء لها، ومهمة الزعيم خدمة الفكرة، ونحن مدينون لها وحدها بالإخلاص التام، لأنها خالدة، أما الزعيم فهو فان وليس بمعصوم من الخطأ".

قال هتلر: "إن قولك هذا حماقة ليس بعدها حماقة، ونظرية قد اخترعت حول مائدة الحوار الخضــراء. فأنت تريد أن تعطي أعضــاء الحزب الحق في الحكم على إخلاص الزعيم لهذه (الفكرة) المزعومة أو عدم إخلاصــه. وهذه هي الديمقراطية التي لا حاجة بنا إليها. أما عقيدتنا نحن فهي أن الفكرة تتمثل في شــخصــية الزعيم، وكل عضو من أعضاء الحزب ملزم بإطاعة الزعيم".

فقلت: "كلا.. إن قولك هذا يتفق وتعاليم الكنيســة الرومانية التي اســتمدت منها الفاشستية مبادئها، وإني مصر على أن للفكرة القدح الأعلى في ألمانيا، وعلى أنه يجب أن يكون للضمير حق الحكم عندما يحدث خلاف بين الفكرة والزعيم".

فصـــاح هتلر قائلًا: "إني لا أتفق معك على هذا الرأي، وقولك هذا يؤدي إلى انحلال جماعتنا التي تقوم على النظام والطاعة، ولســت أرغب إطلاقًا في أن أدع أديبًا معتوهًا يهدم هذا البناء. لقد كنت ضـــابطًا في الجيش، وها أنت ترى بعينيك أخاك يخضـــع لنظامي حتى لو لم يكن متفقًا معي في الرأي على الدوام، فأعتبر بمثله، فهو جدير بكل إعجاب وتقدير".

ثم أمسك هتلر بيدي كما فعل ذلك منذ عامين، واختنق صوته بالبكاء وانهمرت دموعه على خديه، فخاطبته قائلًا:

"ليس النظام، يا هر هتلر، إلا عاملًا إضـافيًا يوجد بين عناصـر الجماعة التي تم تكوينها، ولكنه لا يصـــلح لإيجادها، وإياك أن تضـــل الطريق بما تبديه لك تلك المخلوقات الحقيرة التي تحيط بك من ضروب الملق والإعجاب".

فصاح بي: "إني أمنعك من أن تسب أعواني"

قلت: "حسنًا، ولكنا نتحدث فيما بيننا، ولسنا في اجتماع عام، فكم رجل من أعوانك المقربين يمكنه أن يحكم على الأمور من تلقاء نفســـه؟ إنهم على درجة من الذكاء، فضـــلًا عن طبيعة خلقهم؛ تقعدهم دون ذلك الحكم. ولو لم يكن أخي تابعًا لك ماليًا بسبب عضويته في مجلس النواب، لكان خضوعه لنظامك أقل مما هو الآن".

فقال هتلر، وعيناه لا تزالان تترقرق فيهما الدموع: "من أجل أخيك هذا، أود مرة أخرى أن أبسط لك يدي، لقد عرضت عليك مرات عديدة مناصب ذات شأن في الحزب، وفي وسعك أن تصبح في الحال رئيسًا لصحفي في جميع أنحاء الرايش. تعالى إلى ميونيخ، واشتغل تحت إشرافي.. ضع مواهبك وذكاءك الذي أقدره تقديرًا ساميًا، في خدمة الحركة الوطنية الاشتراكية".

فقلت: "لا يسعني أن أقبل منك هذا إلا إذا انتهينا إلى التوفيق بين مبادئنا السياسية المتنافرة. أما إذا كان الاتفاق سطحيًا فإنك ستشعر بأني خدعتك، كما سأشعر من جانبي بأنك غررت بي. فلنتكلم قبل أي شيء عن أهدافنا السياسية وأني مستعد، لو شئت ذلك، أن أقضي أربعة أسابيع في ميونيخ للتفاوض مع (روزنبرج) في المسائل الاشتراكية وشؤون السياسة الخارجية".

فبادرني هتلر بقوله: "كلا. لم يعد في الوقت متسع لهذا. ولا بد لي من البت فورًا في هذا الموضوع. فإن لم تقبل الآن، فإني مهاجمك ابتداءً من الاثنين المقبل. وها هي ذي الإجراءات التي اتخذتها: سأعلن أن صحفك تضر بمصلحة الحزب الوطني الاشتراكي، وأحظر على جميع الأعضاء أن يساهموا في تحريرها أو بيعها أو الترويج لها، ثم أعزلك من الحزب أنت وأنصارك أجمعين".

فبينما كنت أستمع إلى هذا الوعيد والتهديد؛ بذلت جهدًا هائلًا في السيطرة على مشاعري وأعصابي وطافت بنفسي صورة أخي (جريجور) الذي لابد من أن ينفصل عني في هذه المعركة الكبيرة وقلت: "كل هذا في متناول يدك، يا هر هتلر، ولكنه دليل مبين على التنافر الشديد بين أفكارنا الثورية والاشتراكية وليست الأسباب التي ذكرتها للقضاء على صحفي إلا أسبابًا ممتحلة واهية.. أما السبب الحقيقي لغضبك هذا فهو رغبتك في خنق الثورة الاشتراكية لمصلحة تعاونك الجديد مع أحزاب اليمين البورجوازية".

هنا اشتد غضب هتلر وصاح قائلًا: "إني اشتراكي، ولكني من نوع آخر يختلف عن اشتراكية صاحبك المثري الكونت "رفنتلوف"، ولقد كنت عاملًا بسيطًا ولم أحتمل قط أن يأكل سائق سيارتي من طعام غير طعامي أما اشتراكيتك أنت فهي ماركسية كلية، واعلم أن جماعة العمال لا تطلب إلا خبزًا وألعابًا ولكنها لن تدرك أبدًا ما هو المثل الأعلى. ولسنا نأمل أن نضم إلينا هذه الجماعة، إنما نحن بحاجة إلى أن تتخير الرجال الذين لا ينساقون مثلك، وراء عاطفة الشفقة، ويجب أن يوقن ولاة الأمر والقادة أن لهم الحق في الولاية والأمر لأنهم من عنصر أرقى وعليهم أن يحرصوا على هذا الحق ويعززوه دون أن يهتموا لأي شيء آخر".

فذهلت من هذا الكلام العجيب، وأعربت لهتلر صـراحة عن دهشـتي وعجبي وقلت:

"إن نظرياتك العنصـرية المأخوذة عن (روزنبرج) لا تقضـي على رسـالة الوطنية الاشتراكية التي ترمي إلى تشييد صرح جديد للأمة الألمانية فحسب بل تقضى على الشعب الألماني بأسره".

ولكنه استأنف الكلام كما لو كان يلقى خطبة وقال:

"حرية الرأي.. حرية الرأي، هذا ما نبشـر به وندعو إليه، ولكن لا يمكن أن توجد في ألمانيا إلا ثورة واحدة هي الثورة العنصرية، أما الثورة الاقتصادية أو السياسية أو الاشتراكية فلا محل لها هنا، وسيبقى النضال كما هو، نضال الطبقات أو العناصر السفلى ضد العناصر العليا التي تحتل القمة، فإذا أغفلت العناصر العليا هذا القانون فلا شـك في أنها سـتخسـر المعركة. ولقد درسـت الثورات جميعها فألفيتها ثورات عنصـرية. وعندما تطالع كتاب روزنبرج الجديد (خرافة القرن العشـرين) سـتفهم هذه الأشياء لأنه أعظم كتاب في نوعه، بل أفضل من كتاب تشمبرلن (أسس القرن التاسع عشر). أما أفكارك الخاصة بالسياسة الخارجية فهي أفكار خاطئة، لأنك لا تعلم شيئًا من التعاليم العنصرية، أو لم تصرح علانية بأنك تؤيد الهند في المطالبة باستقلالها. مع العلم بأن ثورتها هي ثورة العنصـر الهندي المنحط، ضـد العنصـر الإنجليزي الشـمالي الراقي..

إن للعنصر الشمالي الحق في السيطرة على شعوب العالم، وسيكون هذا الحق المبدأ الذي يوجه سياستنا الخارجية، ولهذا فإننا نرفض أي حلف مع روسيا التي تتمثل في إنسان جسمه من السلافيين والتتر ورأسه يهودية، ولقد عرفت هؤلاء السلافيين في وطني وعجمت عودهم! وحينما كانت ألمانيا تسيطر عليهم كان لها أن تدافع عنهم وتنصر قضيتهم كما فعلت ذلك في عهد (بسمارك) أما اليوم فمن الإجرام في حق الوطن أن ننصرهم".

فقلت: "إن قولك هذا، يا هر هتلر، لا يمكن أن يكون أساسًا للسياسة الخارجية، وليس هناك إلا مسألة واحدة أوليها عنايتي واهتمامي ألا وهي مسألة العصبة السياسية الموالية لألمانيا أو المعادية لها. وليس لنا أن ننساق وراء عواطفنا. ولقد سبق أن قلت لك أن من بين الأهداف الأساسية للسياسة الألمانية إلغاء معاهدة فرساي. وسواء عندي ستالين، موسوليني، ماكدونالد أو بوانكاريه. وينبغي لكل سياسي ألماني مخلص لبلاده أن يفكر في مصلحة ألمانيا قبل كل شيء".

فأمن هتلر على كلامي قائلًا: "لا شك في ذلك، ونحن لا نعمل إلا لمصلحة الوطن؛ ولهذا فإنه من الضروري أن نكون على وفاق مع إنجلترا، ويجب أن نفرض السيادة الجرمانية الشمالية على أوروبا ثم نفرضها على العالم بمعونة أمريكا ولتكن لنا السيادة على الأرض، ولبريطانيا سيادة البحار".

ولم نكن وصلنا بعد إلى النقطة المهمة في الحديث، فنظرت في ساعتي فوجدتها عند الرابعة وعشر دقائق. وكان التعب قد استولى على هتلر فاستلقى في مقعد طويل وهو يلهث كمن قطع شوطًا بعيد المدى، فقلت: "أليس في وسعنا أن نستأنف هذا الحديث صباح الغد؟ إذ لا تزال السياسة الخارجية فيما يتصل بنا مسألة نظرية لا يتحتم علينا أن نتخذ قرارًا بشأنها الآن. أما مصلحة ألمانيا فقد اتفقنا على ضرورة العمل من أجلها، وإني لواجد في هذا ما يكفيني الآن. ولست أولي المسائل الثقافية إلا قليلًا من عنايتي واهتمامي. على أن مشكلة النظام الاقتصادي والاشتراكي هي المسألة الشائكة الجوهرية في الموضوع وأراني غير مطمئن إلى سياسة الحزب بشأنها".

فبسط هتلر يده إلي للمرة الثالثة، وكانت عيناه مملوءتين بالدموع، وقال:

"إلى الملتقى غدًا في الساعة العاشرة"!

وفي مساء اليوم نفسه أبلغت أصدقائي (ريشار دشابك) و(جوتنز كوبلر) و(هربرت بلانك) و(بول برانكمان) خبر الحديث الذي دار بيني وبين هتلر، فطلبوا إلي أن أسطر لهم في الحال محضرًا بذلك. وفي صباح اليوم التالي اجتمعت بأخي جريجور برهة قصيرة، اطلعت في أثنائها على حقيقة موقفه. ثم قصدت مقر هتلر، فوجدته في غرفة الطعام على وشك الانتهاء من الإفطار. ولم يكد يلمحني حتى نهض ورجاني أن أتبعه، فتبعته حتى حجرة المطالعة حيث كان ينتظرنا أربعة رجال هم (رودلف هيس) و(آمان) مدير جريدة (فولكش باوبشلر) و(هانس هنكل) وأخي (جريجور)، فقلت بمجرد أن وقع نظري عليهم: "لقد كنت أحسب يا هر هتلر، أننا سنستطيع أن نستأنف حديثنا دون أن يحضرنا أحد".

إذ كنت أعتقد أني أستطيع أن أستشف طويته إذا اجتمعت به على انفراد؛ فقال هتلر:

"يهتم هؤلاء الزملاء بالوقوف على ما يدلي به كل منا من حجج وآراء".

فلم أر بأسًا رغم ذلك من أن أتكلم أمام شهود، ولكني أدركت حرج مركزي، إذ كنت أعلم أن هؤلاء الرجال ينصرون هتلر، ثم طلب إلي أن أتكلم؛ فقلت:

"ها هو ذا، يا هر هتلر الموضوع الذي أود أن أسألك عنه: هل أنت مقتنع مثلي بأن ثورتنا يجب أن تكون ثورة كاملة فيما يتصل بالاقتصاد والسياسة والثقافة؟ وهل تنوي أن تثير هذه الثورة على الماركسية والرأسمالية معًا؟ وهل تقبل والحالة هذه أن تنهض دعوتنا في وجه المذهبين لنحصل على الاشتراكية الألمانية؟".

ثم بسطت له ما تضمنه برنامج شتراسر كما وضعناه في هانوفر، وأوضحت آراءنا الخاصة بتبعية المنشآت الخاصة للدولة، فصاح هتلر: "هذه هي الماركسية عينها! وها أنت تبغي تطبيق النظام الديمقراطي على الاقتصاد، هذا النظام الذي نعده مسئولًا عما نقاسي من آلام ومتاعب، ولعمري أن في هذا قضاء على الاقتصاد الألماني، وإنك لتهدم بأفكارك هذه ما شيدته الإنسانية من حضارة ومدنية، هذه الحضارة التي يرجع الفضل فيها إلى جهود الفرد وكبار العلماء والمخترعين".

قلت: "إني لا أومن – يا هر هتلر – بتقدم الإنسانية ومدنيتها، وما تغير الإنسان منذ ألف عام إلا في بدنه وفي أحوال معيشته، أو نحسب أن (جوته) كان يمكن أن يكون أسعد مما لو أنه استطاع أن يتنزه في سيارة أو نابليون لو أنه تمكن من أن يستمع إلى جهاز الإذاعة؟ إن مراحل التطور البشري كمراحل حياة الفرد، فالإنسان في الثلاثين يعتقد أنه أرقى أو أكثر تقدمًا من أخيه في العشرين، وابن الأربعين مخدوع بنفس الفكرة، أما من بلغ الخمسين فإنه قلما يتحدث بالحضارة والتقدم، فإذا وصل إلى الستين أنكرها تمامًا".

قال هتلر: "هذا قول نظري محض، ولا مراء في أن الإنسانية سائرة في طريق التقدم. وهذا التقدم لا يكون إلا بأعمال الشخصيات العظيمة".

قلت: "إن الدور الذي تقوم به هذه الشخصيات ليس هو كما تقدر وتظن، فالإنسان لا يمكنه أن يخلق عصور التاريخ الكبرى، وما هو إلا أداة القدر ورسوله".

فانتصب هتلر واقفًا وقال: "أتنكر أني خلقت الوطنية الاشتراكية؟"

فقلت: "لا يسعني أن أقول بغير ذلك. إن الوطنية الاشتراكية فكرة نبتت بسبب العصر الذي نعيش فيه؛ فهي كائنة في قلوب الملايين من الرجال، ولقد تمثلت في شخصك. ووجود هذه الفكرة في نفوس عدد كبير من الناس في وقت واحد يدل على أنها ضرورة تاريخية، كما يدل على أن عهد الرأسمالية قد انقضى".

فاندفع هتلر يهدر بخطبة طويلة حاول فيها أن يوضح لي أن الرأسمالية لم توجد، وأن الاستكفاء الاقتصادي ضرب من الجنون، وأنه ينبغي للعنصر الأوربي الشمالي أن ينظم التجارة على أساس مبادلة السلع، وأن تبعية الأملاك والمنشآت الخاصة للدولة فكرة شاذة إن لم تكن هي البلشفية عينها".

ومع ذلك فإن المادة الثالثة من برنامج هتلر الرسمي تقضى بأن تضع الدولة يدها على الأملاك الخاصة. فقلت:

"لنفرض، يا هر هتلر، أنك توليت الحكم، فماذا تفعل بمصانع (كروب)؟ أتتركها وشأنها أم لا؟

فصاح هتلر: "أتحسبني فقدت عقلي حتى أنزل الخراب بمصانع الوطن الكبرى".

فقلت: "إن كنت تنوي إذن أن تحتفظ بالنظام الرأسمالي، فليس لك أن تتكلم عن الاشتراكية، لأن رجالنا اشتراكيون، وبرنامجك يطالب بأن تضع الدولة يدها على الأملاك والمنشآت الخاصة".

فقال هتلر: "يا لها من كلمة غير لائقة هذه الاشتراكية!"

وهز كتفيه وفكر لحظة ثم استطرد:

"إني لم أقل مطلقًا بوجوب نقل ملكية جميع المنشآت إلى الدولة، ولكني قلت بجواز نقل ملكية المنشآت التي تضر بمصلحة الأمة، فإن لم يتسبب عنها أي ضرر من هذا القبيل، فمن الإجرام القضاء على نظام البلاد الاقتصادي، ولنضرب لك مثلًا بالفاشستية، ففي استطاعة الوطنية الاشتراكية، كما في مقدور الفاشستية أن تضمن مصالح صاحب العمل والعامل في الوقت نفسه، وذلك بأن يكون للحكومة حق الفصل فيما قد يحدث من النزاع بينهما".

فقلت: "ولكن الفاشستية لم تصل إلى حل فيما يختص بمشكلة رأس المال والعمل، بل هي لم تحاول ذلك. وكل ما عملته أنها أوقفت مؤقتًا العراك المحتدم بينهما، أما الرأسمالية فقد بقيت سليمة كما تنوى أنت أن تتركها سليمة غير منقوصة!".

فقال هتلر الذي هيجت إجابتي أعصابه: "ليس هناك، يا هر شتراسر إلا نظام اقتصادي واحد، قوامه المسئولية التي تقع على عاتق المنفذين لهذا النظام والسلطة التي لولاة الأمور المشرفين على تنفيذه. وهاك مثلًا على ذلك: إني أطلب إلى الهر (آمان) أن يكون مسئولًا أمامي عن عماله، وأن يباشر سلطته عليهم. والهر (آمان) يطلب إلى رئيس القسم أن يكون مسئولًا أمامه عن مرءوسيه، وأن يباشر سلطته عليهم وهلم جرا... فهذا هو النظام المتبع منذ آلاف السنين والذي سيدوم إلى ما شاء الله".

فقلت: "نعم.. إن نظام التدرج يبقى دائمًا على حالته سواء كانت الدولة رأسمالية أم اشتراكية. غير أن روح العمل تتوقف على نوع النظام الذي نعيش في ظله. ولقد استطاعت منذ بضع سنين، فئة قليلة من الرجال الذين لا تختلف صفاتهم اختلافًا ملحوظًا عن صفات رجالنا، أن تتسبب في عطل ربع مليون عامل من عمال (الرور). فإذا كان عملهم هذا قد اعتبر عملًا مشروعًا متمشيًا مع مبادئ نظامنا الاقتصادي، فالذنب ليس ذنب هؤلاء الرجال بل ذنب هذا النظام الأثيم".

فقال هتلر، وقد عيل صبره ونظر في ساعته: "ولكن ليس في هذا ما يدعوك إلى المطالبة بإشراك العمال في شؤون المنشآت التي يعملون فيها وإعطائهم حق الشورى بصفة خاصة. وينبغي للحكومة القوية أن تسهر على أن تسير حركة الإنتاج على نمط يكون في مصلحة الأمة. وللحكومة الحق في أن تنزع ملكية المؤسسة وتتولى إدارتها إذا لم تعمل لصالح الوطن".

فقلت: "إن هذا لا يعدل بي عن شيء من رأيي، وبما أنك ستمد يدك في هذه الحالة الأخيرة إلى الثروات الخاصة فلماذا تلجأ إلى السلطات المحلية، وتترك لحكمها مسئولية العمل؟ ولماذا تغامر بتحكيم أناس قد يكونون على غير علم صحيح بالأمر؟ ولأي سبب تريد أن تعهد بذلك إلى رجال مماطلين مريبين بدلًا من أن تجعل حق التدخل مبدأ ثابتًا؟ وهذا الحق من الممكن أن يكون جزءًا أساسيًا في نظامنا الاقتصادي".

فقال هتلر: "هذا موضوع الخلاف بيننا: إشراك العمال في رءوس أموال المنشآت ومنحهم حق الشورى، أمران يعتبران أساسًا للماركسية وإني أرى أن الحق في مباشرة النفوذ أو الإشراف يجب ألا يعطى إلا للدولة التي تتولى أمرها الطبقة العالية!".

هنا بلغت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، ودخل علينا رجلان هما "ستوهر" و"بوخ" أظن أن هتلر كان قد أرسل في طلبهما، فاعتذر هتلر من إيقاف الحديث واقتاد الزائرين إلى غرفته الخاصة، وتبعهم "رودلف هيس". ولقد جرى هذا الحديث بغير عراك عنيف أو صخب شديد، ولكن مغزاه كان رغم ذلك واضحًا حتى توقعت في مساء ذلك اليوم أو اليوم التالي أن ينفذ هتلر ما هددني به، ولكنه لم يفعل شيئًا. وعهد إلى "جوبلز" مرة أخرى أن يجهز على هذا النضال بطريقة الغدر والدس؛ فأقيل من الحزب، منذ شهر يونيه، فريق من أعواني. ولم يستطع هتلر أن يصادر صحفي أو يقدمني إلى المحاكمة لأنه لم يكن قد تولى الحكم حتى ذلك الوقت، ولكني كنت أنتظر أن يصلني منه كتاب بقطع صلتي به أو بشيء من هذا القبيل.

ولما عزل الهر (شابك) من الحزب بسبب كتابته مقالًا شديد اللهجة ضد الأساليب الهتلرية، ناديت بأني معضده، وطلبت من (جوبلز) أن يعقد اجتماعًا من موظفي برلين المنتمين للحزب. ولقد أدهشني أن (جوبلز) أجاب طلبي، ولكني عندما قصدت في مساء 2 يوليه مكان الاجتماع اعترضني أمام الباب أحد رؤساء فصائل الهجوم بصحبته خمسة رجال، وأخبرني بأني لا أستطيع الدخول لأن محل إقامتي لم يكن في دائرة برلين. وكان على حق من الوجهة القانونية لأن هذا النوع من الاجتماعات قاصر على الأعضاء التابعين لدائرة سياسية واحدة. ولكني طلبت بإلحاح أن يسمح لي بالدخول محتجًا بأن الاجتماع قد عقد بناء على طلبي، فلم يُجد إلحاحي، وأصر الرجل على منعي، وأحاطت فصائل الهجوم بمكان الاجتماع من جميع النواحي، ثم افتتحت الجلسة. فصعد (جوبلز) إلى منصة الخطابة وراح يدلي بالأسباب التي اقتضت عزل (شباك)، فطلب المأجور (بوخروكر) وهو أخلص صديق لي، أن يسمح له بالكلام، فقال "جوبلز":

"يؤسفني أني لا أستطيع السماح لك بذلك، لأن الحزب قد أمر بإجراء تحقيق معك".

فقال (بوخروكر) في دهشة وغضب: "تحقيق معي! إني لا أعلم شيئًا من هذا كله".

قال جوبلز: "ستجد هذا المساء في دارك إخطارًا قد أرسل إليك بالبريد".

ولما طلب (هربرت بلانك) الكلام قاطعه مائة وسبعون عضوًا، وتركوا قاعة الاجتماع متظاهرين ضده. وبينما كان يجري هذا كله كنت أنتظر في الطريق انفضاض الاجتماع، فلما خرج أصدقائي لحقوا بي وأطلعوني على ما حدث، فتوجهنا في الحال إلى منزلي (بلانك) و(بوخروكر) فلم يجد الأخطار الذي ادعى (جوبلز) أنه قد أرسل بالبريد. ثم اجتمعت بأخي في تلك الليلة، وقلت له: "بما أن هتلر لم يجرؤ على أن يقاطعني صراحة فقد عزمت على أن أبدأه أنا بالقطيعة. وسأقدم غدًا استقالتي من الحزب".

فقال "جريجور": "حسنا.. أما أنا فإني باق فيه" ثم تبادلنا كلمات الوداع

وفي 3 يوليه أرسلت إلى هتلر هذه البرقية: "لقد عزل جوبلز بعض أعواني من الحزب، ومنع بعضهم في اجتماع أمس من الكلام متعللًا بأسباب واهية. فإن لم يلغ هذا الإجراء في مدى أربع وعشرين ساعة فإني مستقيل أنا وأصدقائي من الحزب". ولكني لم أتلق جوابًا على هذه الرسالة، فلم أعد ابتداءً من 4 يوليه سنة 1930 عضوًا في الحزب الوطني الاشتراكي.

الفصل السابع

الخيانة في الحكم

هكذا أصـبحت في يوم 4 يوليه حرًا طليقًا، وأصـدرت صـحفي كالمعتاد، وفي صـفحتها الأولى هذا العنوان الضـخم "الاشـتراكيون يخرجون من حزب العمال الوطني الاشـتراكي"، ونشـرت حديثي الأخير مع هتلر تحت هذا العنوان الرنان: "الوزارة أو الثورة؟".

فرددت الصحف الألمانية جميعها – ما عدا صحف هتلر – صدى هذا المقال، وبذلك تمت القطيعة بيني وبين هتلر، وأصبح لزامًا علي أن أحصي عدد أنصاري وأعد العدة للهجوم على أعدائي. فأصـدرنا إلى الشـعب نداءً، وأعلنت صـحفي على أثر ذلك نبأ تأليف "هيئة النضال لقضية الوطنيين الاشتراكيين الثائرين".

ورد "هتلر" و"جوبلز" علينا بدعاية صاخبة طنانة، وأعلن رؤساء فصائل الهجوم والحرس الأسود أن أي عضو من أعضاء الحزب الوطني الاشـتراكي يتصل بي أو يقرأ صـحيفة من صـحفي يعاقب بالفصـل من الحرب في الحال، وأمطرتني صـحيفة هتلر (فولكشر بؤباختر) وجريدة جوبلز (أنجريف) وابلا من المثالب والشـتائم، وتناول هتلر قلمه ونادى بأني أديب خامل الذكر وشـيوعي من بلاشـفة الندوات (الصـالونات) وأقسم جوبلز بأني أعمل لحساب روسيا البلشفية.

وأذكر عندما اعتزلت الخدمة في الجيش أني طلبت إلى قائدي الهر (هوســـهوفر) وهو اليوم أســتاذ عظيم في الجغرافية الســياســية، أن يعطيني شــهادة عســكرية. وقد حرصت على الحصول على هذه الشهادة؛ لأني لم أستطع بسبب ثورة سنة 1918 أن أتسلم وسام ماكس جوزيف ووسام الجدارة اللذين رشحت لهما، ولقد ذكرت في هذه الشهادة جميع أوسمة الشرف التي حصلت عليها، وهي: وسام الجدارة البافاري؛ والصـــليب الحديدي من المرتبة الأولى والثانية، وشـــارة جرحى الحرب العظمى كما ســـجلت فيها أعمالي الحربية جميعها، وختمت الشـــهادة بهذه الفقرة التي أعرب فيها القائد عن تقديره الشخصي لي:

"شتراسر رجل يدافع عما يعتقده حقًا وعدلًا بحماس فذ وشجاعة لا تنثني".

واســـتمرت هذه المعركة الأولى زمنًا دون أن تكشـــف لي جانبًا من طريقي إلى المستقبل، غير أن الموقف بدأ يتضح في 10 يوليه؛ فبينما كنت أسير مساء ذلك اليوم بعد انفضاض الاجتماع الأول للجبهة السوداء بصحبة صديقي "بريم" أحد مقعدي الحرب العظمى، في إحدى طرق براندبورج على مقربة من برلين؛ قاصـــدين إلى محطة الســـكة الحديدية، إذ دهمنا نفر من الرجال يرتدون ملابس الأشـــقياء وقذفوا وجهي بقبضة من الفلفل أصابت إحدى عيني، فقفزت في الحال إلى عرض الطريق ولجأت إلى الإفريز الثاني، وشـــهدت بعيني الســـليمة صـــديقي منطرحًا وســـط الطريق بينما يهم المعتدون بالزحف عليه. فصوبت مســـدســـي نحوهم وصحت بهم: "من يخطو خطوة واحدة يلقى حتفه".

وتقدمت نحو صـــديقي الجريح وأخذت بيده وعدت به إلى الإفريز فلم يجرءوا على الإتيان بأية حركة أمام مسدسي لأنهم كانوا مسلحين بالعصى والسكاكين فقط. وكان الدم يتدفق من جرح (بريم) وهو يعاني مشقة في السير بسبب ساقه الخشبية.

وســرنا بجانب الرصــيف متجهين نحو المحطة، وجعلت أكرر إنذاري لهم بصــوت صاخب. وكانت المعارك الحزبية في الطرق أمرًا مألوفًا في ذلك العهد، فلم يرغب أحد من المارة أن يزج بنفسه في هذا الشغب.

وكان (بريم) موظفًا كبيرًا في تلك الدائرة السياسية؛ فهمس في أذني قائلًا:

"إني أعرفهم جميعًا.. إنهم من فصائل الحرس الأسود".

فقلت: "لقد خيّل إليّ ذلك"

واســتطعنا أن نبلغ المحطة حيث ضــمد جرح صــديقي، وفي اليوم التالي شــكونا الأمر إلى الســلطة المختصــة، فقدم المتهمون إلى القضــاء وحكم عليهم بالســجن لمدة عامين.

ولم يكتف هتلر بالحملة المهينة التي شـــنتها علي صـــحفه وأبواق دعاوته، فعزم على أن ينزل بمنشــآتي الخراب العاجل، وكان هذا ميســورًا له، فأمر بمصــادرة ما كان لأخي، و(هنكل) من الأسـهم في شـركة (دار النشـر)، وأخطرني محامي هتلر بأن الدار قد أغلقت وحجز ما فيها من آلات الطبع، فتعطل العمل، وألفيت نفســي بغير مورد إزاء المهمة الكبرى التي ألقيت على عاتقي.

ولقد أثارت استقالتي ضجة كبيرة بين أعضاء الحزب، ولكنها لم تأت بنتيجة ما، إذ كان "جريجور" قد استقر رأيه على أن يبقى في الحزب، ورأى معظم أنصاري أنه في وسعهم أن يقفوا بجانب أخي دون أن يخونوا بعملهم هذا عهد الإخلاص لقضيتنا.

وكان هتلر يتقدم بخطوات واسعة، وكانت لديه الأموال اللازمة للإنفاق على الحركة. ولم يكن لجنود الحرس الأسود الذين أحكم تدريبهم وتنظيمهم عقيدة سياسية ولكنهم كانوا مطيعين لرؤسائهم طاعة عمياء.

أما الرجال الذين تبعوني وانشقوا على حزب العمال الوطني الاشتراكي فقد كانوا من أصحاب المثل العليا. ولقد انضم إلي رجال جدد من هيئات اليمين ذات الصبغة العسكرية، فكان من بينهم أصحاب الخوذات الصليبية، ورجال من فصيلتي "وهرولف" و"جونج دوتش أوردن".

ولم تكن هذه الهيئات تتألف من المحاربين القدماء، بل من شبان جدد نضجت عقولهم وراحوا يبحثون عن مثل أعلى في الميدان السياسي. ولم يكن هتلر قد استطاع أن يجذبهم إليه على الرغم من تبرمهم بجمهورية (فيمار)، ولقد بعث فيهم خروجي على هتلر آلامًا كبيرة.

وكانت في ألمانيا حركة أخرى يقال لها "حركة الفلاحين الثائرين" يرأســها الهر "كلوس هن" الذي اتخذ "شلسفنج هولسستن" مقرًا له، ولقد عرف هؤلاء الفلاحون بشدة البأس والمهارة في الضرب بالقنابل وكان صديقي الهر "شابك" يتولى قيادتهم في "سيلزيا". كذلك كان لدي نواة طيبة من الأنصار المخلصين يحق لي أن أعتمد عليهم، ولكني ما قصدت مطلقًا أن أشيع الذعر في البلاد أو أن استخدم الأساليب التي أنكرتها من الوطنيين الاشتراكيين. نعم كان علي أن أكون مستعدًا للرد على جرائمهم، ولكني رغبت قبل كل شــيء في تقويم ما اعوج من خلق الاشــتراكيين وتعريف الناس بمبادئي وأفكاري.

وكانت هناك هيئة أخرى تتألف من الرجال المثقفين يقال لها (تاتكرس) أي جماعة العمل، وقد سعت هذه الجماعة للاتصال بي، وكان لها مجلة شهرية تسمى (دى تات) راجت ســوقها حتى في الأوســاط العســكرية. وكان الدكتور (زهرر) على رأس الجماعة، والهر (فرناند فرود) وكيلًا للرئيس، ويُعد هذا الأخير من عظماء الرجال والســاعد الأيمن للوزير (دارا) في الوقت الحالي. ولقد أصــدر (فرود) منذ عهد قريب كتابًا عظيم القدر، أسماه: "احتضار الرأسمالية".

ثم تألفت من هذه الهيئات المختلفة "الجبهة السوداء" التي كان هتلر وشركاؤه يخشونها حتى ذلك اليوم الذي هاجر فيه رئيسها من ألمانيا مفضلًا أن يعيش في المنفى. ولقد لقينا متاعب كثيرة في تنظيم هذه الجمعية السرية، إذ لم يكن لدينا مال، كما لم يكن لنا أن نعتمد على أية معونة مادية من جانب أنصارنا، لأن كلا منهم ظل تابعًا لهيئته الخاصة لا تربطه بنا إلا الفكرة المشتركة؛ فكانت جماعتنا لونًا من ألوان الماسونية لها فروع تمتد إلى جميع الطبقات وطوائف الشعب الألماني، وكان لها هيئة مركزية تحت رئاستي تتألف من رجال موثوق بهم وأصدقاء خرجوا على حزب العمال الوطني الاشتراكي ينتمون رسميًا إلى "الجبهة السوداء". أما بقية الأنصار فكانوا منتشرين في جميع أنحاء البلاد بغير أن يلتحقوا رسميًا بأية هيئة من الهيئات.

وكانت "الجبهة السوداء" مدرسة تخرج فيها ضباط الثورة الألمانية، وكان الأعضاء الرسميون يحملون شارة الجبهة، وهي دبوس لرباط الرقبة يتألف من قطعتين هما: السيف، والمطرقة.. ولقد استبدلنا "هايل هتلر" أي "يحيا هتلر" بكلمة "هايل دوتشلاند" أي تحيا ألمانيا، ولم تف مجلة (دى تات) الشهرية بحاجاتنا المتعددة فأنشأنا جريدة أسبوعية أصدرنا منها العدد الأول بغير أن يكون لدينا مال لإخراج العدد الثاني.

ولقد نجحت هذه المغامرة نجاحًا عظيمًا، ولم نضطر إلى الاستدانة واستطعنا في فترة وجيزة أن نطبع عددًا هائلًا من جريدتنا التي أسميناها في بداية الأمر (الثورة الألمانية) ثم (الجبهة السوداء)، ولقد بسطنا فيها المبادئ اللازمة لتجديد ألمانيا، وأطلعنا قراءنا على شئون حزب هتلر الخفية.

وفي عامي **1931** و**1932** أنشأنا ثلاث صحف أسبوعية في: برلين، وبرسلو، وميونيخ. وكانت (الجبهة السوداء) تعقد اجتماعاتها السرية في دار مجلة العمل، وكانت جماعة المثقفين آخذة في نماء مطرد. وحرص رؤساء الأقاليم على أن يختاروا أنصارهم بعناية ودقة، وأصبح معظم ضباط الجيش يقرأون (مجلة العمل) التي راجت سوقها رواجًا عظيمًا. وكان يحضر (الحلقة) – وهو الاسم الذي أطلقناه على جلسات الجبهة السرية – أنصارنا من الضباط والعمال والشبيبة المثقفة المتحمسة. وكان الالتحاق بالجبهة السوداء على درجات مختلفة كما هي الحال في الجمعيات الماسونية، وكانت (حلقات) الجبهة تعقد في جميع المدن الكبرى والمراكز الصناعية.

وانطلق هتلر بعد أن تخلص من رجال الثورة الصادقين، يتقدم بخطوات واسعة نحو العناصر الرجعية للنظام القديم، ولم يعد هناك ما يمنعه من التحالف الوثيق مع أصحاب الأموال الطائلة والمصانع الكبرى، وكان يأمل من تحالفه مع هذه الشخصيات الغنية ذات الجاه العريض والنفوذ الكبير أن يضم إليه مناطق ألمانيا الشمالية وأن يكون له حق الخطابة في الاجتماعات العامة في برلين، وأن يتمكن من إبعاد "جريجور" وعزله من الحزب.

كما أنه قصــــد بهذا التحالف أن يعزز فصـــائل الهجوم التي كان يعتمد على أعمالها العنيفة الوحشية جانب من سلطانه ونفوذه، وكان الهر "تيسن" أول من تحالف معه هتلر من أصحاب الثروات الكبيرة، ولكنه كان يسعى جاهدًا في الحصول خاصة على معونة رجلين هما "هوجانبرج" و"شاخت".

و"هوجانبرج" هذا شـخصـية عجيبة من شـخصـيات الأسـر البروسـية العتيقة، ضخم الجثة، ذكي، غليظ القلب، على شيء من الشرف والأمانة. كان رئيسًا لحزب المطالبين بدولة واحدة للعنصــر الألماني، وهو حزب يتلقى معونة أصــحاب المصــانع الكبرى وعطفهم، مركزه الرئيسـي في بروسـيا، وثمة فرق ملموس بين رجال هذا الحزب وكبراء ألمانيا لا يدركه كثير من الناس في البلاد الأجنبية؛ فالأولون يريدون أن تبســـط ألمانيا سـيادتها على العالم، والأخيرون يطالبون باتحاد الولايات الألمانية ولو على نسـق الاتحاد السويسري، ولكن دون أن تكون لألمانيا نيات ترمي إلى الفتح وبسط سيادتها على الشعوب الأخرى.

وكان (هوجانبرج) أول من أدرك أثر الدعاية وأهميتها الحيوية في ألمانيا؛ فقد أشـرف خلال حرب عام **1914** على أعظم أداة للدعاية في العالم؛ فكانت في حوزته مؤسسة (كونزرن شيرل) التابعة لها معظم صحف اليمين، ووكالة الأنباء البرقية الرسمية، ووكالة (أوفا).

فإذا نجح هتلر في أن يضم إليه (هوجانبرج) أمكنه أن يعزز الدعاية الهتلرية تعزيزًا عظيمًا، وكان "هوجانبرج" يسعى في الوقت نفسه للاتصال بالشعب الألماني لكي يتيسر له أن يوسع نطاق نشاطه. وكان المستشار (بانج) موضع ثقته، وأحد كبار الصناع الذين أرسلوا الإنذار السابق الذكر إلى هتلر. وكان (بانج) على اتصال بالفوهرر، ومن رأيه أن في اتحاد الرجلين قوة، فوصل ما بينهما.

وحدث مثل هذا المسعى للتعاون مع الدكتور (شاخت)، إذ اجتمع هتلر به بعد أن اعتزل شاخت الحزب الديمقراطي بزمن قليل بسبب رفضه الموافقة على تجريد الأمراء من أملاكهم. ولقد كتبت زوجة جورنج الأولى في مذكراتها عن هذا الحادث ما يأتي:

"كنت انتظر أنا وزوجي قدوم شاخت وأدولف هتلر إلى دارنا اليوم لزيارتنا".

ثم علمت فيما بعد أن شاخت اشترط لتعاونه مع هتلر إبعادي أنا وأخي..

وكان شاخت قد استقال من رئاسة (بنك الرايش) بسبب رفضه اتفاقية ميونيخ وكانت تأكله نار الطمع والطموح. وكان يتوق إلى أن يتولى مستشارية الرايش أو على الأقل وزارة الاقتصاد في وزارة من أحزاب اليمين، ويعتبر (شاخت) و(فون بابن) من أبغض الوصوليين السياسيين في ألمانيا.

وهكذا تم الاتفاق بين هتلر وهوجانبرج وشاخت سريعًا، وظهرت ثمرته بعد فترة وجيزة، فحصل الحزب الوطني الاشتراكي في بضعة شهور على آلاف من الأنصار الجدد بعد أن مني بخسارة كبيرة في الانتخابات السابقة، وأخذت دعاوته في التحسن المطرد كلما مالت مبادؤه نحو الاعتدال.

وتجرأ المترددون على أن يؤيدوا حركة هتلر التي أصبح يعضدها شاخت وهوجانبرج، واستيقظ الفاترون من سباتهم على أصوات الدعاوة الماهرة، وأصبحوا يهتمون بتأدية واجبهم السياسي بعد أن كانوا يتجنبون مراكز الانتخاب؛ فكانت انتخابات سبتمبر سنة 1930 أشبه بتعبئة عامة لجميع طبقات الشعب، وفاز حزب هتلر بمائة مقعد وسبعة مقاعد في البرلمان بدلًا من أربعة عشر مقعدًا كانت له قبل ذلك.

وبينما كان هتلر يحسب أنه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من منصة الحكم، إذ اندلعت نيران الثورة بين فصائل الهجوم؛ ذلك أن (الجبهة السوداء) قد عنيت بإطلاع الناس على مساومات رئيس حزب العمال الوطني الاشتراكي وأعماله البغيضة.

وكشفت الستار عن حبه للمال حبًا جمًا فأثمرت حملتها، وتذمر جنود فصائل الهجوم في برلين من الأنباء المذاعة عن الحزب، وقرر الكابتن (ستنس) أن يشق عصا الطاعة على هتلر.

في يوم الجمعة اليتيمة من عام 1931 زحفت فصائل الهجوم البرلينية بقيادة الكابتن (ستنس) واحتلت الدار التي اتخذها جوبلز مقرًا له، وصادرت مطبعة صحيفته (النجريف) ففر جوبلز من داره، وأرسل في طلب النجدة من وكيل شرطة برلين، وكان هذا يهوديًا يقال له (وس) رماه جوبلز بكتيب تهكمي عنيف يسمى (ازيدور)، ولم يحرك (وس) ساكنا لنجدة الدكتور جوبلز فقصد هذا الأخير إلى ميونيخ حيث اكتفى بأن يرسل أوامره بالتليفون إلى أعوانه في برلين.

ثم أطلعني الكابتن (ستنس) على سير الحوادث، وأرسل إلي يقول:

"لقد فر جوبلز، ولكن رجال الشرطة يتأهبون لمقاتلتنا"

فتوجهت لمقابلته، فأخبرني أنه كان على اتفاق مع جوبلز للقيام بهذه الحركة، وأن جوبلز قد خانهم في اللحظة الأخيرة فأخطر الشـــرطة وفر إلى ميونيخ ليكون في حماية هتلر.

فقلت: "العصـــيان الذي لا ينقلب إلى ثورة هو عصـــيان مقضـــي عليه بالخيبة والفشل، فيجب أن تثبتوا".

وعلى ذلك ظلت فصائل الهجوم ثلاثة أيام مستولية على دار جريدة (أنجريف)، وأصدرت الجريدة تحت إشرافها. ونادت بأن هتلر وجوبلز قد عزلا من الحزب، ثم قرر رؤساء دوائر المناطق الشمالية أن يثوروا مع الكابتن (ستنس). ورددت الصحف خيانة جوبلز الثانية في عبارات بارزة ضـــخمة. وعلى الرغم من ذلك بقيت دائرة (كولون) التي كان الهر (ليه) يتولى أمرها تابعة وحدها من بين الدوائر الشمالية لأدولف هتلر.

هذا بينما كانت الاجتماعات الســـرية تتوالى بغير انقطاع في ميونيخ، ولم يكن الأمر يتعلق هذه المرة بمعارضـة سياسـية بل بعصـيان من جانب رجال مسـلحين كان هتلر يعتقد أنه يستطيع الاعتماد عليهم، فصدر أمر بعزل كبار موظفي فصائل الهجوم الشـمالية في الحال. ولكن لابد من العثور على رجل شـديد البأس ذي قبضـة حديدية يسـتطيع هتلر بمعونته أن يخضـع رجال الكابتن (سـتنس)، وذلك بعد أن برهن (فون سالومون) على أنه غير كفء لذلك، ولم يكن هناك إلا رجل واحد في مقدوره أن ينقذ هتلر، ألا وهو الكابتن (ريم)، صـــديقه القديم الذي عاد منذ قريب من بوليفيا، فلم يتردد هتلر في اسـتدعائه، وكان (ريم) مقيمًا على إخلاصـه لهتلر على الرغم مما حدث بينهما قبل دعوته.

وعزم "ريم" على أن يقابل العنف بالعنف، فاختار الملازم "شـولتز" لقمع الثورة، و"شولتز" هذا رجل ذو تاريخ عجيب، وواحد من سفاحي "سانت فهم" ترتجف ألمانيا لذكر اسمه، فكان بغير شـــك خير من اختير لهذه المهمة، واســـتطاع أن يقمع الثورة بمعونة رجال الشـرطة وفصـائل القمصـان السـمراء في يوم الاثنين من عيد الفصـح. وبعث إليه "ريم بهذا الأمر: "لا نريد شـــهداء ولا متذمرين بين صـــفوفنا فاجتنب الانتقام، وعد من يستسلمون لك برفع أجورهم".

وفي تلك الأثناء توجه هتلر إلى العاصـــمة، فهل كان ينوي أن ينتقل من مقهى إلى آخر، كما فعل في سبتمبر الماضي، ليرجو رجال القمصان السمراء أن يمتنعوا عن إتيان أي عمل يسيء إلى حزبه؟

كلا.. فقد أصبحت الحال غير الحال، وبات للحزب مائة مقعد وسبعة مقاعد في البرلمان، وقضـــي على الثورة في مهدها، ففي وســـع هتلر والحالة هذه أن يكتفي بإصدار بيان رنان.

وهكذا قضـــي على ثورة الكابتن (ســـتنس) قبل أن تأتي بأية ثمرة من الثمرات، فانضـم آلاف من الرجال الصادقين إلى (الجبهة السوداء). ولم يقنع (ريم) بنجاحه في إنقاذ هتلر، فتقدم خطوة أخرى في إظهار إخلاصـــه للزعيم، وأصـــدر بوصـــفه قائدًا لفصـــائل الهجوم أمرًا يقضـــي بأن يلقب هتلر بكلمة (فهرر) وأن يخاطب بالضـــمير الثالث إمعانًا في الاحترام والتبجيل.

وبذلك أصـــبح هتلر (فهرر) الشـــعب الألماني بعد أن كان "قارع طبل الثورة"، وكان من المنتظر أن يتأثر هتلر بما أظهره (ريم) من ضـــروب الإخلاص والوفاء نحو الزعيم، ولكن التجارب الأخيرة جعلته على حذر من الناس والأشياء. ولئن كان (فون سالومون) كشف عن عجزه، و(وستن) نكث عهده، فإن (ريم) الذي سبق أن وقعت بينه وبين هتلر مصـــادمات عنيفة، قد يقلب له في أحد الأيام ظهر المجن، وعلى ذلك كان هتلر بحاجة إلى كتيبة قوية من الجنود المخلصـــين ليكون في مأمن من هذا الخطر؛ فعمل على تعزيز فصيلة الحرس الأسود الصغيرة؛ وبذلك صعد قائدها (هملر) في سلم الترقية بخطوات سريعة

ومن ذلك العهد نشبت حرب خفية بين رئيس فرق الهجوم وهملر قائد فصيلة الحرس الأسود، أما هتلر فقد كان يشهد هذا التنافس بعين الرضي والارتياح فلو أن (ميكيافيلي) كان حيًا لصفق لتلميذه ولعمري ما استطاع إنسان أن يطبق مبدأ (فرق تسد) أفضل مما طبقه هتلر.

وظل رجال هتلر بطبيعة الحال يعملون على إحباط أعمالنا وعرقلة نشاطنا حتى عجزت الشرطة عن حمايتنا من اعتداء الهتلريين علينا، وكثيرًا ما كان رجال هملر يدخلون خلسة في اجتماعاتنا، وينقضون على الخطيب فيحدثون شغبًا ويضطر المجتمعون إلى الانصراف.

ولقد حدث أن اعتدى على أحد هؤلاء الأشقياء بعصا غليظة فأصابني بجرح قرب عيني؛ ونجوت من الموت على يد بعض الرجال الشجعان من جمعية (ستاهلهلم)، وقد اعترف أحد المتهمين أمام المحكمة بأنه كان مكلف بقتلي ولكنه لم يستطع قطع التيار الكهربائي لإطفاء النور في قاعة الاجتماع فاضطر إلى العدول عن اقتراف الجريمة.

ولقد كان العراك في (إنزهو) أشد وأعنف، إذ كان بها الدكتور (جرانتز) الذي أطلق عليه حزب هتلر "بطل فواهردن" لأنه قاد الهتلريين في معركة انتصروا فيها على الشيوعيين؛ وقتل خلالها فريق من رجاله. وكان (جرانتز) هذا شابًا نابهًا شجاعًا وعلى خلق عظيم. ولقد شهد هتلر جنازة الضحايا، وعانق "جرانتز" أمام قبرهم وقاله وهو يبكي: "لن أنسى طول حياتي هذه اللحظة يا عزيزي جرانتز".

وبعد ذلك بعامين علم هتلر بأن صديقي الهر "بوخروكر" الذي أنشأ معي (الجبهة السوداء) قد اجتمع بالدكتور "جرانتز" في داره؛ فأمر "الفوهرر" باغتيالهما، فصدح السفاح "هملر" بالأمر فورًا ولكنه لم يستطع قتلهما ونجا "جرانتز" و"بوخروكر" من الموت بعد أن جرح الأول وجدع أنف الثاني، وليت "جرانتز" لقي حتفه في تلك المعركة، لأنه لا يزال مسجونًا منذ سنة **1933** دون أن يفكر أحد في تقديمه للمحاكمة أو حتى في استجوابه.

ولقد تكررت أمثال هذه الحوادث في هامبورج، وفرانكفورت، وشتوتجارت؛ وأعطى هملر رجاله مطلق الحرية في أن يقتلوا أصدقائي وأنصاري، ولكنه أوصاهم بأن يعتقلوني ويحضروني إليه حيًا، على أن اعتقالي لم يكن ميسورًا لهم، وما زلت أذكر تلك المطاردة المفزعة التي لقيتها منهم في مدينة (روستوك) الصغيرة؛ فبينما كنت عائدًا من أحد الاجتماعات، إذ بي محصور فجأة بشرذمة من رجال هتلر، فأخرجت مسدسي، واتفق أن مرت بي سيارة، فألقيت بنفسي فيها، وانطلقت بي على غير قصد. فاستقلوا هم سيارات أخرى، وراحوا يطاردونني، فكانت مطاردة مفزعة، وكانوا اثني عشر رجلًا، وكلما حاولت الوقوف أمام مطعم أو حانوت أو مقهى لألجأ إليه وجدتهم قاب قوسين مني، واضطررت إلى أن أصيح بالسائق أن يستمر مسرعًا، فأطلقوا علينا النار، فتهشم زجاج السيارة، فأوقفها السائق بغتة وألقى بنفسه إلى الطريق وفر هاربًا. وكنت متقدمًا على أعدائي بدقيقتين، فتلفت حولي فوجدت دارًا فطرقتها. ولحسن حظي لم يكن حارس الباب قد آوى إلى مخدعه بعد، ففتح الباب، وقال متعجبًا "إلى أين تذهب؟. فأزحته من طريقي، وأغلقت الباب بالمفتاح وطويت السلم حتى وقفت أمام منزل بالطابق الثاني، وطرقت الباب، فطلعت على سيدة، فأنبأتها بأمري فسمحت لي بالدخول في بيتها، وأخطرت الشرطة بالتليفون.

وبينما كنا ننتظر قدوم الشرطة، إذ فتح باب الغرفة المجاورة لغرفتنا وطلعت علينا فتاة في السابعة عشر، وحيتنا قائلة: "هايل هتلر" أي: "يحيا هتلر"!

فسألت أمها: "هل ابنتك هتلرية؟"

فقالت: "نعم".

فوجدت نفسي في مأزق حرج، فوقفت وقفة عسكرية وعرفتها بنفسي على طريقة الضباط قائلًا: "أوتو شتراسر" رئيس الجبهة السوداء".. فصرخت صرخة، وامتقع لونها، فقلت:

"ينتظرني رجال هتلر أمام دارك ولم يصل الشرطيون بعد".

فاقتربت الفتاة من النافذة ففتحتها، وأطلت على الطريق ثم التفتت إلي وقالت بصوت رهيب: "إنهم هناك". فيا لها من فتاة طيبة ساذجة! لقد قصصت عليها كيف طاردوني في طرقات المدينة، فأصغت إلي وظهرت على وجهها علامات الجد والألم، ثم سمعنا سيارة تقف بالدار، وأصواتًا تصيح: "ها هم، امسكوهم، امسكوهم".

فقالت الفتاة: "وصلت الشرطة، فأنت الآن في أمان، وأتمنى أن يعتقلوهم جميعا".

ولقد مكثت زمنًا طويلًا أتلقى كتبا من هذه الصديقة الجميلة التي كرهت هتلر منذ ذلك اليوم.

ولقد حمل رجال هتلر علينا مائة مرة في اجتماعاتنا العامة فردت هجماتهم جميعا ولم يستطيعوا أن يحبطوا أعمالنا بأي حال بل أكسبوها بتصرفاتهم العدائية الشهرة والرواج.

وبدأت الجبهة السوداء منذ نهاية عام 1932 تسير في طريق النجاح والتقدم، وكنا نعقد اجتماعات مهمة يتبارى فيها الخطباء السياسيون، وكان لكل خطيب عشر دقائق يبسط فيها رأيه ثم يترك الكلام لمعارضه الذي له مثل هذه المدة على أن يعود إلى خطبته بعد ذلك، وبهذه الطريقة يستطيع كل منهما أن يدافع عن رأيه في الحال، ولكنه ممنوع منعًا باتًا من أن يحمل على عدوه في غيبته ويعاقب بالعزل إذا عمد إلى التشهير والسب. ولقد دعوت هتلر وجوبلز بواسطة صحفي والإعلانات الملصقة على الحوائط أن يشتركا معنا في النقاش ويدفعا عن نفسيهما التهمة أمامنا، فلم يقبلا دعوتي إطلاقًا.

وفي أواخر عام 1931 تألفت في (هارزبورج) جبهة الوطنين الاشتراكيين من حزب المطالبين بدولة واحدة للعنصر الألماني، ومن ذوي الخوذات الحديدية، وفصائل الهجوم وكتائب (لاند باند)، تحت قيادة هوجانبرج وهتلر وشاخت. ولقد اتفقت آراؤهم على مسألة واحدة وهي إسقاط المستشار (برونج) وحمل الرئيس (هندنبورج) على تأليف وزارة وطنية من أحزاب اليمين، ولكن أملهم لم يتحقق، وفاز (برونج) في انتخاب 1932 لمجلس النواب بأغلبية ضعيفة.

وكان الاشـتراكيون الديمقراطيون لا يحبون (برونـنج) بسـبب ضـغطه الميزانية وتخفيض الأجور ومستوى المعيشة ولكن لم يكن لديهم رجل يطمئنون إلى ترشيحه ضد هتلر. ومع ذلك بقيت مسـألة خطيرة وهي انتخاب رئيس جديد للجمهورية، وكانت جبهة الوطنيين الاشـتراكيين قد قويت حتى أصـبح من المسـتحيل فوز المارشـال هندنبورج في الانتخاب بغير معونتها. وكان (برونـنج) يسـعى سـعيًا حثيثًا لنجاح المارشال، فأخبره هتلر أن رجاله يناصرون الرئيس (هندنبورج) على شرط أن يقبل هذا الأخير تأليف وزارة من أحزاب اليمين وأن يعينه (أي هتلر) مستشـارًا للرايش. ولكن هندنبورج لم يقبل هذه التسـوية. عندئذ حدث انقلاب عجيب لم يحدث مثيل له في تاريخ ألمانيا، وهو أن المارشـال هندنبورج، البروسـي العسـكري، صـار مرشـح الديمقراطيين الألمان، بينما أيدت عناصر بروسيا الرجعية أدولف هتلر الثوري ومرشح جبهة الوطنيين الاشتراكيين.

وجرى الانتخاب؛ فرجحت كفة هندنبورج منذ بداية الدورة الأولى، ولكن الاشـتراكيين دخلوا فجأة المعركة مؤيدين الهر (تالمان) المشـهور، فكان لابد من إجراء دورة ثانية؛ فتقدم هتلر مرة أخرى ومعه أصـوات الجبهة كلها. وعلى الرغم من ذلك فاز المارشـال هندنبورج برياسـة الجمهورية وظهر (برونـنج) مرة أخرى على أدولف هتلر. ولولا (برونـنج) هذا وما بذله من جهود جبارة لما انتصر الرئيس هندنبورج.

وكان هتلر مجتمعًا بأنصاره في (كونورج) من أعمال بافاريا حينما بلغه نبأ انتصار المارشـال هندنبورج، فأجهش بالبكاء كعادته كلما مني بفشـل ما، ثم توالت الحوادث في ألمانيا سـراعا حيث تتفق الأحزاب وتختلف بين عيشـة وضـحاها؛ فحصـل هتلر في انتخابات المجالس المحلية على فوز إثر فوز، وأبلغ أعيان بروسـيا الرئيس "هندنبورج" بأن مستشار الرايش يقود ألمانيا إلى البلشفية، وعاد "هوجانبرج" و"شاخت" من جهة أخرى لا يرغبان في أن يتولى هتلر الحكم، إذ أخذ الفوهرر منذ انتصاراته الأخيرة يبتعد عنهما ورجع فترة من الزمن إلى أفكاره الثورية القديمة.

ثم أنكر الرئيس "هندنبورج" أعمال المسـتشـار "برونج"، فاسـتقال هذا من الحكم وخلفه (فون بابن) الذي رشحه "هوجانبرج"، ووعد "هتلر" بتأييده.

ولقد كان "فراتز فون بابن" قائدًا لإحدى فصائل الفرسان في الجيش الاحتياطي فموظفًا بإحدى السـفارات الألمانية، كما كان صـاحب جريدة "جرمانيا" الكاثوليكية، وهو إلى ذلك سياسي ماهر ومبتكر عجيب ودساس مارق ودبلوماسي عرف بمعالجة المشـاكل المعقدة والحالات المسـتعصـية، ولقد حسـب "فون بابن" أن في وسـعه أن ينصـب نفسـه ديكتاتورًا، وقال "هوجانبرج" في ليلة 30 يوليه عام 1932 "لقد غلب هتلر على أمره مرة أخرى". وفي تلك الليلة نفسـها خيل لفصـائل الهجوم أن سـاعة العمل قد أزفت فانطلقوا يقترفون جرائم وحشـية في (كونجسـبرج) وجاءت الأنباء بأن اغتيالات أخرى قد ارتكبت في "سيلزيا"، وفي (بوتامبا) قتل أشقياء من فصائل الهجوم أحد العمال على مرآى من أمه وداسـوه بالأقدام فاعتقل القاتلون وحكم عليهم بالإعدام، ولكن هتلر دافع عنهم علانية وأرسـل إليهم في سـجنهم برقية أعرب فيها عن عطفه عليهم.

وهنا استقر رأي الجنرال (فون شليشر)، وزير الحربية في وزارة "فون بابن" على أن ساعة العمل قد دقت، وكان (فون شليشر) رجلًا طموحًا ذا نفوذ قوي يقيم الوزارات ويسقطها، فهو الذي استقبل (ريم) قائد فصائل الهجوم واتفق معه على إسقاط (برونج) بشرط ألا يطالب هتلر بمنصب المستشارية، وهو الذي وضع (فون بابن) على رأس الحكومة، ووافق هتلر على هذا الإجراء، فأرسل إلى النازي ينذرهم بأن الجيش سيطلق عليهم النار إذا هم عادوا إلى إثارة القلاقل واقتراف الجرائم. وأعلن (فون بابن) الأحكام العرفية. فهل سنشهد فتنة أخرى؟ وهل يجرؤ الجيش على أن يطلق النار على فصائل الهجوم وثلاثة عشر مليون ألماني يقفون بجانب هتلر؟

كلا، فإن هتلر قد قرر شيئًا آخر، ذلك أنه اشترط لمضيه في تأييد وزارة (فون بابن) أن تمنح فصائل الهجوم حرية العمل مدى ثلاث ليال، ومعنى هذا أن يسمح لهم باقتراف ما يشتهون من جرائم مدى ثلاث ليال طوال، غير أن (فون بابن) لم يشأ أن يأخذ على نفسه مسئولية قبول هذا الطلب. فالتمس "هتلر" و"ريم" و"فريك" في اليوم التالي مقابلة الرئيس "هندنبورج"، ولما دخلوا عليه وجدوه متكأ على عكازته، فرمقهم مقطب الجبين يتقدمون نحوه. وكان يمقت (ريم) لشذوذ في خلقه، ويرى في هتلر (أونباشي بوهيميا) – إذ لم يشأ أن يعد هتلر نمساويًا – أما فريك فلم يكن له أي اعتبار عنده.

ثم خاطب هتلر بصوت خشن:

(إنك تطلب الحكم، فليس عندي ما أقدمه لك سوى وزارة البريد).

فأراد هتلر أن يتكلم فقاطعه المارشال قائلًا:

(لقد وعدت بتأييد وزارة "فون بابن" ونكثت عهدك).

ولم تدم المقابلة إلا عشر دقائق، انصرفوا على أثرها مطأطئ الرؤوس يشيعهم الرئيس وهو يقول:

(إياكم أن تعودوا إلى العنف والقسوة).

هكذا خرج هتلر من عند الرئيس مخذولًا، ولكن شهرته كانت آخذة في الصعود المطرد، فعزم على محاربة (فون بابن) بالطرق البرلمانية القديمة، وبذلك استطعنا أن نشهد الوطنيين الاشتراكيين في مجلس النواب يدافعون عن جمهورية فيمار، وجورنج يناصر الديمقراطية، والشيوعيين يقفون بجانب الوطنيين الاشتراكيين، فعاد الناس لا يفهمون شيئًا من كل هذا، ثم اضطر (فون بابن) إلى اعتزال الحكم وخلفه الجنرال (فون شليشر).

وكانت مشـــاريع (شـــليشـــر) ترمي إلى إبعاد (هتلر) عن الحكم مع الاحتفاظ بالمبادئ الطيبة النافعة من الوطنية الاشـــتراكية، ثم تأليف حكومة تســـتند إلى الجيش ونقابات العمال والهيئات المثقفة. فأي رجل يختاره ليعاونه في أداء هذه المهمة عدا (جريجور شـــتراســـر) الذي برهن على أنه منظم من الطراز الأول واشـــتراكي صـــادق العقيدة؟

ولكن (جويجور) أبدى التردد في قبول هذا المنصب، إذ لو أنه رضي بأن يكون وكيلًا لمستشـار الرايش أو مستشـارًا في المستقبل، فهل هو خائن للعهد الذي قطعه لهتلر أم لا؟

لذلك استوضح المارشال "هندنبورج" الأمر ليطمئن قلبه، فقال له المارشال:

"أقسم لك أن (أونباشي بوهيميا) لن يكون أبدًا مستشارًا للرايش"

فقرر (جريجور) أن يتوجه إلى ميونيخ لاســـتشـــارة (هتلر) وإبلاغه بتصـــريح "هندنبورج".

وتردد هتلر ثم قبل أن يكون (جريجور) وكيلًا لمســـتشـــار الرايش، ووعده بأن يسافر إلى برلين في 8 ديسمبر التالي ليضع معه مشروع تأليف الوزارة الجديدة. وبعد أن وثق (جريجور) من موافقة (هتلر) اقترح على الجنرال (شـــليشـــر) أن يضـــم إليهما حليفًا جديدًا، وهو الهر "ليبارت" رئيس النقابات الحرة في ألمانيا.

وهنا انزعج كبار الزراع مرة أخرى وراحوا يتساءلون:

"لماذا استقال (برووننج) إذا كانت الحكومة تميل من جديد إلى أحزاب اليسار؟"

ثم أدرك (هوجانبرج) و(شاخت) غلطتهما فعادا إلى الاتصال بهتلر، وسعى (فون بابن) إلى الانضمام إليهم، ولقد تم الصلح بين هتلر وفون بابن في كولون بدار الهر (شرودر) الثرى الكبير الذي أقرض الحزب الوطني الاشتراكي مقدارًا من المال لإنفاقه على الحركة السياسية الجديدة.

وقال هتلر في تلك الجلسة: "ولكني لن أستطيع أن أتولى مستشارية الرايش ما دام الرئيس الشيخ على قيد الحياة".

فقال "فون بابن": "ليس هذا ما فهمت من أقوال صديقي أوسكار هندنبورج نجل الرئيس".

وهذا كذب مقصود من (فون بابن) فغضب (هتلر) غضبًا شديدًا من (جريجور).

وبعد ذلك ببضعة أيام جرت في برلين مشادة عنيفة بين الرجلين حول هذا الموضوع، وانتهز (جورنج) و(جوبلز) هذه الفرصة ليوغرا صدر هتلر على (جريجور) و(ليبارت) فقال (جورنج) بلهجة التأكيد: "جريجور يريد أن يتولى الوزارة ليمنعك من الوصول إلى الحكم ثم يقضي عليك قضاء مبرمًا".

فعصف الحنق بنفس هتلر، ورمى (جريجور) بما سمعه من (جوبلز) و(جورنج)، واتهمه بأنه يسعى إلى إبعاده عن الحكم بتأليف وزارة منه ومن (شليشر) و(ليبارت).

وتلقى (جريجور) هذه التهمة الشنيعة من هتلر الذي أخلص له إخلاصًا عميقًا، فقال وقلبه مفعم بالألم: "أتصدق يا هر هتلر، أني أستطيع إتيان هذا العمل؟".

فصاح هتلر: "نعم. أصدق ذلك، وعندي برهان عليه".

فأمسك جريجور عن الرد عليه، وانصرف مغيظًا تتأجج في صدره نيران الغضب، واستقال جريجور، في مساء ذلك اليوم من جميع وظائفه، ومن مجلس النواب أيضًا، ثم رحل تصحبه أسرته إلى جنوب ألمانيا. والتزم الصمت حينا من الدهر، لا يفضي إلى أحد من الناس بذات نفسه. ولكنه بقي مخلصًا لمبادئ الحزب مصممًا على الجهاد كجندي بسيط في سبيل نصرة الفكرة التي يحبها ويبجلها، ومن أجل الرجل الذي خانه وأنكره.

وفي تلك الأثناء وقع حادث في قصر المستشارية، ذلك أن الجنرال (شليشر) مستشار الرايش في ذلك العهد وجه السؤال الآتي إلى صديقه القديم (فون بابن):

"أصحيح أنك تتآمر مع هتلر ضدي؟".

فأجاب فون بابن: "ليس هذا صحيحًا".

فقال الجنرال: "فرانز، فكر في الأمر؟ أيمكنك أن تقسم لي بشرفك؟".

قال (فرانز فون بابن): "أقسم لك بشرفي أن ما بلغك ليس صحيحًا"

فبدت على (شليشر) علامات الاستياء الشديد، وأطلع (فون بابن) على صورة فوتوغرافية تمثله بصحبة هتلر و(شرودر) يتجاذبون أطراف الحديث أمام دار الأخير؛ فحاول (فون بابن) أن يوضح أسباب هذه الصورة؛ فقاطعه (شليشر) قائلًا: "كفى، إني أعرف ماذا يجب علي أن أفعل".

واجتمع الجنرال (شليشر) في مساء ذلك اليوم، بـ (جريجور) قبل مغادرته برلين، وكان شليشر مستاءً من (فون بابن) لحلفه كذبًا بشرفه أكثر من استيائه من دسائسه، وجعل الجنرال (شليشر) يقول لـــ (جريجور): "فون بابن.. هذا الضابط الألماني يقسم كذبًا بشرفه، يا له من عار ألحقه بجيشنا!".

قال (جريجور): "وماذا أنت فاعل؟"

قال (شليشر): "لن أفعل شيئًا إذ لو اتخذت أي إجراء ضده لأتهموني بأني أثأر لنفسي؛ فليفعلوا ما يريدون، فلست أخشى دسائسهم".

ولكن (شليشر) كان مسرفا في ثقته بقوته ونفوذه، وكانت المؤامرة التي يدبرونها ضده من المؤامرات المنتظر نجاحها، إذ لفت (أوسكار فون هندنبورج)، وهو شيخ في جماعة المتآمرين، نظر أبيه الرئيس (هندنبورج) إلى استهتار مستشاره بالآداب العامة وفضائحه الغرامية. وكان للخطبة التي ألقاها (شليشر) في 15 ديسمبر وأعرب فيها عن ميوله الاشتراكية وقع سيء في نفوس الرأسماليين والرئيس هندنبورج، ومنذ ذلك اليوم صار بقاؤه في الحكم لأيام معدودة، ولكنه لم يدرك هذا إلا في 28 يناير أي بعد فوات الوقت.

وبينما كنت أتناول طعام العشـــاء في ليلة 26 يناير مع مدام (جانفيف تابوي) الصـــحفية الفرنســـية في مطعم (إنتردن لندن) قالت لي هذه الســـيدة الجذابة بلهجة التأكيد: "ليس هناك ما يدعو إلى القلق، لقد استقبلني الجنرال (شليشر) منذ برهة، وصرح لي بأن هتلر في قبضة يده".

فقلت مباسطا: "إن كان حقا في قبضة يده، فليحكم الجنرال وثاقه قبل فوات الوقت".

على أن الرئيس "هندنبورج" لم يطق أن تستمر الحال على هذا المنوال، واستقر رأيه على أن يعتزل الجنرال (شليشر) الحكم ويخلفه (فون بابن)، ويعين هتلر وكيلا له في مستشارية الرايش لو اقتضى الأمر ذلك.

واجتمع هتلر في الليل بـ (فون بابن) و(هوجانبرج) و(سلت) رئيس فصائل الخوذات الصلبية، و(دوستبرج) وقال لهم: "إن لم أقلد رئاسة الوزارة الجديدة فلن أؤيدها بحال من الأحوال".

قال (هوجانبرج): "فون بابن حائز لثقتنا جميعا وثقة الرئيس هندنبورج فهو المرشح لرئاسة الوزارة".

وانضم (سلت) و(مستر) و(إسكارفون هندنبورج) إلى (هوجانبرج) في هذا الرأي وأصروا عليه، فثارت ثائرة هتلر وارتعش صوته وترقرق الدمع في عينيه. فانسل (فون بابن) دون أن يشعر به أحد، من الاجتماع. وصاح هتلر: "لن أقبل إقصائي عن الرئاسة مهما كانت الظروف"

ثم رجع (فون بابن) هادئًا، وهمس في أذنه بضع كلمات.

وعند طلوع الفجر دخل عليهم (فون الفرسلت) وصاح بهم قائلًا:

"يجب أن تعجلوا بالبت في الأمر، لأن (شـليشـر) قد رفض أن يسـتقيل، وأعد حامية بوتسدام لمواجهة الطوارئ".

فاهتز الجميع لهذا النبأ لاسيما (هوجانبرج) و(سلت) الذين يخشيان قيام حكومة دكتاتورية اشـــتراكية يتولى أمرها العســـكريون. ووصـــل الخبر إلى مســـامع الرئيس (هندنبورج) فاهتز له بدوره، وانزعجت حاشيته، وارتعدت فرائص وزرائه..

أما (فون بابن) فكان يبتســم وراء الســتار، بينما ظهر هتلر في مظهر المتأهب لمقابلة جميع الأخطار. أو لم يكن أقوى رجل في ألمانيا ولديه فرق الهجوم يدفعها ضــد حامية بوتسدام؟

ولكن لم يكن هناك ما يدعو إلى اســتعمال القوة، لأن (فون بابن) لم يشـــأ أن يتولى الحكم في الحال بسبب التهمة التي ألصقها به (شليشر)، فاحتال للأمر، ونجحت حيلته.

ففي ظهر ذلك اليوم خرج هتلر من عند الرئيس هندنبورج؛ مستشـارًا للرايش. ولم يحجم هذا الرجل عن إتيان كل قبيح مرذول في سـبيل الوصـول إلى الحكم، ولكن شيئًا آخر لا يزال ينقصه، ألا وهو السلطة المطلقة، على أن هناك ذنبين هما (جورنج) و(جوبلز) يستطيعان سد هذا النقص.

ففي مســاء 27 فبراير دقت في طرقات برلين أجراس رجال المطافئ، واخترقت سياراتهم حي الوزارة مسـرعة نحو حديقة الحيوان، وكان ذلك حوالي السـاعة التاسـعة مساء، ولم يمض إلا نصف الساعة حتى عرف جميع الناس في برلين أن حريقا شب في دار الريخســتاغ، واحتشــد آلاف من الخلق بالقرب من حديقة الحيوان، وضـــربت الشـــرطة نطاقا حول الميدان، وتهدمت قبة الدار واندلعت ألســـنة النيران، وظهر (جورنج) و(جوبلز) بين الجموع المحتشـدة، وصـرحا بأنهما يتهمان الشـيوعيين باقتراف هذه الجريمة.

واتفق أن كنت في تلك اللحظة في محطة (أنهال) فشــهدت أنوار اللهب تضــئ حلكة السماء، فاستوضحت سائق سيارتي الأمر فقال: "أشعل النازيون النار في دار الريخشتاغ".

وربما كانت غالبية الشعب الألماني على علم بحقيقة تلك الكارثة، ولكن النازيون لا يقيمون وزنًا لهذا.

وفي اليوم التالي 28 فبراير وقع الرئيس (هندنبورج) الذي بات لا يســتطيع الحكم على الأمور حكمًا صحيحًا مرسومًا خاصًا (بحماية الشعب والدولة)، وأضحى شعار الحكومة: "هتلر ينقذ ألمانيا من البولشـفية". والحقيقة أن (هندنبورج) قد أضـفى بعمله هذا ثوب الشرعية على الدكتاتورية الهتلرية وما اقترفت من جرائم وآثام.

الفصل الثامن
الجستابو يطاردني

هنا لاحت في الأفق علامة منذرة بهبوب العاصفة، عاصفة الاضطهاد والاستبداد والفزع. واصطبغ هذا الاضطهاد بصبغة شرعية يستمد قوته من القانون، ولديه جميع الوسائل للقتل والحبس والتعذيب. وقد توقعنا قدوم هذا العهد، وقابلناه بقلب ثابت وجأش رابط، وعقدنا العزم على المضي في الكفاح حتى النهاية.

وفي 4 فبراير أصدرت الحكومة مرسومًا يقضي بمصادرة صحفي وإلغاء الجبهة السوداء، فأصبحنا أعداءً للدولة خارجين على القانون وخطرا يتهدد سلامتها؛ فرأينا من الحكمة أن ننقل من العاصمة أسلحتنا وأوراقنا وعدتنا، وكنا قد عنينا منذ بضعة أسابيع بتنظيم صفوفنا في الريف، ولما كنت واثقًا من مطاردة هتلر لنا بعد حريق الريخستاغ، حزمت أمتعتي في تلك الليلة نفسها، وغادرت برلين منذ طلوع الفجر قاصدًا إلى مقري الجديد في (تورنج).

ولقد حدث ما توقعت، إذ احتل رجال الجستابو وشرطة جورنج في اليوم نفسه الدور التي هجرناها، وبحثوا فيها عن أوراق ووثائق فلم يعثروا على شيء منها، فانتقموا لأنفسهم بسرقة الأثاث.

ثم اعتقل مئات من أعضـــاء (الجبهة الســـوداء) في برلين وضـــواحيها خلال الأســـابيع التي أعقبت ذلك الحادث، وامتدت يد الاعتقال إلى الريف ما عدا بافاريا وجنوب ألمانيا، لأن ســلطة هتلر لم تشــمل هاتين المنطقتين اللتين ولدت فيهما الحركة الوطنية الاشتراكية إلا بعد أن دانت بروسيا لسلطانه بستة أسابيع.

وبينما كنت منذ شــهرين أباشــر أعمالي ســرا في (تورنج) وأوجه أنصــاري، إذ تلقيت ذات صباح رسالة تليفونية من عضو في (الجبهة السوداء) استطاع أن ينخرط في سلك "الجستابو" طلب فيها أن يخاطبني في الحال لأمر مهم، فأسرعت إلى التليفون وسألته: "هل هناك خطر يهددنا؟".

قال: "نعم. إنهم عذبوا (فلانا) في معسكرات الاعتقال حتى اضطر إلى إخبارهم بمحل إقامتك".

فغادرت (تورنج) مشــيا على الأقدام، وقصــدت إلى فندق يقع منها على بعد خمسة كيلو مترات حيث التقيت ببعض أصدقائي. وفي الصباح المبكر من اليوم التالي كانت تنتظرني ســيارة في الغابة المجاورة للفندق، وكان ســائقها من أنصــاري متخفيًا في ثوب الجنود التابعة لفصائل الهجوم، فقلت: "انطلق بنا إلى ميونيخ بأسرع ما يمكنك".

ولم نكد نقطع خمسين كيلو مترا حتى سمعنا صوت سيارة من سيارات البوليس البرليني تتعقبنا، ومرت بنا هذه السيارة تجري بسرعة خاطفة، فلمحت فيها بعض جنود من فرق الدفاع بملابسهم الخاصة؛ فقال سائق سيارتي: "أيقتفون أثرنا؟".

قلت: "لا أدري.. سر في طريقك".

ولم تكن هناك إلا طريق واحدة مؤدية إلى بافاريا، ثم شهدنا سياراتهم واقفة بعد مسيرة ثلاثين كيلو متر. فقلت: "ما من شك في أنهم يتبعوننا".

قال السائق: "أتريد أن أطلق عليهم النار".

قلت: "كلا، امض بنا.. إنهم أكثر منا عددًا".

ولقد أدهشني أنهم تركونا نمر بهم دون أن يعترضوا طريقنا، واستمر السير على هذا الحال بضع ساعات، تتبعنا سياراتهم تارة وتتقدمنا تارة أخرى دون أن يتسنى لنا الوقوف على غرضهم من هذه المطاردة. وأخيرًا بلغنا قبلهم مدينة (أشتات) البافارية، فتنفست الصعداء، وقلت لسائقي:

"ها هي ذي بافاريا، قف، فإنهم لا يستطيعون أن يمسونا بسوء هنا، وإني ذاهب لإخطار زوجتي بقدومي".

وعند خروجي من دار البريد أدهشني أن رأيت جمهورًا من أهل بافاريا مشتبكًا بالعصي مع جنود الهجوم التي كانت تحاصر تلك الدار. وجعل البافاريون يصيحون "الزموا برلين أيها الروسيون الأسافل، نحن نعرف كيف نعيدكم إليها".

وفي صباح ذلك اليوم وقع حادث كنت أجهله، وهو أن هملر وجورنج أسقطا حكومة الدكتور (هلد) البافارية، فعندما شهد أهل بافاريا جنود الدفاع الهتلرية في مدينتهم اعتقدوا أن النازي يسعون لبسط سيادتهم على بافاريا.

ولقد استطعت بفضل هذا الحادث المفاجئ أن أعود إلى سيارتي، وأتخلص نهائيًا من مطاردة جنود الدفاع، ولكني لم أدرك السبب الذي منع هؤلاء الرجال المسلحين من اعتقالي في الطريق إلا فيما بعد، إذ أطلعني عليه رجل من أنصاري في (الجستابو) استطاع أن يحصل على البيان العجيب الذي قدمه الجنود الدفاع إلى رئيسهم (هنريش هملر) وقد جاء فيه ما يأتي:

"ولما كنا نعلم أن "أوتو شتراسر" يحمل على الدوام مسدسه المتراليوز، وأنه لا يحجم عن إطلاقه علينا، فضلنا أن نهاجمه في ظلام الليل بعد أن نسلط عليه أضواء قوية تمنعه من رؤيتنا فنلقي القبض عليه".

ولعمري إنها لشجاعة فذة يتجلى بها هؤلاء الجنود البواسل!! ومع ذلك بقيت الحال على ما هي عليه من الخطورة، فأصدرت الأمر إلى رجالي الذين لا علم للشرطة بعضويتهم في الجبهة السوداء أن يلتحقوا بالجيش أو بالشرطة أو بفصائل الهجوم والدفاع، وأن يستمروا في نشاطهم من وراء هذا الحجاب الذي اضطرتنا إليه الظروف هذا الكفاح وطبيعته، وكان أخوف ما يخافه هتلر تسلل هذه العناصر الألمانية القوية بين صفوفه تهدد فصائله بالتفكك والانحلال، فأصدر أمرًا يقضي بمكافحتي بجميع الوسائل وباكتشاف محل إقامتي مهما كلفه ذلك من ثمن، فلم ينقطع الجستابو عن اعتقال من أمكنه اعتقالهم من أنصاري وتعذيبهم بشتى طرق التعذيب والتنكيل، ولكن معظمهم لم يفش سرًا اللهم إلا القليل مما خانتهم قواهم فاضطروا إلى الإفضاء بما كان لديهم من معلومات، وإزاء هذه الحال غادرت بافاريا اجتنابا للمصاعب والأخطار واخترت غابة (نوتوبورج) مقرًا لإقامتي حيث دعوت رؤساء الحزب في المناطق الشمالية للاجتماع في يوم عيد الفصح، بينما اجتمع ثلاثون ألفًا من فرق الهجوم للاحتفال بهذا العيد في مكان يبعد عنها بضعة كيلو مترات. ومعنى هذا أنه لم يكن بيننا خونة، وأن جماعتنا كانت على ما يرام من الاتحاد والنظام.

ثم قصدت في منتصف شهر إبريل إلى (شميسي) من أعمالي بافاريا حيث وجهت الدعوة إلى رؤساء الدوائر الجنوبية للاجتماع في 5 مايو وكنت أرغب خاصة في الاجتماع بمندوبنا في النمسا المكلف بتمهيد الطريق لحزبنا في (فيينا) إذا اضطرتنا الظروف إلى الهجرة إليها، واستضافتني سيدة من طالبات جامعة ميونيخ متزوجة برجل مثقف في منزلها الواقع على بحيرة "شـيم"، واقترحت أن تأوي أعواني في كوخ لها يقع فوق الجبل على ارتفاع ألفي متر. وقالت:

"سأصحبك إلى هنالك؛ أنا وخادمتي حتى لا يرتاب أحد في الأمر".

وصعدنا الجبل قاصدين إلى الكوخ حيث التقينا برؤساء (الجبهة السوداء) لبافاريا و(روتنبرج) وكذلك بمندوب الحزب في النمسا، وأرسلت الشمس عند الظهر أشعتها الذهبية الدافئة إلى الكوخ حيث كانت منضدة كبيرة وبعض المقعد مما جعل جلستنا ميسورة، وفي تلك الأيام كان رؤساء جماعتنا في الريف يعتقلون بغير انقطاع، فكنا مضطرين إلى تعيين خلفا لهم وتقييد عناوينهم وغير ذلك، ولقد لبسنا رداء حمام البحر لعرض أجسامنا لأشعة الشمس الدافئة الصحية في شهر إبريل، وبينما كنا مشتغلين بالعمل على هذه الصورة إذ دهمنا رجال مسلحون من فرق الدفاع الهتلري، وصاح أحدهم: (أطلعونا على بيان بإثبات شخصيتكم).

وكنت الوحيد من بين رفقائي الذي يتكلم اللهجة البافارية فقلت: "كيف نستطيع أن نحمل بطاقات إثبات الشخصية ونحن على هذه الصورة. أيمكنكم أن تحملوا أوراق شخصيتكم وأنتم في لباس الحمام؟".

فهم أحدهم بالانقضـــاض علي، فمنعه زميل له، قال: "ماذا تفعلون في هذا المكان؟".

قلت بصـوت عال تسـمعه السـيدتان اللتان كانتا تأخذان حمام الشـمس على مقربة منا:

"ماذا نفعل في هذا الكوخ؟ أسألوا هاتين السيدتين".

فأسرعتا إلينا، وجعلتا تمزحان معنا كما لو كنا في مصيف نلهو ونلعب، وانعطفتا على الجنود الشـبان في دلال ومرح؛ فقال الرجل الذي كان يريد الانقضـاض علي: "حسنا، ولكن يدهشني أن أرى امرأتين بصحبة رجال أربعة. سننظر في هذا الأمر".

وخلفونا متجهين صـوب الحدود النمسـاوية التي كانت على مسـافة مائتي متر منا. فقالت مضيفتنا:

"فلنرحل إلى النمسـا، إذ لا أرى وسـيلة تنجينا منهم سـوى الهجرة إلى ديار أخرى".

قال زعيم بافاري "لا بد أن فرق الهجوم تحرس الحدود النمساوية".

ولقد كانوا بالفعل يحرسـونها، إذ كنا نسـمع من حين لآخر أصـوات الصـفارات يطلقها رجال هملر من جميع النواحي المحيطة بنا، فقال مندوبنا النمسـاوي: "لا مناص من أن نقضي الليلة هنا".

ولعمري ما شعرت بالخطر الداهم أشد مما شعرت به في تلك الليلة؛ فقد خيل إلي أنه لا مخرج لنا مما وقعنا فيه، وأن الستار قد أوشك أن ينسدل على المأساة، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ هبت عاصفة هوجاء فأظلمت السماء، وانهمرت الأمطار من جليد وماء، وجرفت الثلوج قطعا من الصخر ملقية بها في المهاوي المحيطة بالجبل، فقلت لمضيفتي: "هذه هي فرصتنا الأخيرة فلنحاول النزول"

ولقد لاقينا مشقة وعناء مدى ست ساعات بلغنا بعدها الدار الصغيرة المطلة على بحيرة (شيم) ولكن كان علينا أن نستعد مرة أخرى للفرار من الجستابو الذي بث عيونه في كل مكان؛ فصبغت شعري بلون أسود ووضعت منظارًا وشاربًا مستعارًا.

وبينما كنت في يوم 9 مايو أتأهب للرحيل إذ وقفت سيارة أمام الدار ونزل سائقها وقدم إلى مضيفتنا كتابًا مرسلًا إلي فأخبرته أنها لا تعرفني ولا علم لها بهذا الاسم، واستمهلته حتى تسأل زوجها وحملت إلي الكتاب، فوجدته مكتوبًا بخط أخي (جريجور) الذي انقطعت عني رسائله منذ عامين. ففضضته في الحال وقرأت ما يلي:

"لقد تناولت البارحة العشاء على مائدة الوزير (فريك)، وأخبرني أن جورنج أرسل جماعة من (فرق الموت) إلى شميس لاغتيالك. ولقد قدمت ميونيخ بالطائرة فأرجوك أن تفر إلى النمسا بالسيارة التي أرسلتها إليك".

نعم.. لا بد من الفرار، ولكني لن أرحل إلا بعد أن تكتحل عيناي برؤية أخي، فأسرعت إلى سائق السيارة وقلت له: "أيمكنك أن تنطلق بي إلى ميونيخ حيث يوجد صاحب هذه الرسالة؟".

فقال: "نعم".

وانطلق بي حتي بلغنا ميونيخ بعد ساعتين، وهناك التقيت بأخي للمرة الأخيرة في حياتي، فكان لقاءً مؤثرًا أليمًا وقال (جريجور) وهو يبتسم ليمنع نفسه من التأثر والبكاء: "لقد تغيرت صورتك".

وطبيعي أن تتغير صورتي بعد أن صبغت شعري ووضعت منظارًا وشاربًا مستعارًا، أما هو فقد تغيرت صورته تغيرًا طبيعيًا. وقلت: "إنك تغامر بحياتك يا أخي، في إعانتي على الفرار".

قال: "سوف يقتلني جورنج يوما من الأيام كما يبغي أن يقتلك الآن، فمهما فعلت فلست بناج من الموت".

قلت: "أتوسل إليك أن تفر معي".

فهز جريجور رأسه وقال: "ماذا أفعل بعيالي وأعمالي؟".

قلت: "وهتلر أيضًا أليس كذلك؟".

قال: "كلا. إنها ألمانيا التي تعنيني وتهمني، وأحسبني غير قادر على البقاء بعيدًا عنها".

وهكذا نتجاذب أطراف الحديث بضع ساعات حاولت خلالها أن أحمله على الرحيل معي فذهبت جهودي أدراج الرياح، وكان الوقت ضيقًا والحال تستوجب التعجيل بالأمر فلابد من الرحيل فعانقته وعانقني وتمنى لي حظًا سعيدًا وأخذت طريقي إلى المنفى.

انطلقت بي السيارة إلى مكان في جبال الألب، حيث وجدت دليلًا ينتظر قدومي، فأعطيته كتابًا كنت أحمله إليه، وبدأنا حوالي منتصف الليل نتسلق الجبل فبلغنا عند الفجر الحدود النمساوية، ومضينا في طريقنا مدى ثماني عشرة ساعة حتى انتهينا إلى مدينة (كوفستن) الجميلة في منطقة التيزول.

فقلت لنفسي: "ها هي ذي النمسا بلاد الحرية التي لا يوجد فيها رجال الجستابو، والتي لن تستطيع يد هتلر أن تمتد إليها!".

ومنذ زمن طويل كان لنا في فيينا مطبعة وموزعون سريون يقومون بتوزيع المنشورات في النمسا، وقسم مناط به تهريب هذه المنشورات إلى ألمانيا. ولقد حسبت أني سأستطيع أن أعمل عملًا مجديًا في النمسا، فوطنت العزم على كسب ثقة المستشار "دولفوس" والاشتراك معه في الكفاح ومساعدته بما كان لي من خبرة طويلة. وأنشأت صحيفة جديدة أسميتها "المذيع الأسود" ثم كتبت ثلاثة منشورات أرسلت آلافًا منها إلى برلين، وجعلت عناوينها على التوالي: إلى متى يدوم عهد هتلر؟ – دخول الثورة في مرحلتها الثانية – انقضاء الماركسية وبقاء الاشتراكية. ولكني لم أحسب حساب (ستانهوزل) رئيس شرطة فيينا الذي كان وكيلا لهتلر وجاسوسًا للجستابو.

وكان النازيون في النمسا قد بدأوا بمعونة برلين يشيعون الاضطراب والفزع في البلاد، فانفجرت القنابل هنا وهناك، وانتشرت الغازات المسيلة للدموع في دور التمثيل واللهو، وسرقت حوانيت اليهود ونهبت، وألحق بالخطوط الحديدية تلف وإضرار. وجعل (ستانهوزل) يرسل رجاله في أثر المجرمين دون جدوى، حتى حارت العقول في عجز رئيس الشرطة عن القبض على أصحاب هذه الجرائم المتواصلة! فارتاب النمساويون في الأمر واتهموا النازي علانية باقتراف هذه الجرائم.

ولكني أدركت أني لن أستطيع أن أقوم بعمل مجد في فينا، فرحلت إلى براغ لأستطلع الحال فيها، وقفلت راجعًا إلى فيينا بعد ذلك بثمان وأربعين ساعة، فقصدت مباشرة إلى منزلي، ولكني لم أستطع إدخال المفتاح في قفل الباب، حتى لحقت بي (بوابة) الدار، وقالت: "سيدي. إنهم اعتقلوا بعض الناس هذا اليوم، واقتاد رجال الشرطة ابنة أختك إلى المخفر وأحسب أنهم يبحثون عنك".

قلت: "إن عادت ابنة أخي إلى هنا أخبريها أني أنتظرها في المقهى الصغير الذي تعرفه".

ثم قصدت إلى المقهى في الحي الثامن، وجلست إلى المائدة التي اعتدت الجلوس إليها، وطلبت قدحا من القهوة وصحيفة مسائية، ودفعت ثمنه فلم يبق في جيبي إلا خمسون (جروشن) أي ما يعادل 25 مليمًا. ونشرت أمامي صحيفة "تلجراف" المسائية وبعض صحف الصباح وقرأت فيها ما يلي مطبوعًا بحروف كبيرة:

"تمكن رجال الأمن أمس من العثور على المتهمين بإلقاء القنابل، وقد اتضح أنهم من أعضاء الجبهة السوداء التي يرأسها (أوتو شتراسر) واعتقلت الشرطة سبعة عشر رجلا وامرأتين. أما رئيسهم "أوتو شتراسر"، فلا يزال لسوء الحظ هاربًا".

ولم يكن لكل هذا نصيب من الصحة إطلاقًا، فقد كان أصحابي أبرياء، وكنت أنا في فيينا نفسها، ولكني وقفت من هذا النبأ على حالة النمسا في ذلك العهد كما أدركت حقيقة موقفي من كل هذا.

وبعد ذلك بعام دخل "ستانهوزل" السجن بتهمة اشتراكه في الفتنة التي قتل خلالها المستشار (دولفوس) ثم دخله مرة أخرى لمدة عشر سنين. ولكن النازيين أطلقوا سراحه بعد انضمام النمسا إلى ألمانيا، وأعادوه إلى وظيفته رئيسًا للشرطة، وكان "ستانهوزل" مكروها من أهل النمسا، وقد قتل في نوفمبر عام **1939** خلال معركة دارت بين فصائل الهجوم ورجال الشرطة.

ولنعد بالقارئ إلى حيث كنت أفكر في حالي بعدما اطلعت على نبأ اعتقال أصحابي وبحث الشرطة عني، فقد كنت غير قادر على العودة إلى داري أو اللجوء إلى أحد الفنادق وفي جيبي خمسون "جروشن" فلم يسعني إلا الرجوع إلى براغ على جناح السرعة.

ونهضت فورًا للبحث عن قليل من المال استطعت الحصول عليه بعد قضاء ليلة ممطرة مدلهمة ثم قصدت إلى المحطة حيث أخذت القطار إلى براغ، وكنت أحمل جواز سفر مزيفا استطعت به أن أجتاز الحدود التشيكية بغير عناء، ولكني كنت قد خلفت في سجون فيينا تسعة عشر صديقا لم يطلق سراحهم إلا بعد ذلك بعام.

هكذا اتخذت لنفسي اسمًا جديدًا وموطنًا جديدًا كان علي أن أبدأ فيه الكفاح مرة أخرى، وأقمت في براغ عند أسرة صغيرة يعولها موزع للبريد، ولكني كنت أعلم أن عيون الجستابو ترصدني على الدوام. وقضيت ثلاثة شهور في هدوء نسبي شعرت خلالها بشيء من الأمن والسلامة، وبينما كنت على هذه الحال إذ استيقظت ذات صباح على صوت ربة الدار تناديني:

"الشرطة يا سيدي، الشرطة تطلبك".

ودخل رجال الشـــرطة، فقلت: "معذرة أيها الســـادة! من أنتم؟ أتتكلمون الألمانية".

فأطلعوني على أوراق تثبت تبعيتهم إلى إدارة الأمن العام، وسألوني عما إذا كنت أدعى المهندس (س)... فابتســـمت لذكر هذا الاســـم الذي كنت أحمله في النمســـا، وقلت:

"لســـت أعرف المهندس (س)، ولكني علمت علم اليقين أنه قد توفي منذ عهد قريب!".

فقال أحدهم: "أطلعنا على أوراق تثبت شخصيتك".

فقدمت إليهم جواز الســـفر مصـــحوبًا بتأشـــيرات الخروج من النمســـا، هذه التأشيرات التي لا يستطيع الألمان السفر إلى الخارج بدونها؛ فجعلوا يفحصون أوراقي فحصًا دقيقًا، فبدت على وجوههم علامات الدهشة والتعجب.. ثم عمد أحدهم إلى تفتيش مكتبي، وجعل شـــرطي آخر بفحص ملابســـي ويتفقد خزانتي حتى وقع على مسدسي فصاح بالألمانية إن هذا "سلاح محظور".

ولكنهم لم يجدوا شـيئًا مما كانوا يتوقعون فأعادوا إلى جواز السـفر وانصـرفوا حانقين مغيظين.

ثم دخلت علي ربة الدار، وقالت: "كان أمام الدار شـرطيان ينتظران. وقد انطلقا غاضبين حانقين".

ثم قصدت حوالي الظهر إلى مقر المسيو (باندا) رئيس قسم البوليس السياسي، وشـكوت إليه تصـرفات رجاله المنكرة، وقلت: "لماذا أرسـلت إلى داري سـيارة فيها أربعة جنود مسلحين؟".

فنظر إلى الرجل دهشًـا متعجبًا، وقال: "لقد أخطأت يا سـيدي، إذ ليس لدينا سيارات".

وبعد ظهر ذلك اليوم خاطبني المسيو (باندا) بالتليفون قائلا:

"أرجوك أن تأتي في الحال لمقابلتي وتحضـر معك ربة الدار؛ لكي نسـتوضـحها الأمر لأننا لم نصدر أي أمر بتفتيش منزلك".

وهناك علمنا أن السـيارة التي حملت الشـرطة إلى داري كانت سـيارة ألمانية، وقالت ربة الدار:

(نعم أذكر أن الرجلين اللذين انتظرا أمام الدار كانا يتكلمان الألمانية، وعندما عاد إليهما زميلاهما، ألقيا على الأرض بقطعة من القطن كانت لها رائحة غريبة، وداساها بالأقدام في غضب شديد!!).

ولقد عثر المحققون على القطن، واتضـــح أنه كان يحتوي على مادة مخدرة، فلا ريب في أن الجستابو أرسل هؤلاء الرجال لتخديري واعتقالي حيا، وكان من المستطاع أن ينجحوا في مهمتهم لو أنهم كانوا من رجال الجســـتابو في ميونيخ الذين يعرفونني معرفة شخصية، ولكن هملر بعث إلي بألمان من السوديت يتكلمون اللغة التشيكية، ولم يكونوا قد رأوني قبل اليوم.

بيد أن حكومة براغ قد ســـاورها القلق الشـــديد من جراء هذا الحادث الذي ارتكبه رجال الجســـتابو في قلب العاصـــمة التشـــيكية، فعهدت إلى بعض رجالها في حراستي، وأعادت تنظيم مصلحة الأمن والأبحاث التي كانت تسودها روح التسامح والإغضـــاء حتى ذلك العهد. ولكن التدابير التي اتخذتها الحكومة في هذا الصـــدد لم تشمل الريف فكان ذلك الحادث المروع الذي ذهب ضحيته صديقي (فورميس).

ومع ذلك فقد شـــعرت بشـــيء من الهدوء والطمأنينة، وأدرك (هملر) أنه لا يستطيع القيام بمثل تلك المحاولة التي جربها في 29 أكتوبر سنة 1933، ولكني كنت على يقين من أن الجستابو لديه وسائل متعددة وأساليب متنوعة.

وفي أوائل شهر مارس عام 1934 ألقيت محاضرة عن الوطنية الاشتراكية تلبية لدعوة وجهت إلي من كلية الحقوق في براغ، فأحرزت هذه المحاضرة نجاحًا فائقًا. ولقد زارني في اليوم التالي رجل إنجليزي حسن الهندام يقال له المستر (فرانك)، وكان يصحبه تاجر يهودي كبير من تجار براغ يدعى المسيو "بولاك" يرغب الوجيه الإنجليزي في الزواج بشقيقته. وأنبأني المستر (فرانك) أنه وكيل لشركة أمريكية معادية للنازية محظور عليه ذكر اسمها؛ ولكنها تهتم بدعوتي السياسية اهتمامًا عظيمًا، وقال باللغة الألمانية المشوبة باللكنة الإنجليزية: "لقد كلفت بأن أبتاع خمسة آلاف نسخة من صحيفتك الأسبوعية الجديدة على أن أقوم بتوزيعها في جميع أنحاء ألمانيا، وإني مستعد لدفع ثمنها مقدما".

قلت: "أشكرك يا مستر (فرانك) إن إدارة صحيفتي على أتم ما يرام من النظام، ولست بحاجة لمن يعاونني في توزيعها".

قال: "حسنا. لك أن تتولى شئونها وحدك، ولكني أود أن أقرضك مبلغًا من المال لمدة ثلاثة شهور حتى يتسنى لك أن تضاعف عدد ما تطبعه منها".

فقبلت هذا العرض، وخاصة بعدما أطلعني المستر (فرانك) على جواز سفره موسوما بخاتم الحكومة الإنجليزية، وبعدما أكد لي المسيو (بولاك) التاجر اليهودي المعروف أن صاحبه البريطاني شريف النية والطوية.

ولما انقضت الشهور الثلاثة عاد إلي المستر (فرانك)، وأخبرني أنه مغتبط جدًا بنجاح الجريدة ومساهمته في هذا النجاح، وطلب إلي أن أصحبه إلى باريس، وقال: "يرغب رئيسي الأمريكي رغبة حارة في أن يراك. ولكنه لا يستطيع المجيء إلى براغ في الوقت الحاضر، وسيكون في باريس في أوائل يونيه، فهل تود أن نتوجه إليها معا؟".

وكنت قد استعلمت من إدارة الشرطة عن هذين الرجلين منذ أن التقيت بهما فقيل لي أنه ليس هناك ما يدعو إلى الريبة في أمرهما، ولكني اعتذرت عن قبول السفر بصحبتهما، وقبلت أن أختلف إلى الموعد الذي ضربه لي المستر "فرانك" في باريس.

وبلغت عاصمة فرنسا في 15 يونيو بعدما أخطرت المستر (فرانك) باضطراري إلى تأجيل الموعد حتى هذا التاريخ، ولكني لم أنبئه باليوم الذي رحلت فيه ولا بالقطار الذي ركبته.

وعندما التقيت بالمستر (فرانك) صاح قائلا: "يا للأسف! لقد وصلت متأخرًا إذا اضطر الرئيس إلى السفر إلى (السار) للتفاوض مع (كونارد هيدن) الذي لم يستطع المجيء هنا. ولكنه سينتظرك في يوم 21 يونيه بمدينة (ساربروك)."

فلم يطمئن قلبي إلى هذا الكلام، ولكن من الجائز أن يرغب رئيس جمعية أمريكية معادية للنازية في مباحثة كاتب كبير مثل (كونارد هيدن) عرف بمحاربته المبادئ النازية. واستطرد المستر (فرانك) قائلا:

(يمكننا أن نسافر معا في 20 يونيه).

قلت: (شكرا. ولكني أعدك بأن أكون هنا في يوم 21 يونيه).

فرضي بذلك، وضرب لي موعدا في فندق (ريكسادلر).

وفي الحق أني ارتبت في أمر هذا الرجل وأوجست خيفة من مصاحبته في السفر، وعزمت على مقابلة (كورنارد هيدن) قبل أن ألتقيه، وكنت قد أخفيت عنه أني أعرف هذا الكاتب وأني كنت على علم بإقامته في (ساربروك).

بلغت في يوم 21 يونيه عاصمة (السار) التي كانت لا تزال مستقلة فاستقبلني (كورنارد هيدن) في المحطة، وقال بعدما تبادلنا تحية حارة:

"إني لم أفهم شيئًا من كتابك يا عزيزي شتراسر؛ ولست أعرف (فرانك) ولا رئيسه، فاحذرهما".

قلت: "هذا ما توقعته؛ ولكني أود المضي إلى النهاية حتى أقف على حقيقة الأمر، ولك أن تطمئن إلى حرصي وحذري".

وعندما وصلت إلى الفندق لحظت على مقربة منه أشخاصًا في لباس مدني يلبسون أحذية ألمانية سميكة ويروحون ويغدون أمام الفندق، فقلت لنفسي: "إني أعرفكم أيها الرفاق، وأعلم أنكم من فرق الهجوم ولكنكم لن تظفروا بي".

وأقبل علي المستر (فرانك) يحييني قائلًا: "فلنصعد إلى منزلي يا صديقي العزيز".

فتبعته ويدي على مسدسي في جيبي حتى بلغنا منزله الفخم في ذلك الفندق. ثم رحنا نتحدث أولا عن ألمانيا، فقلت أن الحالة هناك عصـــيبة، ويبدو في الأفق شـــبح ثورة ثانية.

قال: "سنشهد أحداثًا مباغتة قبل نهاية هذا الشهر، وسترى ألمانيا مذبحة كمذبحة (سان بارتليمي)

قلت: "أهو رئيسك الذي أطلعك يا مستر فرانك على هذه المعلومات المهمة".

فبدا على المســتر فرانك شــيء من الارتباك ثم قال: "لم يصــل الرئيس بعد فهل تسمح بأن أقدم إليك قليلًا من نبيذ الشمبانيا حتى يلحق بنا؟".

قلت ضــاحكًا: "لســت أشــتهي شــيئًا من هذا يا مســتر "فرانك".. يا لك من صــديق وفي! أقســم لو أني كنت واثقا من أنك رجل من رجال الجســتابو، ثم لولا أني أحسب حسابا لجنسيتك البريطانية لقتلتك في الحال بهذا المسدس".

فامتقع لون المســتر (فرانك) وقال: "إنك تمزح يا هر شــتراســر مزاحًا لا يفهمه رجل إنجليزي مثلي".

وصمت برهة ثم قال: "أتسمح لي أن أتكلم بالتليفون؟".

وانطلق لحظة ثم عاد على حالته من الاضـطراب وقال: "لقد علمت أن الرئيس لم يصـــل حتى الآن ولكنه لابد من أن يلحق بنا بعد لحظات فهل يمكنك أن تتريث قليلًا؟".

عندئذ تأكدت من شـخصـية المسـتر (فرانك)، إذ لو كان إنجليزيا بريئًا لغضـب لكرامته من السـبة التي ألحقتها به، فما من شــك في أنه جاســوس مكلف (باعتقالي وحملي إليهم حيًا) وأنه كان ينتظر قدوم شركائه في الجريمة، ثم نشرب خمرًا حتى انتشى ونخرج للتنزه في سيارة تجتاز بي الحدود الألمانية.

فقلت: "حسـنا يا مسـتر (فرانك)، ولكني على موعد مع بعض الناس فاسمح لي أن أستودعك وأتغيب نصف ساعة ثم أعود إليك".

وانطلقت فوجدت الرجال ذوي الأحذية الســـميكة الألمانية لا يزالون أمام الفندق، فصحت بهم قائلًا: "أريد سيارة (تاكسي)، فليسرع أحدكم بإحضارها!".

ولعمري ما عرفت ألمانيا يجهل صوت ضابط قديم في الجيش الألماني.

وجاءت الســـيارة في أقل من دقيقة فانطلقت بي إلى دار (كورنارد هيدن)، فنصحني قائلًا:

"يجب أن تغادر المدينة في الحال، وسأذهب أنا لمقابلة المستر (فرانك) وأعتذر له عن سفرك الفجائي، وأطلب إليه أن يسلمني حقيبتك.. أليس هذا فخا مضحكا؟".

ولقد طافت بذاكرتي، في أثناء سفري، هذه الكلمات التي أفضى بها إلى مستر (فرانك): "ستشهد ألمانيا قبل نهاية هذا الشهر مذبحة كمذبحة "سان بارتليمي". فلابد أنه كان واثقًا من اعتقالي وإلا لما جرؤ على الإدلاء بمثل هذا التصريح الخطير.

وقد وقعت بالفعل تلك المذبحة المشهورة في يوم 20 يونيه، وعلى الرغم من ذلك لم يحجم المستر (فرانك) عن الظهور مرة أخرى في براغ حيث قابلته فصاح بي قائلًا: (ما أسوأ فعلتك يا صديقي العزيز! لقد كدت بسببها أخاصم رئيسي فعليك أن تصلح ما أفسدت، وها هي ذي طائرتي الخاصة رهن إشارتك، فهل لك أن تستقلها معي حتى تبلغ بها مقر الرئيس؟).

فضحكت وقلت: (ويبدو لي يا مستر فرانك أنك تعاملني معاملة الأطفال).

قال: "كلا ثم كلا. ولئن كنت تتوجس مني خيفة فلك أن تولي قياد الطائرة صديقك المخلص الهر (ماهر)."

وكان اسم (ماهر) الحقيقي (أدام) وهو ابن أحد كبار التجار اليهود في برلين، وعلى الرغم من أن (أدام) كان من بين أنصاري المخلصين فقد اعتذرت عن عدم استطاعتي إجابة المستر (فرانك) إلى طلبه.

ثم انصرف المستر (فرانك) فأسرعت إلى التليفون واتصلت بالمسيو "باندا" رئيس البوليس السياسي وقلت له: "يقيم الشخص الذي سبق أن حدثتك عنه في براغ، بفندق "سروبك"، وكان "أدام" بجانبي في أثناء هذه المخاطبة، ولكنه انصرف على غير علم مني.

ولما بلغ رجال الشرطة الفندق كان المستر "فرانك" قد اختفى. وحامت الشبهة حول صديقي المخلص "أدام"، وحول سكرتير المستر "فرانك"، فألقي القبض عليهما واعترف الرجلان بالحقيقة بعد مضي بضعة أسابيع على اعتقالهما.

فاتضح أن المستر "فرانك" كان رئيسًا للقسم الذي عهد إليه الجستابو بمطاردة أعضاء "الجبهة السوداء"، ولما أخفق "فرانك" في اعتقالي بمقاطعة ألسار اشترى معونة صديقي "أدام" و"كريتش" الذي كان اسمه الحقيقي "هلد فراند" ووعد الأول بأن يمنحه الجنسية الألمانية، ونفح الثاني مبلغًا كبيرًا من المال.

ولقد أطلق سراح الخائن "أدام" بعد أن قضى في السجن بضع سنين، ولم أره منذ ذلك العهد، ولكني أعلم أنه وزميله "هلد براند" يباشران هذه الحرفة الوضيعة .

وهكذا انتهت قصتي مع المستر "فرانك" الذي لم يوفق إلا لدفع النفقات التي تكلفها نقل خمسين ألف نسخة من صحيفتي إلى ألمانيا!! غير أن "أدام" كان قد أبلغ الجستابو اسم الرجل الذي صنع لنا جهازًا لاسلكيًا للإذاعة السرية استخدمناه لمحاربة هتلر.

ومما هو جدير بالذكر أن ألمانيا وإيطاليا أفادتا من هذا السلاح الماضي في نشر الدعوة السياسية قبل غيرهما من الدول الأخرى. وما من شك في أن الراديو أقوى وسيلة يستطيع بها المرء إبلاغ الحقيقة مسامع الناس في بلد معاد، أو إضعاف روح العدو المعنوية، فهو سلاح خطير من الأسلحة الضرورية في الحروب الحديثة. وكان صديقي (فورميس) أول من فكر في الإفادة من الراديو، وكانت (الجبهة السوداء) أول جمعية في أوروبا في العالم كله استخدمت جهازًا سريًا للإذاعة السياسية.

وكان (فورميس) شابًا نابهًا، وضابطًا ممتازًا أبان الحرب العظمى ومهندسًا كهربائيًا من الطراز الأول، وكان يدير محطة (شتوتجارت) اللاسلكية بمهارة فائقة في الكفاح ضد النازية حتى تولى هتلر زمام الحكم في ألمانيا، وحدث أن ألقي هتلر خطبة مشهورة في (راديو شتوتجارت) فتمكن (فورميس) من قطع السلك الرئيسي لجهاز الإرسال في أثناء الليل فتعطلت الإذاعة. ولم يستطع البوليس العثور على مقترف الجريمة وتكررت هذه الحادثة كلما أذاع هتلر خطبة مهمة، فحامت الشبهة حول (فورميس) فاضطر إلى الفرار إلى مدينة براغ حيث التقيت به.

وقد كان الجهاز الذي صنعه لنا (فورميس) دقيقًا محكمًا فاقتناه متحف الراديو في براغ بعد وقوع ذلك الحادث الفظيع الذي قتل فيه (فورميس).

ثم جعلنا نبحث عن مكان مأمون نستطيع أن نقيم فيه جهاز (فورميس) حتى وقعنا على فندق هادئ في بلدة (زاهورا) يقع على مسافة خمسة وستين كيلو متر من براغ. وهناك عكف (فورميس) على العمل ولم تمض بضعة أسابيع حتى تمكننا من أن نذيع ثلاث مرات في اليوم إذاعات واضحة نكشف فيها النقاب عن أعمال النازيين ومبادئهم؛ فثارت ثائرة هتلر، وارتعدت فرائص هملر، وأصدر الأمر إلى وكيله (هدريش) السفاح باكتشاف هذه المحطة اللعينة وتحطيمها واعتقال المجرمين. ومضت أيام وشهور دون أن يكف "المذيع الأسود" عن إرسال خطبه إلى جميع أنحاء ألمانيا.

وفي **16** يناير سنة **1933** ذهبت كالمعتاد لمقابلة (فورميس) وتسليمه خطبتي الأسبوعية مسجلة على إحدى الاسطوانات، وسألته: "كيف حالك، أرأيت من يرتاب في أمره؟".

قال: "كلا، لم يفد على الفندق إلا رجل وخليلته في ربيع العمر قادمين من ألمانيا. وقد رحلا هذا الصباح".

قلت: "كن على حذر!".

قال: "إني مسلح. وأحسب هذه الفتاة غير قادرة على إتيان السوء!".

قلت: "أعلمت من هما؟".

قال: "هتس مولر تاجر من (كيل)، أما خليلته فهي "أديث كرسباخ" معلمة للألعاب الرياضية "على جانب عظيم من الجمال".

قلت: "إن عادا إلى الفندق. فبلغ عنهما بوليس الأجانب".

ثم عدت إلى براغ، وكنت أجهل أن هذه المرأة قد أغوت (فورميس) تظهر بجانبه في صورة فوتوغرافية التقطها لهما خادم الفندق.

وعاد الرجل وخليلته إلى الفندق في 23 يناير، ولما كان الليل قد أرخى سدوله، ولم يكن بالفندق جهازا للتليفون أرجأ (فورميس) إخطار البوليس إلى اليوم التالي. واحتج الرجل بأنه تعب فاستأذن وانصرف إلى غرفته دون أن يتناول العشاء، أما خليلته فقد بقيت بصحبة (فورميس).

وصعد (فورميس) و(أديث) – اسم هذه المرأة – إلى الطابق الأول. وكان (مولر)، وهو خليلها، يقطن الغرفة رقم 3، بينما نزل (فورميس) في الحجرة رقم 7.

وبعد الساعة العاشرة ببضع دقائق استيقظ خادم الفندق على صوت طلقات نارية، فأسرع إلى الطابق الأول ولمح (مولر) وهو يجر جثة (فورميس) إلى الغرفة رقم 7 و(أديث) تتلوى وتئن كحيوان مجروح، ووقع على رجل آخر قد أشهر مسدسين في وجهه، وهرع خدم الفندق وموظفوه إلى مكان الحادث يهددهم الرجل بسلاحه ودفع بهم حتى أدخلهم مخزن الفندق وأوصد بابه.وكان أحد الخدم قد تمكن من إيقاظ صاحب الفندق وإخطار البوليس.

وفي تلك الأثناء اســتطاع المجرمون أن يلوذوا بالفرار في ســيارة كبيرة كانت تنتظرهم بالقرب من الفندق. ولقد ثبت من التحقيق أن (مولر) أدخل شــريكه في غرفته بواسطة سلم من الحبل. وعندما صعدت المرأة يصحبها (فورميس) إلى الطابق الأول، دعته إلى الدخول في غرفتها، وما كاد يدخلها حتى لاحظ رجلين واقفين خلف الباب، فأخرج مســدســه، وحاولت المرأة أن تنتزعه منه فأطلق النار عليها، فخرت صريعة تتلوى، وهنا سدد (مولر) ضربتين إلى "فورميس" فسقط مضرجا بدمائه وقضى في الحال.

وراح الرجلان يبحثان عن (الراديو) دون أن يعثرا عليه، فصبا زيت البترول على جثة القتيل وجروه إلى غرفته حيث وضــعا بجواره قنبلتين من القنابل المحرقة تنفجران بعد برهة من الزمن فتزول بذلك آثار الجريمة ويدك صــرح الفندق ويتحطم جهاز الإذاعة الذي لم يوفقا إلى العثور عليه.

وقد أوقف الشرطة السيارة التي فر بها المجرمون وأطلقوا سراحها بعد أن فحصوا أوراق الرجلين فوجدوها ســليمة لا غبار عليها، وكانت المرأة ثاوية في مكان أعد خصيصًا تحت مقاعد السيارة.

وهكذا سكت ذلك الصوت الذي كان يخاطب كل يوم الشعب الألماني ويطلعه على جرائم النازية وآثامها. ولقد تبودلت بين حكومتي برلين وبراغ مذكرات بشـــأن هذه الجناية، وعلى الرغم من أن البوليس التشيكي أثبت بصورة لا مجال للشك فيها اشتراك السلطات الألمانية في الجريمة؛ فإن حكومة برلين قد أصرت على إنكارها هذه الحقيقة، بل ذهب وزير ألمانيا المفوض في براغ إلى أبعد من ذلك، فســـأل وزير العدل عما إذا كانت الحكومة التشيكية تنوي محاكمة (أوتو شتراسر) بسبب استعماله محطة لاسلكية للإذاعة السرية.

وقد قدمت للمحاكمة فعلا وحكم علي في 6 يناير 1936 بالسجن لمدة أربعة شهور، ولكني لم أسجن، لأن الرئيس (بنش) استطاع أن يعطل تنفيذ هذا الحكم.

ولقد حدثت بعد تلك الجريمة الشنعاء محاولات أخرى لاعتقالي لا أريد تفصيلها لقلة شأنها، وإني لأبتسم كلما عاودتني ذكرى تلك الرسائل التي كانت تدعوني فيها صـــاحباتها إلى موعد غرامي، أو ذكرى تلك الصـــحفية الإنجليزية التي حاولت إغوائي وحملي على الســـفر معها إلى بلاد الســـويد في رحلة غرامية، أو زجاجة الســـم التي قدمها إلي ذات يوم الهر (كونستنتان) أحد أنصاري المخلصين!.

ولكني أريد أن أذكر حادثين لهما أهمية سياسية؛ ففي يناير سنة 1938 قصدت إلى فيينا لقضاء بضعة أيام فأخطرني الهر (جيدوز رناتو) – أحد وزراء النمسا ورئيس الجبهة الوطنية – بأن هتلر أمر رجاله هذه المرة بإطلاق النار علي بمجرد وجودي في الأراضي النمساوية، وأضاف الوزير إلى إخطاره هذا قوله بأن البوليس النمساوي لا يضمن حمايتي من اعتداء النازي علي فيجب أن أتجنب مدينة (فيينا).

ولقد علمت هذا النبأ قبل انضـمام النمسـا إلى ألمانيا بشـهرين، أي في الوقت الذي كان النازيون يشيعون فيه الفزع والاضطراب في جميع أنحاء البلاد.

أما الحادث الثاني فقد وقع بعد ذلك بسـبعة شـهور أي في أغسـطس سـنة 1938 بمدينة براغ. ويتلخص في أن رجلا من الجبهة السوداء أنبأني أن النازيين ينوون خطفي بواسـطة سـيارة الكولونيل (توسـابت) الملحق الحربي بالمفوضـية الألمانية، وقد رسـم لهم (فون بيبرا) مسـتشـار المفوضـية هذه الخطة الجريئة، وعلمت أنه قد عهد إلى سـائق سـيارة الكولونيل (توسـانت) في العثور على رجلين من الأشـقياء لتنفيذ الجريمة فانتهى إلى الاتفاق مع شـخصـين من ألمان السـوديت التابعين لحزب (هنلاين) وضـم إليهما أحد المهاجرين الألمان ليضـلل بي، وكان هذا الرجل لسـوء حظهم يعمل في الوقت نفسه لحساب البوليس فبادر بتبليغه الأمر.

واسـتقر الرأي في هذه المرة على اعتقال المتآمرين متلبسـين بالجريمة، فطلب الألماني المهاجر أن يدفع له مقدمًا قسطًا من أجره، فضرب له السائق وشريكاه موعدًا في مقهى وبينما كان يتناول النقود من يد السـائق داهمهم رجال الشـرطة واعتقلوهم جميعًا. ولم تكن هذه أول مرة يشـترك فيها رجال السـلك السـياسـي الألماني في جرائم الجسـتابو، فأرسـلت حكومة براغ احتجاجًا شـديدًا إلى برلين، فاضـطرت الحكومة الألمانية إلى استدعاء الكولونيل توسانت من مفوضـيتها في براغ، وحكم على السـائق بالطرد من تشكوسلوفاكيا، وعلى شريكه بالسجن.

أما "فون بيبرا" فقد عين مستشارًا في المفوضية الألمانية في برن حيث قابلته، لأني غادرت براغ في سبتمبر سنة **1938**، حينما هددت ألمانيا باجتياح تشكوسلوفاكيا، وإني لأعتقد أن فون بيبرا لن يستطيع إتيان سوء في سويسرا إذ لا يوجد في هذه البلاد رجال يخونون وطنهم كما لا يوجد فيها رجل كـ (هنلاين).

ولا يفوتني في ختام هذا الفصل أن أشير إلى حادث آخر له دلالة خاصة على الأساليب الألمانية، فقد حدث في 23 نوفمبر سنة **1939** أن اعترف الراديو الألماني رسميًا بأن صديقي (فورميس) قتله رجلان من فرق الهجوم بأمر الحكومة الألمانية.

الفصل التاسع

سان بارتلمي الألمانية

لقد صارت الحوادث في ألمانيا خلال العام الأول من منفاي إلى الحالة التي توقعتها، فمضى هتلر في تقويض صروح النظام القديم وهدم الأسس الموضوعة، مع التذبذب بين الحركتين الثورية والرجعية، وبغير الانتهاء إلى وضع برنامج واضح دقيق للمستقبل.

وقد استطاع هتلر أن يبقى في الحكم مستفيدًا من الدعاية والاضطهاد إلى أقصى حد ممكن، ولكي يتسنى لنا أن نفهم الحوادث المروعة التي وقعت في 30 يونيه سنة 1934 يجب أن نوضح مرة أخرى العوامل التي أتاحت لهتلر الوصول إلى منصة الحكم؛ فنحن نعلم أن الرئيس "هندنبورج" الذي يمثل الروح البروسي، قد رضي – على الرغم منه – أن يكون هتلر مستشارًا للرايش.

أما (هوجانبرج)، نصير جماعة أصحاب المصانع الكبيرة، و(فون بابن) الرجعي ومرشح طائفة كبار الزراع، فهما الرجلان اللذان مهدا سبيل الحكم لهتلر ووضعا قدميه في الركاب، ولا يزال أصحاب المصانع الكبرى وكبار القواد العسكريين يرون في (الأونباشي النمساوي) خادمًا يرعى مصالحهم ويحقق أغراضهم.

ولعمري إن هذا لإنكار لروح الحركة الوطنية الاشـــتراكية والدور الذي يقوم به هتلر كرجل من رجال التاريخ، فقد ولدت الثورة من الفوضـــى حتى ســـادت ألمانيا، وحملت أمواجها هتلر إلى السطح.

وهناك معركة تدور رحاها، لكسب هتلر، بين القديم وبين الجديد الذي نشأ منه هذا الرجل وهتلر يتذبذب بين هذا وذاك حتى أصـــبح ســـجين تردده وذبذبته، ولقد نشأت من هذه الحالة قوة الرجل وضعفه في الوقت نفسه.

هذا بينما كان فريق من أنصـــاره برمًا متذمرًا يتهم الفريق الآخر بالضـــعف والاعتدال، وكان رجال فصائل الهجوم الذين أقسموا يمين الإخلاص للحزب تقديسًا منهم للمبدأ لا للفهرر، يتألفون من ثلاثة ملايين ألماني تهيجهم وتغضبهم سياسة "فون بابن" و"هوجانبرج" و"شـاخت" فسـرت بين صـفوفهم هذه العبارة: "متى تقع الثورة الثانية؟".

وكان (جريجور شـــتراســـر) وهو لم يتجاوز مرتبة العضـــو في الحزب يتلقى آلاف الرسائل التي كان يقول فيها أصحابها: "عد إلى نشاطك، ليس هناك أحد سواك يمكنه أن ينقذ الوطنية الاشـــتراكية. هلا تفتح عيني الفوهرر اللتين أغمضـــهما "جورنج" ورفقاؤه حتى لا تتبينا الحقيقة والواقع".

ولم يغفل (جريجور) عن أن هذه الرسائل كانت تفض وتقرأ قبل أن يتسلمها.

ثم كان هناك (ريم)، رئيس فرق الهجوم، ومعه مرؤوسيه الذين كانوا يخلصون له إخلاصًا تامًا. وما كانوا يهتمون كثيرًا بالمسألة الاشتراكية، ولكنهم كانوا مستائين من القواد العسكريين ومن الجيش الذي ظل بعيدًا عن الحزب.

ولما كان (ريم) ضابطًا قديمًا في الجيش فهو من أعرف الناس بعقلية العسكريين الألمان. فقد كان هؤلاء العسكريون ينظرون إلى فصائل الهجوم وجنودها ذوي القمصان السمراء نظرة احتقار واستهتار. ولم تكن الهتلرية عندهم إلا ستارًا يمضون وراءه إلى غايتهم التي عملوا لها على الدوام.

ولما كان (ريم) قد عاش حينا من الدهر في (بولونيا) فإنه أضحى خبيرًا بأغراض الجيش وعقليته. فهو يعلم أن الحزب لا خطر له ولا قيمة إن لم ينصره الجيش، وفي مقدور العسكريين أن يسقطوا كل وزارة لا توافقهم. وعلى ذلك تألفت جبهة من (جريجور شتراسر) و(ريم) ضد جماعة (هندنبورج) و(هوجانبرج) و(فون بابن) و(جورنج) التي اتحدت مع أصحاب المصانع الكبرى وظل هتلر يتردد بينما ازدادت همسات الاستياء والتذمر، فشعر بضرورة البت في الأمر، ولكنه لم يكن قد انتهى إلى الطريق التي ينبغي له أن يسلكها. ووقف جوبلز من ورائه قلقًا متأهبًا للانحياز إلى جانب المنتصر، وعندئذ ندم هتلر على انفصال جريجور عنه فالتقى في أحد الاجتماعات بصاحب الشركة التي كان يعمل فيها أخي وقال له: "جريجور هذا رجل طيب، ولابد لي أن أستدعيه".

وعلم "جرونج" بهذا التصريح الخطير فراح يشحذ سلاحه ويستعد للعمل. ومضى (ريم) يعمل بنشاط في ميونيخ دون أن يتصل بـ (جريجور) على الرغم من اتحادهما في المبدأ والغاية، ولم يلبث (ريم) أن أحرز أول نصر وهو حل جمعية ذوي الخوذات الصلبية ذات الصبغة الحزبية التي كان بعضدها رجال الجيش، ثم انطلق يناهض الجيش نفسه دون أن يفقه الحقيقة الواقعة، وهي أن التغلب على الجيش أمر من الأمور المستحيلة ما دام الرئيس (هندنبورج) على قيد الحياة؛ فبدلا من أن يكافح (شاخت) و(تيسن) وأمثالهما من أعداء الوطنية الاشتراكية الألداء جعل يغالب (فرتش) و(بلومبرج). وطلب في إحدى الجلسات الخاصة لمجلس الوزراء إلحاق فرق الهجوم بالجيش وإدماجها فيه على أن يحفظ ضباطها برتبهم في الجيش النظامي، ومعنى هذا أنه يطلب أن يتولى القيادة العليا للجيش وفرق الهجوم والدفاع معا.

وكان (ريم) يعتقد اعتقادًا تامًا أن هتلر يؤيده، كما كان يشعر شعورًا قويًا بأن "جوبلز" و"دارا" يقفان في صفه وتردد (فرنك) قليلًا ثم انضم إليه، أما هتلر فإنه ظل صامتًا لا يبدي رأيًا. ومرت بالمجلس لحظات خطيرة وساده جو رهيب عصيب لم يخرج هتلر خلاله من صمته العجيب حتى وقف "فون بلومبرج" وزير الدفاع الوطني وأعلن أن الرئيس (هندنبورج) لا يسعه إلا أن يفرض هذا الطلب، فقال هتلر دون أن يجرؤ على النظر إلى (ريم) صديقه القديم: "يقفل باب المناقشة" فاستشاط "ريم" غضبًا وانصرف على الفور.

وإني لأذكر أن الجنرال "فون رايشـو" أدلى بتصـريح بعد يوم 30 يونيه التاريخي لمندوب جريدة "بيتي جورنال" الفرنسية، أكد فيه أن الحكم بإعدام "ريم" قد وقع عليه بالفعل في ذلك اليوم الذي اجتمع فيه مجلس الوزراء.

وفي 28 مايو اسـتدعى الرئيس (هندنبورج) هتلر لمقابلته؛ وفي 7 يونيه نشـرت الصـحف بلاغًا رسميًا جاء فيه أنه قد صـرح للوزير (ريم) بأجازة لمدة بضـعة أسـابيع عملا بنصـيحة أطبائه، وبهذا الإجراء أظهر الرئيس (هندنبورج) أنه ينصـر الرجعيين الذين يتألفون من جماعة "فون بابن" و"نورات" و"مسـنر" أي أعيان الريف الذين يخشون اعتناق الجيش للمبادئ الاشتراكية، ومن جماعة "تيسن" و"كورب" و"شاخت" أي أصحاب المصانع الكبرى الذين يخافون تطبيق الاشتراكية على الصناعات الكبيرة.

ولكن هتلر لم يكن مرتاحًا لهذه النتيجة لأنه على علم تام بروح جنود الهجوم الثورية، كما كان يشـعر بأنه يعرض نفوذه للضـعف إذا هو تخلى عن رفقائه في الجهاد وعن الفكرة التي قام عليها الحزب؛ فهو والحالة هذه واقف عند مفترق طريقين: طريق يؤدي إلى الثورة السـلمية والنهضـة الداخلية وهو طريق (ريم) و(جريجور) و(فون شـليشـر)، وطريق آخر هو الطريق الإمبراطوري لألمانيا القديمة الذي لا بد من أن ينتهي بالبلاد إلى الحرب.

ولقد طبعت حينذاك منشورًا بعنوان "الثورة الاشتراكية أو الحرب الفاشستية"، ووزعت آلافا منه في جميع أنحاء ألمانيا.

وفي 13 يونيه استدعى هتلر – قبل سفره إلى البندقية للاجتماع بموسوليني – أخي جريجور، وكان الرجلان لم يتقابلا منذ تلك المشـــادة التي وقعت بينهما بســـبب دســـائس (فون بابن) و(جورنج) و(جوبلز) وقال هتلر: "إني أعرض عليك وزارة الاقتصاد يا هر شتراسر، وأرجوك أن تقبلها، إذ في وسعنا نحن الاثنين أن ننقذ الموقف ونصلح الحال".

قال جريجور: "قبلت يا هر هتلر، ولكن على شرط أن يبعد (جورنج) و(جوبلز) عن الوزارة لأن الرجل النزيه لا يمكنه أن يتعاون مع هذين الشخصين".

فهذه الإجابة التي أكد لي صحتها أخي (بول)، هي إجابة رجل نزيه كريم الخلق، ولكنها ليست إجابة رجل سياسي لأن طلب إبعاد "جوبلز" و"جورنج" في وقت واحد هو طلب أحمق لا يمكن تحقيقه. نعم كان من المســـتطاع تضـــحية (جورنج) إرضـــاء لجريجور، إذ كان (جورنج) يأبى أن يتخلى لهملر عن قيادة الجستابو في برلين، فنشأ من ذلك نزاع بين الرجلين. وكان هملر يصـــر على المطالبة بوضـــع جميع أقســـام البوليس تحت إمرته، ومال هتلر إلى تأييد مطلبه، أضـف إلى ذلك أن هتلر قد استاء من انحياز "جورنج" إلى الرجعيين، وأنه كان يريد في الوقت نفسه أن يصالح "جريجور".

أما "جوزيف جوبلز" فكان لابد من إبقائه بجانب الزعيم، إذ عهد إليه في التفاوض مع "ريم" على الرغم من أن هتلر أنكر عمله في الاجتماع الأخير لمجلس الوزراء.

ولقد فرضت على الكابتن (ريم) الأجازة فرضًا كما ذكرنا، ولكنه لم ينقطع عن العمل في أثناء هذه الأجازة، كما أنه لم يعدل عن مطلبه وفكرته.

وهنا يجب بنا أن نرفع جانبا من الستار الذي لا يزال مسدلا على أحد فصول المجزرة التي وقعت في يوم 30 يونيه. فلماذا قتل صاحب فندق (براتفورست– جلاوكل) في ميونيخ ورئيس الخدم وأحدهم في تلك الليلة التي حدثت فيها مذبحة مروعة كمذبحة (سان– بارتليمي) الفرنسية؟ أكان هؤلاء الرجال ثائرين، أو مأجورين خطرين أو خونة أو تابعين لفرق الهجوم؟ كلا لم يكونوا شيئًا من هذا كله، أما سبب اغتيالهم فهو يرجع إلى شيء آخر نذكره فيما يلي:

كانت توجد في هذا الفندق غرف خاصة يستطيع شخصان أن يجتمعا فيها ويتباحثان في الشئون السياسية دون أن يراهما أو يشعر بوجودهما أحد من الناس اللهم إلا صاحب الفندق والخادمين اللذين كانا يقومان بخدمة النزلاء، وكان الكابتن ريم والدكتور جوبلز مبعوث هتلر يجتمعان في إحدى هذه الغرف مرات عدة خلال شهر يونيه المشهور فماذا كانا يقولان؟.. إنهما لم يعرضا لأمور شائكة محرجة في بداية الحديث إذ كانا ينتظران نتيجة رحلة هتلر إلى البندقية؛ ففي يومي 14 و15 يونيه اجتمع الفوهرر مرتين بالسنيور "موسوليني"، ولم يوفق في هذين الاجتماعين للتأثير على الدوتشي، إذ كانت الحوادث التي وقعت أخيرًا في ألمانيا قد أزعجت موسوليني، فطلب إلى هتلر أن يأمر بوقف الاضطرابات التي كان يثيرها النازي في فيينا، وبالكف عن تهديد النمسا واستقلالها؛ فاضطر (الفوهرر) إزاء تمسك الدكتاتور الإيطالي بهذه المطالب أن يقطع على نفسه عهدًا باحترام استقلال النمسا ويمنع أعوانه من إثارة القلاقل فيها. ولكن موسوليني لم يقنع بهذا فنصح الفوهرر نصيحة ودية بأن يكبح جماح جماعة اليسار المتطرفة في الحزب الوطني الاشتراكي، وأن يلغي فرق الهجوم التي تؤلف دولة مستقلة داخل الدولة الألمانية، والتي يتولى أمرها رجل ثائر مثل "ريم" يعاونه رجال خطرون مثل "هنس" و"أرنست" وغيرهما من المغامرين المتطرفين، كما أعرب الدوتشي عن رغبته في عزل "جورنج" الذي يتهمه الناس في الخارج بأنه أشعل النار في دار الريخستاغ، وكذلك فصل "جوبلز" الذي جرؤ على التحدث عن إمكان القيام بثورة ثانية في ألمانيا...

وأصــغى هتلر إلى هذه النصــائح باهتمام، ولكنه جعل يتســاءل عما إذا كان الدوتشــي لم يحدثه بمثل الآراء التي تحدث بها إليه "فون بابن" و"ميســنر" وشــركاؤهما. ولكن من هو "ميســنر" هذا؟ ألم يكن مديرًا لمكتب الرئيس الســابق "إيبرت" قبل أن يشغل المنصب نفسه لدى الرئيس "هندنبرج"؟.. أليس "ميسنر" دساسًا تمامًا؟

واعتقد هتلر أن "فون هاسل" سفير ألمانيا في روما قد تلقى تعليمات خاصة من الرئيس "هندنبورج" والوزير "فون نيرات" وصــديقه "فون بابن"، وما من شــك في أن الدوتشي ينطق بلسـان هذه الشـخصيات، فصب "الفوهرر" جام غضبه على "فون بابن".

وقصــــد هتلر في 16 يونيه إلى ميونيخ حيث قابل الدكتور جوبلز، فأطلعه هذا الأخير على تقرير ضــــمنه المحادثات التي دارت بينه وبين "ريم" فقال الفوهرر: "دع عنك هذا الآن، إن لدينا مسائل أخرى تستحق النظر قبل هذه المسألة".

وفي 17 يونيه ألقى (فون بابن) وكيل المستشـار هتلر خطبة لم تدع مجالًا للشـك في نيته وغرضه، ولقد قام هذا الرجل بدور خطير في السياسة الألمانية أخطأ فهمه كثير من الناس لأنهم لم يقفوا على حقيقة هذه السياسة؛ فقالوا عن بابن إنه سياسي ماهر، وجرئ مغامر، وأنه الرجل الذي أوصـل هتلر إلى كرسـي الحكم، وفاتهم أنه طموح نهم ميت القلب والضـمير، فاتهم أن "بابن" لم يغفر لجورنج أنه انتزع منه وزارة بروســيا ولم يترك له سوى وكالة الاستشارة، ولم يعجب الذين لحظوا هذا الأمر الأخير من أن أربعة من مســــاعدي "بابن" قد قتلوا في مذبحة 30 يونيه، وأن بابن نفســــه أحس بالخطر يتهدده، وهكذا انتقم جورنج من خصمه الألد.

وقد كانت خطبة (بابن) بمثابة حرب أعلنها الرجعيون على الثورة، وهي تتضمن بضع عبارات قوية نذكرها فيما يلي لما لها من عظم الشأن والأهمية:

"لقد أزفت ساعة الاتحاد والتضامن، فعلينا أن نحترم بني وطننا ونشعرهم بمحبتنا الأخوية، وعلينا أن نكف عن عرقلة الجهود التي يبذلها الرجال الصادقون، وأن نسكت المتعصبين من أصحاب النظريات. ولقد ألغي نظام الأحزاب المتعددة بحق، وتولى حزب واحد السيطرة على البلاد، وعندي أن هذا التطور التاريخي هو مرحلة تمهيدية يجب أن تزول بعد الانتهاء من فترة الترميم والإصلاح. إذ ليس ثمة شعب يستطيع أن يحتمل لأجل غير محدود حركة البعث والإحياء التي ابتعثت من أسفل، إذا أراد هذا الشعب أن يخلد في التاريخ فيجب أن يوقف سير هذه الحركة يوما من الأيام، وأن يقوم نظام اجتماعي متين يدعمه تشريع عادل وحكومة قوية. ويجب ألا تكون ألمانيا كتلك "القطارات الزرقاء" التي تسير على غير هدى في طريق المفاجآت والمغامرات، والتي لا يعرف المرء كيف يستطيع أن يوقفها".

ولما اطلع هتلر على هذه الخطبة أرغى وأزبد، وعاودته الريبة والشك في إخلاص (بابن)، وأيقن أن هناك صلة وثيقة بين أعمال هذا الرجل والنصائح التي أسداها إليه السنيور موسوليني في مدينة البندقية؛ فأرسل الفوهرر في طلب الكابتن (ريم) الذي لا يستطيع أن يتخذ قرارًا دون رأيه، واستقبل (جوبلز) وأصدر إليه تعليماته وأوامره.

ثم بعث هتلر في طلب (فون بابن) بمدينة برلين، وكان (ريم) و(جوبلز) واثقين من استحالة الصلح بين الرجلين بعد تلك الخطبة التي ألقاها (بابن)، كما كانا على يقين من انتصار الثوار المتشددين.

واضطر (بابن) إلى الاستقالة من الوزارة بعد أن ثار هتلر في وجهه واتهمه بالعمل ضد الوحدة الوطنية. واستقال معه وزير المالية ووزير المواصلات. أما الجنرال بلومبرج فإنه لم يحرك ساكنًا إذ شعر بأن جماعة الرجعيين آخذة في الضعف.

هنا كان في وسع هتلر أن يخطو خطوة إلى الأمام، ولكن (ريم) روح الثورة كان غائبًا، ولزم بلومبرج وجورنج الصمت التام. وانزعج الفوهرر من استقالة البعض وسكوت البعض الآخر، وشعر بأن هناك مؤامرة تحاك خيوطها ضده، وتلفت فلم يجد سوى "ريم" و"جوبلز" واقفين بجانبه، فوطن العزم على محاسبة هؤلاء الرجعيين حسابًا عسيرًا ومعاقبتهم أشد عقاب في القريب العاجل. ولكن كان عليه أن ينال قبل كل شيء موافقة الرئيس "هندنبورج" على تأليف وزارة جديدة تستند إلى المبادئ الأصلية المشتركة.

وفي 21 يونيه بلغ هتلر مدينة "نوديك" حيث كان يقيم الرئيس "هندنبورج" يعاني وطأة المرض والشيخوخة. وصحب الفوهرر، الدكتور "جوبلز" و"هوفمان" و"شروك"؛ فاستقبلهم عند سلم القصر الجنرال "بلومبرج" وزير الحربية والكابتن "جورنج"!! فدهش هتلر دهشة كبيرة، وبادره "بلومبرج" بقوله:

"لقد أطلعني "فون بابن" على الأمر، فأرسـل الرئيس في طلبي كما اسـتحضـر الكابتن "جرونج" بوصـفه رئيسًـا للبوليس، وقد كلفنا نحن الاثنين بأن نضـع معكم التدابير اللازمة لاسـتتباب السـلام في البلاد فإذا لم يتم الاتفاق بيننا في أقرب وقت تفاديًا لحدوث أزمة وزارية فلا مناص من إعلان الأحكام العرفية. ونظرًا لمرض الرئيس فإنه يأسف لعدم قدرته على استقبالكم".

فبدت على هتلر وصحبه علامات الدهشة والذهول، ثم قال:

"ولكني لا بد لي أن أتحدث بنفسي إلى الرئيس".

فانطلق "بلومبرج" ثم عاد بعد لحظات، وقال:

"أرجو أن تصحبني وحدك إلى الرئيس وينتظرنا أصحابك هنا".

ودخل هتلر يصـحبه "بلومبرج" على الرئيس "هندنبورج"، فأعاد الرئيس على مسـامعه الأقوال التي سمعها منذ لحظات من الجنرال "بلومبرج". واسـتغرقت هذه المقابلة أربع دقائق، انصـرف هتلر على أثرها حانقًا مكتئبًا.. أما "جورنج" و"بلومبرج" فقد بقيا في "نوديك".

نعم بقى "جورنج" في "نوديك" بجانب "هنـدنبورج" على الرغم من أنه كان عضـوًا من أعضـاء الحزب ومدينًا بكل شـيء لزعيمه!. وها هو ذا الجيش والشـرطة يقفان في وجه فرق الهجوم كما يقف "بلومبرج" و"جرونج" ضد "هتلر" و"ريم"!

أما جوبلز فراح يفكر في الأمر ويلحظ هتلر من طرف خفي، يثور تارة ويذهل أخرى. أو لم يخن هذا الشيطان الأعرج (جريجور شتراسر) في بامبرج و(ستنس) في برلين؟ فماذا يمنعه من أن يغدر بالفوهرر نفسه إذا لم يعدل عن رأيه؟

إن جوبلز يعلم تمام العلم أن القوة للجيش، وأن هتلر لا يجهل ذلك، وسوف ينزل الفوهرر عن رأيه ما في ذلك شك. إذن لا بد من ارتكاب خيانة صغيرة نعم، لقد تفاوض جوبلز مع ريم، ولكنه لم يقطع عهدًا فهو – أي جوبلز – حر طليق، لا يرى بأسًا في أن يضحي بصاحبه ريم.

أما هتلر فلم تكن له تلك البديهة السريعة التي كان يتمتع بها محظيه الدكتور "جوبلز"، فجعل يفكر مليا في الأمر ويقلبه على جميع الوجوه، فخيل إليه أنه من الخير أن يرجئ تنفيذ قراراته حتى يقضي الرئيس الهرم، إذ قد يضر مهاجمة هؤلاء الأعداء الآن بمصير الحزب، ولكن لا بد له والحالة هذه أن يعفو عن (بابن) وأنصاره، وأن يحتمل جرأتهم عليه وعصيانهم له، إذ من الحماقة والهوس أن تقف فرق الهجوم في وجه الجيش والشرطة، وفضلا عن ذلك فإنه لا يثق كل الثقة بفرق الهجوم وبالكابتن ريم، ذلك المخلوق الفظ المتشدد. هذا بينما كان "ريم" في ميونيخ يرقب تلقي الأمر من الفوهرر، ولكنه لم يتلق شيئًا حتى بعد زيارة هتلر للرئيس!

وأخيرًا أرسل ريم إلى الفوهرر ينصحه بأن يدعو رؤساء فرق الهجوم للاجتماع في أقرب وقت، وأن يشهد الزعيم هذا الاجتماع، فعمل هتلر بهذه النصيحة وكتب بيده البرقية التالية:

"على رؤساء فرق الهجوم ووكلائهم أن يحضروا الاجتماع الذي تقرر عقده في الساعة العاشرة من صباح 30 يونيه في مقر القيادة العامة في (فيسزي)– أدولف هتلر".

ثم تقابل هتلر مع "فون بابن"، وعقد معه صلحًا مؤقتًا، إذ كانت فكرة القيام بمناهضة جماعة قوية تتألف من جميع المحافظين الألمان فكرة محفوفة بالمخاطر، فلا بد من التريث والصبر، ولكن الفوهرر كان لا يزال يقاسي ألم التردد والإحجام، فتوجه إلى مقاطعة "رينان" لزيارة مصانع كروب.

وكان كروب وجورنج متفقين في الرأي، فهما لا يقنعان بهدنة وقتية ويطالبان بتصفية الحساب مع رجال "الثورة الثانية" على وجه السرعة؛ فهدد "كروب" بالتخلي عن الحزب إن لم تكمم أفواه "البلاشفة"، وراح "جورنج" يعمل بنشاط لتحقيق هذا المطلب، فهو يعلم أن الرئيس "هندنبورج" قد عقد النية على إعلان الأحكام العرفية إن لم يقبل هتلر ما عرضه الرئيس عليه، وهو يمقت "ريم" منذ أن اتهمه بالجبن في يوم 9 نوفمبر سنة 1923 وهو على علم بالمنافسة القائمة بين "هملر" و"ريم"، ويعتقد أن "هملر" لن يتردد في إلحاق الأذى بعدوه، وهو لا يخشى "جوبلز" لأنه ينحاز بسهولة إلى جانب القوي، وفي وسع "جورنج" كرئيس لشرطة برلين أن يحصل على وثائق تضر بسمعة "ريم"، وقد كان له ذلك، وسرعان ما أحيط (الفوهرر) علما بما تضمنته هذه الوثائق.

فعلم هتلر أن "ريم" وهو على رأس فرق الهجوم لن يهدد الجيش والوزراء وأصحاب المصانع فحسب بل سيذهب إلى أبعد من ذلك فيثور في وجه (الفوهرر) نفسه.

وراح أعداء "ريم" يدسون عليه برقيات مزيفة كبرقية (رمس) المشهورة. وفي تلك الأثناء تلقى هتلر برقية حقيقية من "ريم" طلب فيها بلهجة الإنذار أن يبت (الفوهرر) في الأمر على وجه السرعة، فرد عليه هتلر بهذه العبارة الموجزة: "ستتخذ القرارات النهائية في اجتماع الزعماء"

فجعل "ريم" الذي لم يدهشـــه تردد هتلر، يعد العدة في (فيس زي) للاجتماع. ووفد على فندق (فيس زي) نزلاء أكثر ممن كانوا يفدون عليه في المعتاد، فامتلأ الطابق الأول بجماعة من الســـائحين القادمين من برلين، كانوا في الحقيقة من رجال الجستابو التابعين لجورنج، ولم تداخل "ريم" الريبة في أمرهم فقال لصاحب الفندق أنه يكتفي باحتجاز غرف الطابق الأسفل.

وفي مســـاء يوم 29 يونيه رفع "جوبلز" تقريرًا إلى (الفوهرر) جاء فيه: "الرئيس هندنبورج يرغب في إقالة ريم رسميًا قبل حلول أول يوليه. وإذا لم تتخذ التدابير اللازمة في خلال أربع وعشرين ساعة فإن الجيش سيتولى تجريد فرق الهجوم من سلاحها، ولن يحجم عن إسقاط أدولف هتلر نفسه".

وهنا يجدر بنا أن نلقي نظرة على الخطاب الذي ألقاه هتلر بعد وقوع المذبحة محاولًا فيه تبرير جريمته الشنيعة، حيث قال: "تلقيت في الساعة الثانية بعد منتصف الليل من برلين وميونيخ برقيتين خطيرتين علمت منهما. أولًا، أن فرق الهجوم في برلين قد أعدت سيارات خاصة لنقل جنودها ومهاجمة دور الحكومة واحتلالها في الساعة الخامسة صباحًا. ولذلك لم يتوجه "أرنست" أحد رؤساء فرق الهجوم إلى "فيس زي" بل ظل في برلين ليتولى قيادة هذه الحركة. ثانيًا، أن جنود الهجوم في ميونيخ قد أحيطت علمًا منذ الساعة التاسعة مساء بأنهم يجب أن يكونوا متأهبين للطوارئ".

فما من شـــك في أن الذي أرســـل هذه الأنباء الكاذبة المختلقة هو الكابتن "جورنج"، ودليلنا على ذلك النبأ التالي الذي نشرته صحيفة "برمن" في 3 يونيه.

(اعتقل "أرنست" ومساعده "كرشبوم" في يوم 30 يونيه، وحمل الأول إلى برلين على متن طائرة، وقد ألقي القبض في الوقت نفســـه على زوجة "أرنســـت" وأطلق سراحها في يوم 2 يوليه).

فيتضـح من هذا أن طائرة خاصـة حملت "أرنسـت" إلى برلين بأمر الجسـتابو، ويشـــهد بكذب هتلر في خطبته المشـــار إليها ما كنت أعلمه علم اليقين من أن "أرنسـت" قد حجز محلين في إحدى البواخر للسـفر إلى الخارج تصـحبه زوجته لقضاء شـهر العسـل، ومن عجب أن (أرنسـت) كان يجهل أسباب اعتقاله كل الجهل حتى أنه هتف عند صـعوده إلى المقصـلة. (يحيا هتلر) احتجاجًا منه على الذين ائتمروا به من حزب اليمين.

وبعد، فلنعد بالقارئ إلى ســير الحوادث فنقول أن تقارير "جوبلز" وإنذارات "جورنج" انتهت بحمل (الفوهرر) على التعجيل بالبت في الأمر، فاتصـــل هتلر بوزيره "فاجنر" البافاري المخلص إليه بتعليمات خاصـــة به، ثم اســـتقل الفوهرر بصـــحبة "جوبلز" طائرة قصد بها إلى ميونيخ.

وإلى القراء تفصيل الحوادث التي وقعت كما رواها لي شهود عيان ورجال كانوا في (فيسزي) ثم اضطروا إلى الفرار من ألمانيا، وكما رواها أيضًا جنود الهجوم الذين استطاعوا أن ينجوا بحياتهم من تلك المذبحة الهائلة، وصديق للطيار "أوديت" وحارس السجن الذي كان فيه أخي "جريجور".

أصدر الوزير (فاجنر) أمره إلى جميع رؤساء فرق الهجوم الذين كانوا في ميونيخ بأن يجتمعوا في وزارة الداخلية ليستقبلوا هتلر استقبالًا رسميًا. وأعد لهم مائدة كبيرة جلسوا من حولها، ورصد لكل منهم رجلًا مكلفًا بتنفيذ الأمر عندما تصدر به إشارة متفق عليها.

ثم طافت بهم أقداح النبيذ والجعة، وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث ويتناوبون الخطابة حتى تنفس الفجر، فدق جرس التليفون منذرًا بوصول (الفوهرر) إلى معسكر الطيران، فأصدر (فاجنر) إلى رجاله الإشارة الموعودة فانقضوا عليهم وجردوهم من سلاحهم وحملوا عليهم بأعقاب البنادق وأقداح الجعة حتى قتلوهم عدا الطيار (أوديت) الذي فر هاربًا في دهاليز الوزارة، فوقع على هتلر، فصاح به كالمجنون.

"أفقدت عقلك، لماذا تفعل بنا هذا؟ إن ريم لم يأت ذنبًا، إنه رئيسنا!".

فامتقع لون هتلر وتمتم قائلًا: "لن يمسك أحد بسوء!".

وقد اســتطاع "أوديت" أن ينجو دون أن يعترض طريقه إنســان، بل اســتطاع أن يمكث في ألمانيا، وهو يشغل اليوم منصبًا مهمًا.

ودخل هتلر الغرفة التي وقعت فيها المذبحة فوقعت عيناه على تسعة رجال منطرحين على الأرض، رءوسهم مهشمة وأجسامهم مثخنة بضربات المدي والسكاكين، وكان من بينهم "شــندهوبر" و"شميت" و"دى مولان". وكان واقفًا بالباب أبطال المذبحة وجلادوها وهم: "فاجنر" و"أيســر" و"موريس" و"فيبروبوخ". ومع ذلك لم يســتح "جوبلز" من أن يقول في خطبته التي أذاعها بالراديو في أول يولية: "وتقدم الفوهرر وحده نحو "شميت" و"شندهوبر" والآخرين، وانتزع من أكتافهم أوسمتهم العسكرية".

وكانت ســيارة هتلر المدرعة واقفة بباب الوزارة فاســتقلها وانطلقت به صــوب "فيســزي" تتبعها سـيارة "موريس" و"ديتريش" و"شـوب" و"بروكنر". ولما بلغوا فندق ريم وجماعته ضربوا عليه الحصار بسرعة البرق واستقبلهم رجال الجستابو الذين كانوا مقيمين بالفندق منذ حين بينما كان "ريم" وعصبته مستغرقين في نومهم بالطابق الأسفل. وانقض رجال هتلر أولًا على الغرفة رقم 5 حيث كان الكونت سبريتي فاعتقلوه في فراشـه، وكان هنس يقيم بصحبة سائق سيارته في الغرفة رقم 9 فاستيقظ فجأة وشهد مسدسي بروكنر وموريس مصـوبين نحوه، فالتمس سـلاحه، فدق أحدهما رأسـه، وجره في قميص النوم إلى الدهليز حيث دوى طلق ناري أعقبه آخر توفي على أثرهما هنس وسائق سيارته.

أما هتلر فقد قصـــد إلى الغرفة ذات الرقم الســابع ودار بينه وبين قاطنها الحوار التالي:

ريم (بصوت يخالطه النعاس)– من بالباب؟

هتلر– أنا هتلر افتح الباب سريعًا.

ريم– أقدمت الآن؟ لقد كنت أنتظر قدومك عند الظهر.

ونهض ريم، ففتح الباب فارتد خطوتين فأمطره هتلر وابلا من الشـــتائم، فذهل ريم وارتج عليه ولكنه لم يلبث أن كر على هتلر في لهجة عنيفة، وقفل الباب عليهما وانطلقا يتناقشان برهة، ثم طلع هتلر على رجاله وصاح بهم "شدوا وثاقه!" فانقضوا عليه وشدوا يديه وقدميه وخلفوه في الدهليز ينتظر ما سيقضى به صديقه هتلر! ولقد شهده صاحب الفندق على هذه الصـورة فرفع يده وصـاح في سـذاجة: "يحيا هتلر". فأجاب ريم بتحية أهل الجنوب: "عليك سلام الله!".

وهنا اعتذر هتلر عما سـببه لصـاحب الفندق من القلق والانزعاج، ثم أخذ طريقه إلى ميونيخ تصحبه عصبته وحملوا معهم (أوهل) الذي أيقظوه من نومه وشدوا وثاقه كما حملوا (ريم)، هذا الثائر الخطر الذي لم يكن له حارس خاص كغيره من زعماء الحزب!

قال هتلر في خطابه بمجلس الريخستاغ بعد وقوع المذبحة التي نحن بصددها "لقد فاجأت الثوار"، وهو يعني ريم وجماعته. ولكن ألم يكن هتلر نفسه هو الذي أرسل إليهم برقية بأن يجتمعوا، ووعد بأن يحضر اجتماعهم؟ فكيف فاجأهم إذن وماذا كانوا يعملون؟ لقد فاجأهم مستغرقين في سباتهم، فهل كانوا يأتمرون به في مضاجعهم؟ يا لها من مفاجأة تسجل لهتلر في سجل البطولة والمجد!!

وفي الطريق أوقف رجال الحرس الأسود سيارات فريق من رؤساء فرق الهجوم الذين كانوا في طريقهم إلى (فيسزي) تلبية لدعوة (ريم). بينما تولى هيس أمر (البيت الأسمر) في ميونيخ، واستبدل حراسه الذي كانوا من فرق الهجوم بحراس من فرق الحرس الأسود. وهنا دقت ساعة الانتقام.

وبلغ هتلر سجن (ستادلهم) فاقتحم ساحته عبوسًا مكفهرًا، وطاف بالسجناء مصطفين، وصاح بهم "أيها الخونة الكلاب، إني قاتلكم جميعًا!"

كان هؤلاء الخونة الكلاب رفقاء هتلر في الجهاد ومعظمهم من أبطال الحرب العظمى. فها هو ذا (بيتر هيديريك) الضابط الباسل وبطل (أنابيرج). وها هو ذا (ولهم هاين) أحد الضباط القدماء والمحاربين المغاوير في البلطيق. ثم ها هو (فريتز)، فارس كروسر يحمل وسام ماكس جوزيف. ها هم ورفقاؤهم جميعًا معرضة صدورهم لبنادق الحرس الأسود. بينما كان ريم يطل من كوة السجن على أصدقائه ورفقائه وهم يسقطون الواحد تلوا الآخر تحت طلقات البنادق.

وأمر هتلر بأن يوضع مسدس على مائدة ريم في سجنه، مصحوبًا بهذه الكلمة:

"إنك ضـــابط قديم من ضـــباط الجيش فأنت عارف ماذا عليك أن تفعل في هذه الحالة".

ولكنه صـــاح بأعلى صـــوته: "كلا لن أقتل نفســـي وليقتلني هتلر، وعليه "وزر الجريمة".."

فأمر هتلر بقتله، فقتل هذا الرجل الذي كتب إليه هتلر منذ ستة شهور فقط يقول:

أكتب إليك يا عزيزي "أرنســـت ريم" لأشـــكرك على الخدمات الجليلة التي أتيتها للحركة الوطنية الاشـــتراكية والأمة الألمانية، ولكي أؤكد لك أني أحمد الله على أنك أحد أصدقائي وشركائي في الجهاد "أدولف هتلر".

ولقد ذكرت صحيفة "يونايتد برس" أن ضحايا مذبحة ميونيخ يقدرون بمائة وعشرين قتيلًا، ولكني أعتقد أن هذا الرقم أقل بكثير من العدد الحقيقي. هذا بينما كان جورنج يشـرف في برلين على مذبحة أخرى أعنف من مذبحة ميونيخ وأوســع نطاقًا، إذ كانت هذه الأخيرة مذبحة ارتجالية قام بها رجل طار لبه وفقد وعيه، أما تلك التي وقعت في برلين وأخواتها اللاتي أعقبتها في الأقاليم فقد دارت رحاها طبقًا لتدبير محكم ونظام موضـوع منذ زمن طويل.

قال "جورنج" مفتخرًا في خطبته التي ألقاها في أول يوليو محاولًا تبرير الجريمة: "لقد وسعت نطاق التطهير؟". فما كان أجدره بأن يعترف بأنه ضاعف هذا النطاق عشرات، بل مئات المرات! إذا انطلق الوحش "جورنج" من عقاله فقلما توجد قوة توقفه عند حده وترده إلى صوابه. إن "جورنج" لم يتلق أي أمر بقتل مئات الرجال الذين ذهبوا ضحية وحشيته في بروسيا، إنه قد روى غلته وانتقم لنفسه من خصومه الشخصيين مستترا وراء الخصومة السياسية، ولست أذكر هنا سوى جرائمه المشهورة.

فتلك المؤامرة التي اتهم بتدبيرها الجنرال "شليخر" و"ريم" وأخي "جريجور" والجنرال "بريدوف" لم تكن سوى خرافة مختلفة، كما كانت مسألة العلاقات السرية التي زعم النازي وجودها بين الجنرال (بريدوف) والمسيو (فرانسوا بونسيه) سفير فرنسا في برلين. وبمقتضى هذه التلفيقات اتهم هتلر هؤلاء الوطنيين الصادقين بالخيانة العظمى، ولكنه لم يقدمهم إلى القضاء، بل اعتقلهم وألقاهم في السجن، ثم قتلهم!

وبينما كان الجنرال "شليشر" يطالع إحدى الصحف في داره فاجأه ستة من أشقياء النازي وهو جالس وظهره إليهم، وصاح به أحدهم: "هل أنت الجنرال شليشر؟".

فالتفت إليهم الجنرال وقال "نعم، ما في ذلك شك".

فأطلقوا عليه مسدساتهم في وقت واحد فسقط مضرجًا في دمائه، وأسرعت إليه زوجته فقابلها الأوغاد بطلقات أخرى فهوت تتخبط بجانب زوجها. ولقد علم الجنرال (بريدوف) بمقتل صديقه في مساء اليوم نفسه وأخذ طريقه إلى منزله كالمعتاد دون أن يفكر في الفرار أو الاختفاء، فهل كان يفعل هذا لو أنه ائتمر بهتلر وحزبه؟ ولما بلغ باب داره دوت طلقتان في أحشاء الظلام فسقط الجنرال قتيلًا بدوره.

وبينما كان أخي جريجور يتناول طعام الغذاء مع أسرته طلع عليه ثمانية جنود من الجستابو فاعتقلوه بدون سؤال أو كلام، وانطلقوا به إلى سجن (البرنس أريرختشراس) حيث وضع في (زنزانة) خاصة ظل فيها اثنتا عشر ساعة، وإذا به يلمح مسدسًا مصوبًا إليه من كوة (الزنزانة) دوى منه الطلق الأول فانكمش جريجور في إحدى الزوايا، ولكن (هايدرخ) المشهور و(أيك) – السفاح الذي يتولى الآن إدارة معسكرات الاعتقال الألمانية – اقتحما عليه الزنزانة، وأمطراه وابلًا من الرصاص فراح يتخبط فأجهز عليه هايدرخ بضربة في قفاه. ولقد قص علي هذه التفاصيل الرجل الذي كلف بإزالة الدم من الحيطان وإخفاء الأثر الذي أحدثه الرصاص فيها بعد أن فر إلى براج حيث قابلته.

على أن "شليخر" و"جريجور" و"بريدوف" لم يكونوا إلا في طليعة المذبحة التي أشرف عليها "هملر". وتوالت الاعتقالات واصطف المعتقلون في ساحة مدرسة "لشترفلد" الحربية حيث أعدموا رميًا بالرصاص. وفي وسعي أن أذكر مئات ممن أعرفهم وقتلوا على هذه الصورة الشنعاء فقد كان من بينهم ديتن وجرت ونيلوفيز ومركر ومور نفلد وكارل كوخ وهك وكراوسه وشريدر وشرايبر وغيرهم...

وبينما كانت فرق الهجوم تحصد الأرواح وتهدر الدماء أصدر هتلر أمرًا إلى الصحف يحظر عليها نشر أنباء هذه الوفيات، فكان في هامبورج بعد مضي عام على يوم **30** يونيه أناس يجهلون ما إذا كان أصـــدقاؤهم في ميونيخ أو برلين أو غيرهما إحياء أم أموات! وكان بين الضحايا زعماء الكاثوليك وسكرتير يوفون بابن وجميع اليهود وأعضاء جمعية الخوذات الصليبية وفريق من الشيوعيين في سيلزيا وهرشبيرج.

ولقد أحرز "جورنج" قصب السبق في هذه المذابح المروعة، على أن هتلر يمتاز بأنه انتقم من أشـخاص كان قد خاصـمهم منذ أحد عشـر عامًا، فليس ثمة من يجهل اليوم أن فون كار ذلك الشـيخ الذي كان في الثالثة والسـبعين من عمره، قد اعتقل وهو في فراشـه وحمـل إلى "داخـاو" حيـث عـذب ونكـل بـه حتى فـاضـــت روحـه، وطرحـت جثتـه في المسـتنقعات المحيطة بمعسـكرات الاعتقال. وكان ذنب هذا الشـيخ الهرم أنه لم يؤيد الفتنة التي أثارها هتلر وعصابته في ميونيخ عام **1923**.

وكلنا يعلم أن الهر "باللرشـــتيدت" اغتالته جماعة من فرقة الموت لأنه منع الهتلريين من مهاجمة أحد الاجتماعات في ميونيخ، وقدم ضدهم شكوى أدت إلى الحكم على هتلر بالسـجن ثلاثة شـهور. وليس في ألمانيا من يجهل أن هتلر أمر بقتل الأب "شـتمفلن" لأنه صـحح كتابه كفاحي في نسـخته الأصـلية وأطلع بذلك على ما تضـمنه هذا الكتاب من أغلاط تاريخية وجهل مزر.

ولقد غشـــيني حزن عميق لمقتل أخي "جريجور"، وعدت لا أفكر إلا في اللحاق بأخي "بول" الذي كان على اتصــال بالفقيد فعرف أفكاره وخواطره في الأيام الأخيرة من حياته. وكان بول يكبرني ســنًا وذا قلب طيب رحيم، وكان ضـــابطًا مثلي خلال الحرب الماضية، وقائدًا لفرقة المدفعية التي عبرت في أغسطس عام **1918** نهر المارن عند دورمان وصــمدت فيها للعدو مدى يومين. وقد جرح في هذه الموقعة فصـرح له بالبقاء في مؤخرة الجيش، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها التحق بدير (البنيدكتين).

وقد رحل بول بعد مذبحة **30** يونيه إلى روما حيث كان يكاتبني على الدوام. وكم كنت مشـتاقًا لرؤيته حتى التقينا في النمسـا في ربيع سـنة **1936** فجعلنا نتحدث بضـعة أيام وليال عن فقيدنا المرحوم، فقال بول: "ومن عجب أنه منع هتلر من أن يقتل نفسه!".

قلت: "متى كان ذلك؟"

قال: "بعد أن قتل هتلر ابنة أخته (جيلي)".

فاهتزت نفسي لهذا النبأ وقلت: "أأنبأك هذا بنفسه؟".

قال: "نعم. ولقد عاهدته على أن أكتم الخبر، بعد أن قص علي أنه أمضـــى ثلاث ليال مع هتلر الذي انتابته حالة عصـبية أشـبه بالهوس والجنون على أثر عراك نشـب بينه وبين الفتاة واشتد فقتلها رميًا بالرصاص، وقد أراد أن ينتحر فمنعه "جريجور"!".

قلت: "أتعرف من شهد هذه الجريمة، وكيف وقعت بالتفصيل؟".

قال: "لا أدري أكثر مما ذكرت، إذ لم ينبئني جريجور بغير ذلك. ولولا ما غشـيه من غم شديد وأزمة نفسية عميقة لما أفضى إلي بهذا الخبر، ولكني حفظت سره حتى رحل عن هذه الدنيا".

قلت: "ولكن هتلر. يا أخي، لم يكن شخصية كبيرة في عام 1931 فكيف لم يحاكم أمام القضاء عن جريمته؟ أأخبرك جريجور عن سبب ذلك؟"

قال: "نعم. لقد بدأ التحقيق في ميونيخ، ووجه النائب العام الذي يعيش في المنفى منذ ولي هتلر الحكم، تهمة القتل إليه، ولكن (جورتنر) وزير العدل في بافاريا اسـتطاع أن يخنق القضية، وأذاع أن الفتاة قد انتحرت".

فصحت قائلًا: "جورتنر" ألا لعنة الله على هذا الرجل! ولكن ألم يكن هناك شهود آخرين؟".

قال: "نعم. كان ثمة شاهد واحد وهو (جرلخ) رئيس تحرير جريدة (الطريق المستقيم) وقد قتل في نفس اليوم الذي قتل فيه جريجور، لأنه قام لحسـابه بتحقيق في جريمة هتلر واستطاع أن يقيم الدليل على إدانته، وربما كان فوس محامي جريجور، على علم بالجريمة، إذ كان يحفظ لديه جميع أوراق أخي السـرية، ولذلك قتل الرجلان (جرلخ وفوس) في تلك المذابح الوحشية.

ولما كنت بباريس في نوفمبر 1939 نشرت في جريدة (الجورنال) تلبية لطلبها بضع مقالات تناولت فيها مقتل (جيلي) واتهام هتلر بقتلها. وبعد ذلك بثلاثة أيام تقدم إلي رئيس تحرير جريدة "كروييه دوتريش" وسألني قائلًا: "أتعرف الأب بانت؟". قلت: "كلا، إني لا أعرفه شخصيًا ولكني أعلم أنه أقام في ميونيخ، وأنه شقيق لزعيم الألمان المناهضين للنازية في بولونيا".

قال: "هذا صحيح، ولقد كلفني الأب بانت، وهو الآن في المنفى بأن أبلغك هذه الرسالة حرفيًا:

"أنا الذي أشرفت على دفن (جيلي) التي تحدث عنها أوتو شتراسر. ولقد زعموا أنها انتحرت، ولكني ما كنت أسمح قط بدفن منتحرة في أرض طاهرة، وبما أني قبلت أن أشيعها في جنازة مسيحية فيمكنك أن تستنتج من هذا نتائج صادقة قد حرم علي توضيحها".

الفصل العاشر

هتلر إمبراطور أوروبا

لا جدال في أن يوم 30 يونيه كان يومًا فاصـلًا في تاريخ الحركة الهتلرية، إذ اختار هتلر في ذلك اليوم الطريق المؤدية إلى الحرب. لقد كانت الثورة الوطنية الاشتراكية حتى ذلك العهد، أمل أوروبا في توطيد أركان السلم وتجنيب العالم ويلات حرب جديدة. ولم يكن هتلر يدرك معنى الوطنية الاشتراكية حق الإدراك، كما أنه لم يفهم قوانينها الجوهرية وما تنتجه من ثمار طيبة، وكان يخشى عواقبها كما يخشى الساحر المبتدء أن يعجز عن إيقاف القوى التي أطلقها من عقالها؛ فاحتمى هتلر بأكناف النظام القديم خوفًا من المستقبل المجهول، وفضل المبادئ البروسية على المبادئ الثورية التي اعتبرها مشوشة غير واضحة..

وربما اعتقد هتلر أنه قادر على أن يعود إلى هذه المبادئ الثورية عندما يحين الوقت المناسب، وربما لا يزال مؤمنًا بقدرته على امتلاك ناصية الحوادث... بيد أن للحوادث منطقًا ونظامًا لا تستطيع الإرادة البشرية أن تغير منهما شيئًا. ولم يكن ثمة بد من أن يؤدي التطور الذي أعقب مذبحة 30 يونيه إلى الطامة الكبرى.

ففي 15 يوليه التالي قلد هتلر الدكتور "شـاخت" مدير مصـرف الرايش، وزارة الاقتصـاد الوطني فأصـبح بذلك قابضًـا على زمام الشـئون المالية والاقتصـادية معًا، وانطلقت ألمانيا تتسلح بسرعة هائلة.

وفي 16 مارس سنة 1935 أعيد نظام الخدمة العسكرية الإجبارية.

وفي 7 مارس 1936 أعيد تسليح منطقة "الرين".

وفي 24 أغسطس 1936 رفعت مدة الخدمة العسكرية إلى عامين.

أما في ميدان السـياسـة الخارجية فقد كانت سـنة 1937 مكتظة بالأحداث المهمة حيث تألف محور روما – برلين، وأبرم الميثاق المناهض للشـيوعية، وتدخلت ألمانيا في الحرب الإسبانية الأهلية، وأصبح الرايش على قدم الاستعداد للغزو والفتح.

وفي مارس سـنة 1938 دخلت الجيوش الألمانية عاصـمة النمسـا، وما من أحد يجهل الأسـباب الحربية والسـياسـية التي دعت إلى احتلال النمسـا، ولكن هناك سـببًا آخر لهذا الاحتلال أغفله كثير من الكتاب، ألا وهو أن هتلر لم يعد أجنبيًا في ألمانيا بعد انضمام النمسا إليها.

وبعد أن اسـتولى هتلر على (فيينا) بدأ يرنو بعينيه إلى (براج) فاحتل في سـبتمبر عام 1938 بلاد السـوديت، واغتصـب في 15 مارس سـنة 1939 عاصـمة تشيكوسلوفاكيا.

وبعد ذلك ببضعة أيام استولت ألمانيا على (ميمل) ثم لم تلبث قليلًا حتى بدأت دعايتها ضـــد بولونيا. ولقد تتابعت كل هذه الحوادث طبقًا لخطة موضـــوعة من قبل آخر تنفيذها بعض الطوارئ، ولكنها لم تغب عن فكر هتلر لحظة واحدة.

وأخيرًا اجتازت جيوش الرايش في ســـبتمبر ســـنة **1939** الحدود البولونية فاشتعلت نيران الحرب. على أن نتائج هذه الاعتداءات المتتالية لم تكن هي الأغراض التي قصـــد إلى تحقيقها الدكتاتور النازي إذ كانت ســـياســـته التي لم تتغير طوال تلك الســـنين تدور حول تحالف ألمانيا مع إيطاليا وإنجلترا ضـــد عدوين دائمين هما فرنســـا وروسيا، وباتباعه هذه السياسة كان هتلر متفقًا مع جماعة الوطنيين المتطرفين ومختلفًا بعض الاختلاف مع البروسيين الذين كانوا يؤيدون فكرة التحالف مع روسيا. وهؤلاء البروسيون يتمثلون في أعيان الريف ويؤخذ من بينهم ضباط الجيش البري. ومنذ قرون عدة يعتقد البروسيون أن ليس لهم سوى أعداء ثلاثة: فرنسا والنمسا وبولونيا.

ولكن منذ أن ولدت الرأسمالية الألمانية في عام **1871** واتســـع نطاق التجارة الدولية للرايش الثاني نبتت فكرة جديدة في أوساط الوطنيين الأحرار يؤيدها أصحاب الأموال الطائلة والمصانع الكبرى.

وهـذه الفكرة هي مـذهـب الوطنيين المتطرفين Pangermanisme الـذي يرمي إلى بســـط الســـيادة الجرمانية على أوروبا، وإلى التحالف مع إنجلترا لمصـــلحة التجارة الألمانية، ويضـمر أنصـارها لفرنسـا وروسـيا عداءً شـديدًا، ولقد انضـم إليهم رجـال البحريـة الحربيـة الـذين كـان معظم ضـــبـاطهم ينتمون إلى كبريات الأســـر (البورجوازية) في المدن، وكان هذا المذهب أقرب المذاهب إلى سياسة أدولف هتلر.

وهكذا بات هتلر بعيدًا عن برنامج الحزب الوطني الاشـتراكي الذي كان يسـعى لتحقيق الحرية والوحدة الألمانية، كما كان يريد أن تكون ألمانيا عضـــوًا في الأســـرة الأوربية طبقًا لشـــعار زعيمه الروحي (مولرفان دون بروك) القائل: "لقد كنا جرمانيين، ونحن الآن ألمان. وسنكون غدًا أوروبيين".

نعم، لقد أنكر هتلر مبادئ الحزب الأصلية وانحاز إلى جانب الرجعيين. فهو لم يعد

تابعًا لهم ماليًا فحسب، كما لم يضح في سلبيهم بسياسية الحزب الداخلية فقط، بل أصبح يجد فيهم سياسيين لا تخيفهم ولا تدهشهم مشاريعه الجنونية للسيطرة على العالم.

وطبيعي أن هتلر لم يستطع أن يكشف القناع عن أغراضه الحقيقة بين عشية وضحاها، فقد كان ولا يزال مضطرًا إلى ترديد الكلمات الثورية لكيلا يفقد ثقة أنصاره فيه، فكان يتحدث بالاشتراكية حين قلد شاخت وزارة الاقتصاد، وكان ولا يزال يتشدق بالمساواة بين أفراد الأمة بينما يلقي بالآلاف من مواطنيه في معسكرات الاعتقال، وكان يتغنى بالطرق والحلول السلمية في الوقت الذي كان يسيم فيه التشيك ضروب العسف والعذاب. وكان يدعو للسلام في الساعة التي أشعل فيها أتون الحرب.

فيا له من خداع لعين، ولكن هتلر لا يزال يشعر بما يريده الشعب الألماني، فهو يتكلم عن الاشتراكية والمساواة والسلام لأن أنصاره، بل الألمان جميعهم، يريدون الاشتراكية والمساواة والسلام.

بيد أن أعماله تختلف عن أقواله، لأن فكرته الجنونية في بسط السيادة على أوروبا يستغلها الوطنيون المتطرفون من كبار الصناع تارة، وأعيان بروسيا تارة أخرى، وكلا الفريقين يستخدم هتلر كما استخدم غليوم الثاني لتحقيق أغراضهما المعهودة. وإني لأرى لزامًا علي أن أنقض المزاعم القائلة بأن هتلر كانت له سياسة واسعة النطاق وخطط موضوعة منذ زمن ترمي إلى عقد الميثاق الروسي الألماني.

وأؤكد على العكس من ذلك أن الحوادث التي وقعت في الشهور الأخيرة تعتبر خذلانا تامًا لمبادئ هتلر الحقيقية، مبادئ هذا الرجل الذي لا تتردد لحظة في وصفه "بأنه المتودد لإنجلترا الذي لم تفهمه هذه الدولة على حقيقته".

وليس في حياة هتلر السياسية سوى أمر واحد جدير بالاعتبار، قد أطلعني عليه عندما قابلته للمرة الأخيرة، وأعتقد أنه لم يتغير مدى السنين العشرة الأخيرة، ألا وهو التحالف مع إنجلترا لبسط السيادة الألمانية على أوروبا: "لنا الأرض ولإنجلترا البحار".

ولقد كنت في عهد اتصالي بهتلر أدون كلماته وأفكاره التي استوقفت نظري واسترعت اهتمامي. ومضيت بعد انفصالي عنه في تسجيل أقواله التي كان ينبئني بها المتصلون به والمقربون إليه، ولذلك فإني على يقين بأن هتلر لم يكن حتى نهاية عام 1938 قد فقد الأمل في الوصول إلى وسيلة للاتفاق مع إنجلترا، وأنه على الرغم مما يؤكده اليوم لا يزال يبغض فرنسا بغضًا شديدًا.

وقد قال لي ذات يوم: "لا يمكن أن يكون في أوروبا إلا دولة كبيرة واحدة، وأن ألمانيا التي تتمثل فيها الآرية النقية هي الدولة الوحيدة التي يجب أن تتبوأ هذا المركز، أما الدول الأخرى فهي خليط من الأجناس فليس لها الحق في أن تسيطر على مختلف الشعوب الأوربية.

وما نحن بحاجة إلى مستعمرات تضطرنا إلى الدخول في نزاع عقيم مع إنجلترا فضلًا عن انعدام الفائدة منها، ثم يجب أن تكون إنجلترا بطبيعة الحال حليفتنا، إذ هناك عاملان جوهريان يبرران ذلك وهما تشابه العنصر واتفاق الفريقين في المصالح. فإذا تركنا البحار لإنجلترا استطعنا أن نستولي على القارة الأوربية. ودع عنك السياسة التي اتبعت قبل الحرب فإني أري أن التحالف بين ألمانيا وإنجلترا يؤدي إلى تجديد العالم وتحطيم فرنسا. إذ يجب أن تسقط هذه الدولة التي يقطنها (العبيد) في مهاوي الانحلال الذي استحقته ألف مرة. وعندما تحين ساعة الحساب بيننا وبين فرنسا ستبدو معاهدة فرساي كأنها (لعبة طفل) بجانب الشروط التي سنفرضها على هذه الدولة ولذلك يجب أن تكون إنجلترا حليفتنا".

ولقد حدثني رجل من حاشية هتلر ظل مخلصًا لي بأن (الفوهرر) كان يقول له بعد أن تولى الحكم: "هذه الجثة المتعفنة التي يقال لها روسيا لن تستفيد فرنسا من التحالف معها، وإذا وقعت الحرب فإننا لن ننتظر ثلاث سنين لعقد صلح مع روسيا كصلح (برست ليتوفسك)، لأن اتفاق اليهود مع الشيوعيين يمكننا من التعجيل بالقضاء عليهم جميعًا".

وقال هتلر بعد أن عقد مع النمسا اتفاقات 11 يوليه عام 1936:

"لابد لنا من الزحف نحو الشرق على الرغم من كل شيء، ولن يكون احتلالنا فيينا سوى مرحلة من مراحل هذا الزحف، ويتحتم علينا أن نحطم الصنم الأحمر الضخم الذي تحمله ساقان ضعيفتان، نعم يجب أن تخرج روسيا نهائيًا من زمرة الدول الأوروبية الكبرى".

وفي سنة **1937** تحدث هتلر حديثًا طويلًا إلى أحد كبار الصناع الأجانب فقال:

"إني لا أهتم كثيرًا بمسألة المستعمرات، وكم أود أن تفهم ذلك بريطانيا، فإذا هي قبلت أن تطلق يدي في الشرق فإني مستعد للعدول عن تكبير أسطولي التجاري، وإني لا أدري كيف لا تفهم بريطانيا أن عدوها الوحيد هو فرنسا؟!".

ولقد قال هتلر في عام **1938** بعد زيارة الدوتشي لبرلين بأيام قليلة:

"إن هناك من يقال لهم وطنيون يتهمونني بالخيانة لأني نزلت لإيطاليا عن منطقة التيرول الجنوبية، ولكني أرى أنه لا ينبغي المضي في النزاع إلى أجل غير محدود، وأن المطالبة بضم التيرول إلى ألمانيا جريمة كجريمة التدخل في سياسة إنجلترا الاستعمارية. ولقد وجد بعض الناس في ثورة الهند خلال الحرب الماضية فرصة للتنديد بإنجلترا، ولكني أعتقد أنه ليس في العالم بلد عدا إنجلترا يحق له أن يحكم الهند كما أني لا أقيم للهنود أي وزن أو اعتبار، ولن يتخلى الإنجليز عن الهند إلا إذا قضي عليهم قضاء تامًا. ثم لو أني وجدت في إنجلترا رجلًا واحدًا مثلي لاستطعت أن أعقد حلفًا بين البلدين، ولأصبحت ألمانيا سيدة أوروبا".

وأخيرًا أبلغ هتلر في أوائل عام 1939 الجنرال (فون فريتش) المحبذ للتحالف مع روسيا ما يلي:

"إن التحالف مع روسيا يؤدي إلى الحرب وانهيار ألمانيا".

فيتضح مما ذكرنا أن هتلر لم يغير شيئًا من آرائه منذ كتب (كفاحي) بمعونة الأب (شتامفل)، وأنه إذا كانت هذه الآراء قد تطورت فإن جوهرها لم يتبدل.

وقد ضعف أمل هتلر بعض الضعف في التحالف مع إنجلترا حين نشرت في فرنسا بدون إذنه طبعة جديدة لكتابه (كفاحي)، وقد منع بيع هذه الطبعة وأمر بإعداد طبعة أخرى منقحة لبيعها في فرنسا. وإذا كانت نظريات هتلر السياسية قد تناولها حقًا تعديل جوهري لكان الفوهرر قد أمر بمراجعة (كفاحي) وتصحيحه للتوزيع في ألمانيا حيث يعتبر هذا الكتاب إنجيل الألمان، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث إطلاقًا، وليس ثمة أقل تباين بين الطبعات التي صدرت عام 1939 وتلك التي نشرت في سنة 1926.

أما العوامل التي كانت تجتذب هتلر نحو بريطانيا، فهي ترجع إلى اعتقاده بأن الصداقة البريطانية وحدها هي التي تمكنه من المضي في تحقيق سياسته الإمبراطورية لبسط السيادة الجرمانية على أوروبا، كما ترجع إلى تعلقه الطائش بالمبادئ العنصرية التي يتميز بها هتلر كما يتميز أنصار (كارل ماركس) بكفاح الطبقات، ولعمري ليس ينجو المتعصبون لهذه المبادئ أو تلك السياسة من الخطأ والضلال في شؤون السياسة الخارجية.

وإني ما زلت أذكر ما قاله لي أحد الدبلوماسيين الإنجليز بعد أن أنبأني بالتليفون أنه قابل هتلر ويرجو أن يجتمع بي، فلبيت رجاءه على أن يسمح لي بأن أحضر معي صديقي (بوخروكر) فقبل واجتمعنا في أحد النوادي، فقال مازحًا: "لقد استقبلني زعيمكم بالانحناء نصف متر، وكنت أحسب أني سألتقي بشخصية كبيرة فإذا بي أمام رجل ينحني كالخدم! وكان معنا (روزنبرج) فتحدثنا بطبيعة الحال عن السياسة الخارجية. ومن عجب أن هذا الرجل المرشح لوزارة الشئون الأوربية لا يعرف كلمة واحدة من اللغتين الإنجليزية والفرنسية! ولقد عرض على هتلر عقد حلف بين ألمانيا وإنجلترا وصاح بحماس "يجب أن تسود الشعوب الشمالية جميع الشعوب الأخرى وتقتسم العالم فيما بينها".

قلت: "وبماذا أجبته؟".

قال: "قلت له أن مشاريعك يا هر هتلر واسعة، ولست أجد لها أي معنى واضح دقيق؛ فإنجلترا بلد قديم له سياسة ثابتة منذ عدة قرون، وفي عام 1801 انتزعنا أسطول الدنمركيين وهم من أهل الشمال وضربنا (كوبنهاج) بالقنابل" وفي سنة 1914 زودنا الهنود السيخ بالسلاح ودفعنا بهم ضد الألمان على الرغم من أنهم من أهل الشمال، فنحن لا نقيم وزنًا لهذه المبادئ العنصرية، ولا ندافع إلا عن مصالحنا الوطنية".

ولكن هتلر لا يدرك إطلاقًا مصالح الشعوب الأخرى لأنه مأخوذ بشهوة جامحة للسيطرة على أوروبا. ولقد اتفق أن اجتمعت بهتلر في "بكلسبوهل" عام 1928 بعد تشييع جنازة والدي. فدار الحديث حول أعلام التاريخ، فعلمت أن الرجل العظيم في رأي هتلر هو الرجل الذي قام بفتوحات كبيرة. ومال بنا الحديث إلى النضال المروع الذي اشتبك فيه (ولنستن) بالكردينال (ريشليو) فصاح هتلر في عنف وحدة! "كلا إن ريشليو لم يكن رجلًا عظيمًا، كما لم يكن لفرنسا سوى رجل واحد عظيم هو نابليون وهو إيطالي".

قلت: "ولكن ما رأيك يا هر هتلر في (رابليه)؟" فنظر إلي مذهولًا ومسح جبهته بيده، فقلت له إن (رابليه) يمثل الحياة الفرنسية السعيدة وفن التمتع بالحياة وما فيها من متع وملذات طيبة، فبدت عليه علامات الاشمئزاز وقال. "دع عنك هذه المهازل وحدثني عن أعلام صادقين".

قلت: "هاك ريشليو وهنري الرابع ودانتون وكليمنصو".

قال هتلر. "هؤلاء رجال تافهون ليس لهم أفكار عظيمة ولا مطامع واسعة فهم ليسوا من زمرة الجبابرة، ولا تتجاوز أحلامهم نطاق نظرهم الضيق".

قلت. "الرجل العظيم هو الذي يعرف كيف يقنع، وهذه هي الخلة الوحيدة التي تميزه عن الرجل الخيالي أو المتهوس والإنسان الذي لا تقف مطامعه عند حد يجري إلى الهاوية فيتردى فيها ويجر معه جميع من يقودهم مثله في ذلك مثل نابليون. وشارك كانت وغليوم الثاني ذلك المريض بحب العظمة".

قال: "ومع ذلك فإن الفكرة القائلة بأن يحكم شعب واحد جميع الشعوب الأخرى هي فكرة متمكنة من نفس كل رجل عظيم. وسوف تنجح ألمانيا حيث أخفق غيرها!".

قلت. "كلا يا هر هتلر. إنك تنكر أولى غرائز الشعوب، ألا وهي غريزة الحرية التي تنتهي دائمًا بالتغلب على من يريد كبتها مهما كانت إرادته. ثم إنك تنسى أن فكرة السيطرة على الشعوب الأخرى هي فكرة تخالف القانون الأساسي للوطنية الاشتراكية".

ولكنه كان مغرمًا بالأفكار البسيطة والصيغ السهلة، فانطلق يوضح لي أن مهمة ولاة الأمر في ألمانيا ستكون خلال الأعوام القادمة تنظيم الرايش على نمط "أسبرطة" القديمة ليتسنى له بسط سيادته على أوروبا، ثم قال.

"سيكون الشعب الألماني وحده شعب المحاربين، ولن يكون لغيره الحق في حمل السلاح. وستكون الشعوب الأخرى عبيدًا لنا ملزمين بالعمل لطائفة المحاربين من الجرمان، في مقابل حمايتنا سلامتهم بحد الحسام. ولن يكون في أوروبا خمس أو ست أو ثماني دول كبرى بل دولة كبيرة واحدة هي ألمانيا".

فعارضته بقولي: "إن مثل هذا المشروع لا يمكن تحقيقه إلا بعد وقوع سلسلة من الحروب"؛ فقال:

"كلا. إن أوروبا قد بلغت من ســـوء الحال مبلغًا كبيرًا. ومع كل لماذا نخشـــى الحرب إذا كان يعقبها سلام دائم تحميه حراب الألمان؟".

قلت. "أنت تعلم أن (أســبرطة) لم تســتطع أن تفرض النظام الدكتاتوري على (أثينا)، وإنما قد ذهبتا بســـبب التشـــاحن فيما بينهما ضـــحية للهمج الأجانب فهل قرأت كتاب (دومستن) لكلمنصو، وهل اطلعت على خطب دومستن السياسية؟ كان يجب على اليونان أن تتحد لتستطيع البقاء، وأوروبا يلزمها الأمر نفسه ليمكنها أن تعيش. والوطني الاشتراكي الصادق يجب أن يكون أوروبيًا أعني متضامنًا مع الأوروبيين".

فقال هتلر: "لا تضـامن في أوروبا، بل خضـوع وطاعة، ولقد فشـلت (أسـبرطة) لأنه لم يكن لها حاكم مستبد. بل كانت محكومة بجماعة من الأرستقراطيين العاجزين".

وبعد فإن المسألة التي تشغل الناس اليوم هي: لماذا رضي هتلر بأن يتحالف مع روسيا بعد أن نفض يده من صداقة إنجلترا؟ ولماذا إنقاذه لوزيره (فون ريبنتروب) الذي ينتمي لأعيان الريف والعسكريين الألمان الذين يمثلون السياسة البروسية؟

يمكننا أن نفهم شـيئًا من هذه المســألة بإطلاعنا على تقرير ســري بتاريخ 12 ديسـمبر سنة 1939 عن الدوائر العسكرية الألمانية؛ جاء فيه ما يلي: "إن ما حدث وما يحدث الآن بشأن بولونيا وروسيا هو نتيجة لسياسة العسكريين وحدهم، ولم يكن هتلر سوى لعبة في أيديهم. أما الجستابو فهي أداة ضرورية للإرهاب والتخويف حتى يستطيع القواد العسكريون أن ينفذوا خطتهم على الوجه الذي يريدونه.

ولما زحف الجيش الألماني على بولونيا كان قواده يعتقدون؛ على الرغم من تصريحات فرنسا وإنجلترا أنهم سيحققون غرضهم سريعًا دون أن ينجم عن ذلك قيام الحرب عامة.

وعندما كانت الحالة لم تصل بعد إلى درجة الوضوح الراهنة، أنهيت إليكم أنه لو كان هتلر أو أنصاره قاموا بأي عمل ضد روسيا لاعتقلوا في الحال وأعدموا بتهمة الخيانة العظمى، ولكن العسكريين لم يضطروا إلى هذا العمل لأن هتلر عرف كيف يختار الطريق الذي يرضيهم قبل فوات الوقت.

ولقد أخبرتكم بأن هناك مفاجآت ينتظر وقوعها، فعيون العالم جميعًا متجهة نحو روسيا التي هي الآن واقفة بأبواب ألمانيا. وتبدو على الناس علامات القلق والاضطراب ما عدا قواد ألمانيا العسكريين فإنهم هادئون مطمئنون، ثم إني لست محتاجًا إلى أن أخبركم برأيهم في الحلف الإيطالي فأكتفي بالإشارة إلى أن المقامات العسكرية تعتبره حلفًا مؤقتًا لتصريف الأمور..".

فيتضح بجلاء من هذا التقرير الضغط الذي قام به رجال الجيش على أدولف هتلر، وهكذا كانت أفكار هندنبورج ما زالت مسيطرة على الرايش. غير أن هذا الضغط لم يكن كافيًا لحمل هتلر على التخلي عن الفكرة التي كرس لها حياته، وعن الحقد العميق الذي كان يضمره للبولشفيك، كما لم يكن كافيًا لجعل أنصاره المقربين يرضخون لإرادة العسكريين؛ لولا ما ظهر من خطأ سياسة هتلر وفكرته. ففرنسا لم تكن بلدًا يقطنه شعب خليط متفكك عاجز عن المقاومة، وهي لم ترد أن تضحي ببولونيا فتقع في الخطأ الشنيع الذي وقعت فيه في (سادوفا).

وإنجلترا لم تتأثر بالصداقة التي كان يظهرها لها أبناء عمومتها الجرمان الذين دأبوا على ترديد صلة الرحم القديمة، كما أنها لم تشأ التخلي عن الاهتمام بشؤون أوروبا في مقابل وعد ألمانيا لها بتركها سيدة البحار، واعتبرت الخطر الجرماني أشد وأعظم من الخطر الفرنسي، ثم أن بولندا أظهرت لهتلر أن حرص الشعوب على الحرية خليق بأن يدفعها إلى المخاطر والمغامرات.

وليس في مقدور الكتب الرسمية من زرقاء وصفراء أن تطلعنا على مدى خيبة الأمل التي أحسها هتلر عندما أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب عليه، إذ كان لا يزال يأمل حتى اللحظة التي وقع فيها الميثاق الروسي أنه لم يقم إلا بإجراء مؤقت، كما أنه لا يزال يعتقد من حين لآخر أنه قد ينجح في كسب إنجلترا بفضل (جيرنج) وصديقه (ستنس).

ولكن هتلر لم يغير شيئًا من أغراضه التي ترمي إلى بسط السيادة الجرمانية على أوروبا، وبما أن إنجلترا لم تفهم فكرته فليكن مصيرها هي أيضًا كمصير الشعوب التي يجب أن تحكم وتستعبد لخدمة المصالح الألمانية.

إن الحب العميق الذي أحمله لوطني وتعلقي الشديد بالفكرة الأوربية وإيماني بأن ألمانيا يجب أن تعيش لكي تعيش أوروبا، كل هذا قد حملني على أن أميط اللثام عن خطط هتلر اللعينة التي يتوسل بها لبسط سيادته على العالم، ومهما كانت وعود هتلر ووعود أصدقائه فإنه لا يبغي إلا شيئًا واحدًا ألا وهو إذلال أوروبا وإخضاعها لسلطانه المطلق والاستبداد بالشعوب الأخرى كما يستبد بالشعب الألماني منذ سنين.

الفصل الحادي عشر

المستقبل ضد هتلر

إن الخطر الذي يهدد أوروبا اليوم من تحالف القوات الألمانية والروسية، كذلك الخطر الذي كان يهددها خلال القرن التاسع والقرنين الثالث عشر والسادس عشر من جانب البخلاء والمغول والأتراك. ولكننا نعلم من تاريخ هذه الحوادث أن الشعوب الأوربية تستمد من أعماق الدين المسيحي وهيامها بالحرية قوة البعث والتجديد التي تمكنها من كسر شوكة البربرية.

وثمة آية مسيحية تقول: "إن الله يبلو من يحب" ومعناها أن الخطر يكون وسيلة لتحقيق السلام، لأنه يوقظ في الفرد والشعوب القوة الحيوية التي تبدو هزيلة منهوكة في عهد الشبع أو المادية أو الفوضى.

ولكن هتلر وستالين لم يدركا قط حقيقة هذه القوة الروحية المجددة، فهما يعتقدان – اعتزازًا منهما بالمادة – أن روح الشعوب قد ماتت، وأن هناك ملايين من البشر تستكين للاستعباد إن هي وجدت ما يكفي لغذاء أبدانها. ولكنهما قد نسيا أن للشعوب مسائل حيوية أخرى عدا كفاح الطبقات وعصبية الجنس والحيز الحيوي، وهي الحرية والشرف والعقيدة الدينية التي لا تزال قادرة على إلهاب حماسة الجماهير وإثارتها في وجه أشد الأخطار وأعظمها هولًا؛ فهتلر وستالين قد أنكرا هذه الحقيقة الثابتة، لأنهما يعدان العقيدة والشرف والحرية كلمات جوفاء لا معنى لها.

وبعد فإن كثيرًا من الأجانب المتتبعين لسير الحوادث قد اغتبطوا أشد الاغتباط بما لحظوه من التطورات التي حدثت في إنجلترا وفرنسا منذ اتفاقات ميونيخ المشهورة، ولكن هتلر لم يشأ الاعتراف بالواقع، وأصر على اعتقاده بأن فرنسا مفككة الأوصال وإنجلترا قد أدركتها الشيخوخة وقعد بها الكبر.

وفي نهاية عام 1937 طلب "فون نيرات" وزير الخارجية إلى سفراء ألمانيا في باريس وروما ولندن أن يبعثوا إليه ببيانات دقيقة صادقة عن الحالة في دول هذه العواصم الثلاث. وكان هتلر لم يعد له منذ ذلك الحين ثقة في وزيره (فون نيرات) وكان هذا الأخير يشكو مر الشكوى من أن الفوهرر لم يكن يستمع إلا لنصائح فون ربنتروب. وإذ تلقى وزير الخارجية البيانات المطلوبة عرضها على هتلر فأثارت غضبه الشديد، وصاح به قائلًا:

"إن بياناتك تناقض الأنباء التي تصلني سرًا، فلماذا هذا التشاؤم الأسود؟ أنا أعلم ماذا علي أن أفعل مع فرنسا وإنجلترا".

وبعد مضي شهرين على هذا الحادث استبدل فون نيرات بفون ريبنتروب.

وكان الكونت "ولزك" سفير ألمانيا بباريس في ذلك الحين منزعجًا بحق من سير السياسة الألمانية في طريق المغامرات فطلب في حوالي منتصف عام 1938 إلى الملحق العسكري بسفارته أن يتقدم إلى الفوهرر ببيان صادق عن فرنسا وجيشها. ولقد جاء في هذا البيان ما يلي:

"إن لهيئة أركان حرب الجيش الفرنسي صفات على جانب عظيم من السمو، والضباط على أتم تدريب وخبرة، والعتاد الحربي والوحدات الميكانيكية خاصة من الطراز الأول. أما الجندي الفرنسي فلم يفقد شيئًا من صفاته التي عرف بها منذ آلاف السنين وفي الجملة يعتبر الجيش الفرنسي في عام 1937 أفضل مما كان في سنة 1917".

ولما اطلع هتلر على هذا البيان استحضر الملحق الحربي وقال له: "سيدي الجنرال إنك ضابط قديم قاتلت سنة 1918 وما زلت متأثرًا بالهزيمة. فيجب أن تفهم جيدًا أن أمريكا هي التي هزمتنا وليست فرنسا، ولقد أكدت الأنباء التي تلقيتها أن الجيش الفرنسي خائر العزيمة مشتت الرأي قد تغلغلت الشيوعية فيه. ولن تستطيع فرنسا إجراء التعبئة العامة دون وقوع اضطرابات شديدة من جانب الشيوعيين. وإذا استطاعت رغم ذلك أن تتم هذه التعبئة فسوف يطلق جنودها النار على ضباطهم بدلًا من إطلاقها علينا منذ المعركة الأولى".

فقال الملحق الحربي: "لا يسعني إلا أن أحذرك من تصديق هذه الآراء، فالبيانات التي تقدم إليك هي بيانات خاطئة خطرة. والشبان الذين كلفتهم بمراقبة الحوادث ليس لهم أية خبرة بشؤون البلاد التي يراقبونها فهم يتكلمون الإنجليزية والفرنسية ولكنهم لا يعرفون فرنسا ولا إنجلترا وهم يتنزهون في شوارع باريس حيث يلتقون ببعض النواب والوجهاء بيد أنهم يجهلون قوة فرنسا وتاريخها وريفها وقوادها".

فقال هتلر: (إني أحرم عليك يا سيدي الجنرال أن تسب أفضل الرجال الذين يساعدونني، فإن عيونهم التي يلمع فيها رونق الشباب ترى ما لا تراه عيون الضباط القدماء الذين أعمتهم الأوهام).

وعلى أثر هذه المحادثة قدم هذا الملحق العسكري استقالته فرفضها هتلر.

وكان الرجل الذي أخبرني بهذا الحديث ملحقًا بالسفارة الألمانية في باريس، وعندما أعلنت الحرب فضل أن يلجأ إلى إحدى الدول المحايدة على أن يعود إلى برلين. ولقد أفضى إلي السنة الماضية بهذا القول: "ليس ثمة وسيلة لفتح عيني الفوهرر، فهو يأبى أن يرى الحقيقة".

قلت: "إذن فهو لم يتغير. وما زلت أذكر أيام كنت أعاونه في العمل أن هيس كان ينصحني قبل دخولي على هتلر بألا أخبره بهذا النبأ أو ذاك لأن الفوهرر لا يحتمل الأنباء السيئة..!".

فهتلر لم يشأ قط أن يفهم الأعمال التي كانت تجري في فرنسا وإنجلترا، كما أنه لا يستطيع بل لا يريد أن يرى التطور الذي ينتاب اليوم روح الشعبين الإيطالي والإسباني، وهو إلى ذلك لا يريد أن يحسب حسابًا للتبدل العميق الذي طرأ على روح الأمة الألمانية.

ومع ذلك فإن مشكلة "هتلر وألمانيا" لها أهمية كبيرة من الوجهة السياسية والأدبية والتاريخية والجنسية، فهذه الدكتاتورية الهتلرية جاثمة على صدر ألمانيا كطبقة سميكة من الجليد فوق النهر تستمد نموها من مياهه. وتظل تنمو وتقوى طالما تغذيها هذه المياه وتحملها. ولكن سيأتي يوم ينفصل فيه الماء عن الجليد فيكون فضاء بينهما لا تستطيع العين رؤيته، ويبدو الجليد كأنه لا يزال قويًا متينًا كما كان ولكن ضربة فأس واحدة كفيلة بكسره وتهشيمه..

إن هذين المليونين من الألمان الذين زجهم هتلر في ظلمات السجون هم أول من حاربوا وجرحوا في حرب مقدسة شنوها على وباء شرير لم يتبين خطره كثير من الألمان ولا الشعوب الأوربية إلا بعد مضي وقت طويل، فاليوم فقط شعر العالم كله بهذا الخطر الشديد، ولكن يجب أن نذكر أن فريقًا من الألمان ذوي النظر الثاقب، قضوا قبل ذلك أعوامًا عديدة يكافحون هتلر وستالين. وما استيقظت أوروبا من سباتها العميق إلا بعد الميثاق، وظهور النزعة البروسية الحربية في وضح النهار.

ولقد تجلت روح العسـكريين الشـريرة وأغراضـهم الوحشـية في البيان الخاص بالجيش الألماني والذي ذكرنا جانبًا منه في الفصـل السـابق، وفيما يلي جزء آخر من هذا البيان الخطير:

"إن العسكريين الألمان لم يخشوا قط خطر البلشفية، بل على العكس من ذلك يرى بعضهم في هذه البلشفية نظامًا مجيدًا لأنهم يعلمون أن عهد (لينين) قد انقضى، ولقد درسوا شؤون الروسيا وعرفوها أحسن مما عرفها كثير من الكتاب الذين وضعوا كتبًا عن البلشفية، وهؤلاء العسكريون الألمان يعلمون أيضًا أن ولاة الأمر في روسيا يؤلفون طبقة ارستقراطية جديدة.. نعم لقد ألغيت الملكية الخاصة، ولكن ما هي نتيجة هذا الإجراء؟ إن طائفة الحكام في روسيا تسيطر على شؤون الدولة وتعيش في رغد وهناء، وهي تهيمن على أداة قوية للحكم تستند على عكس النظام النازي، إلى مثل أعلى ولئن كانت مبادئها قد لطفت بعض الشيء فإنها سائرة في طريقها.

ولن يجد العسكريون الألمان غضاضة على أنفسهم إذا اعتدى الروس على حرمة الأراضي الألمانية، ولكنهم لن يترددوا قبل حدوث ذلك، في أن يطلقوا الثورة من عقالها رغم الحرب، ولكنها ثورة تهب من أعلى، ويخيل إلي أنها بدأت فعلًا.

وقد يشهد العالم اشتراك الروس والألمان في نظام جديد قوامه الوطنية البلشفية يهدد الدول الواقعة غرب الحدود الألمانية، وعندئذ يتسنى للمستر "تشمبرلين" أن يرى حرب المبادئ التي لم يشأ إثارتها في الوقت المناسب.

ولقد اعترف العسكريون الألمان خلال الحرب الماضية بأن الفكرة المناهضة للرأسمالية خليقة بأن تغير وجه العالم، ثم ماذا يكون موقف الشعب إذا عمدت الحكومة الألمانية إلى محاكمة أصحاب المصانع الكبرى أو قتلهم ووضعت يدها على مصانعهم وأملاكهم كما حدث ذلك في روسيا.

وما من شك في أن العسكريين يستطيعون بهذا الإجراء كسب ثقة المعارضين واستخدامهم لتحقيق خططهم الحربية، كما يستطيعون إثارة الاضطراب والفتن في البلدان الأخرى إذا استغلت الدعاية هذه الإجراءات بمهارة وذكاء. فالبولشفية لا تهدد العسكريين قط؛ بل هم يفضلونها على الاشتراكية "ذات المبادئ السلمية السقيمة". فإذا استطاع القواد الألمان أن يصبغوا البلشفية بالصبغة الألمانية فإنهم يكونون قد حققوا أمنيتهم الغالية التي يرون خلاصهم في تحقيقها؛ فكثير منهم لا يهتمون بنوع النظام الحكومي ما دام في استطاعتهم أن يمضوا في القيام بدورهم.

ويجب ألا نغفل عن هذه الحقيقة. وهي أن الضابط الألماني البروسي لم ينشأ ليكون أداة للحكومة البرجوازية كما هي الحال في فرنسا وإنجلترا؛ فالقواد الحربيون كانوا محتاجين لهتلر ليستعينوا به على تحقيق أغراضهم ولقد تحملوا أشياء كثيرة خلال السنين الأخيرة في هذا السبيل.

ولكن هذا العهد قد انقضى، وأصبح العسكريون اليوم هم الذين يديرون دقة الأمور في ألمانيا، فالحرب يجب أن توجه ضد إنجلترا لأنها العدو الذي يضايقهم في الوقت الحاضر. وهي حرب حياة أو موت، ولكنهم يعتقدون أنها ستكون بالنسبة لهم أفضل مما كانت سنة **1914**.

ولقد أشرت إلى محاكمة كبار الصناع وإعدامهم ولكني أعتقد أن العسكريين سيذهبون إلى أبعد من ذلك، فهم يعلمون القوة التي تنطوي عليها الفكرة الاشتراكية كما يعرفون "عداء الجماهير للرأسمالية" فإذا هم أرادوا كسب الحرب فلا بد من أن يتقدموا إلى الشعب ببرنامج يبرر التضحيات العظيمة التي تفرضها عليه هذه الحرب. وهنا يمكننا أن نتوقع حدوث مفاجآت عجيبة.

ثم ماذا يكون موقف الدول الغربية لو قدم أثرياء النازي إلى المحاكمة بتهمة اتصالهم بحكومات أجنبية لإنقاذ الرأسمالية؟ وماذا يكون رأي هذه الدول إذا نشر العسكريون أوراقًا تثبت اتصال الرأسماليين في هذه الدول بكبار الصناع والرأسماليين في ألمانيا؟ إن هتلر يشعر بالخطر الذي يهدده من هذه الناحية، ويعلم أن كبار النازي سيكونون في طليعة الضحايا".

وبعد فإن المخاوف التي تثيرها نوايا العسكريين البروسيين في نفوس الأوربيين الصادقين يجب ألا تعطل كفاحنا في سبيل الحرية بل ينبغي أن تحملنا على مضاعفة الجهود حتى تستطيع مقاومة الشر ودحره. وإني أطلق كلمة (أوروبي) على كل إنسان في أوروبا يشعر في قرارة نفسه بقدر الصلة المسيحية والتاريخية وبقيمة الروابط الثقافية والاقتصادية التي تربط مختلف الدول الأوربية بعضها ببعض. ولقد كانت ألمانيا على الدوام عضوًا من أعضاء هذه الأسرة الكبيرة، ويجب أن تظل كذلك بل يجب أن تصبح عضوًا رئيسيًا حتى لا تنتهي أوروبا عند الرين فتنتفي عنها الصفة الأوربية. ولقد زعموا أن الشعب الألماني كله ينصر زعيمه هتلر!!

فمن هم الذين أذاعوا هذه المزاعم؟.. أذاعتها صحف النازي ومحطاته اللاسلكية ووكلاؤه المنتشرون في جميع أنحاء العالم؛ فيجب ألا ننخدع بأقوالهم وبالعبارات الحماسية التي نسمعها أحيانًا من أفواه بعض السجناء من الشبان الألمان، إذ الحماسة خلة من خلال الشباب، وهؤلاء الفتيان لم يعرفوا أحدًا عدا هتلر. فالحق أن الشعب الألماني يريد الثورة الألمانية، أعني الثورة الوطنية الاشتراكية. إنه يريد المساواة والحرية في الداخل أي الإدارة الديمقراطية المستقلة. إنه يريد الحرية في الخارج أي نفس الحقوق التي تتمتع بها الشعوب الأخرى.

إن الشعب الألماني يريد نظامًا جديدًا في السياسة والتشريع والاقتصاد. إنه يريد السلام في ألمانيا وأوروبا وفي العالم كله. ألست واحدًا من هذا الشعب الألماني كأدولف هتلر؟.. أليست هذه الملايين من العمال والفلاحين والكاثوليك جزءًا من الأمة الألمانية؟ ألم يكن المجاهدون من أعضاء الجبهة السوداء ومن الضباط البواسل كالقس (نيمولر) والكولونيل (ماهرون) ألمانيين ومن صميم الشعب الألماني؟

لقد تكلمت أمام الملايين من الألمان وقرأ مقالاتي مئات الألوف من أنصار هتلر كما قرأ كتبي عشرات الألوف من بني وطني، فإني أعلم بل أؤكد أن آلافًا من الألمان لم يتبعوا هتلر إلا لاعتقادهم أنه يحمل علم الثورة الألمانية، ولكني واثق من أن جميع الألمان الوطنيين الصادقين سوف ينبذون هتلر حين يستبينون جليًا أنهم خدعوا فضلوا سواء السبيل، وليس هذا ببعيد إذ أمام هذا السؤال الخطير: "هتلر وألمانيا" لن يتردد أي ألماني في أن يجيب بأعلى صوته "ألمانيا، وألمانيا فقط".

نعم يجب أن يضع الشعب الألماني نصب عينيه على الدوام هذه المسألة الخطيرة: هتلر وألمانيا. وينبغي أن تكون شغله الشاغل وهمه الذي يهز نفسه هزًا ويعكر صفو لياليه وهدوءها. فمن يحب ألمانيا يثور في وجه هتلر. بل يجب أن تتحد أوروبا وألمانيا في هذه الثورة وفي هذا الكفاح إذ من الفوضى الألمانية تتولد الفوضى في أوروبا جميعها.

ولكن يجب أن تتغلب ألمانيا نفسها على عناصر الشر التي تعيث فيها فسادًا، كما يجب أن تقرن هزيمة هتلر بدحر النزعة البروسية اللعينة نعم يجب انتهار البروسية على يد ألمانيا ذاتها بفضل قوة العقيدة المسيحية بمعونة الحلفاء الذين اتفقوا على الوقوف في وجه الخطر البروسي البولشفيكي المرعب.

فلتهزم بروسيا لأن هزيمتها تؤدى إلى إحلال الحق محل القوة، واستبدال الحكم المطلق بنظام الاتحاد التعاوني، والسيطرة على أوروبا بتأليف اتحاد أوربي. نعم يجب أن تدحر بروسيا وتقسم ألمانيا إلى ولايات مستقلة استقلالًا ذاتيًا تحكمها السلطات المحلية ولها الحرية في أن تعيش وفقًا لتقاليدها الإقليمية. فإذا دحرت بروسيا هذه استطعنا أن نقتلع جذور الروح العسكرية فقضينا عليها وعلى العصبة التي تتألف من أعيان الريف وكبار الصناع المتعصبين، ويجب أن تقسم المزارع الكبيرة إلى أقسام صغيرة، وأن تصير المصانع الكبيرة ملكًا للدولة، وأن يصلح نظام التربية والتعليم في ألمانيا.

هذه هي الثورة التي تهز ألمانيا منذ عشرين عامًا. ولقد مرت بمرحلة التحضير بين عامي **1920** و**1930**، وبفترة الهدم أو النظام الهتلري بين سنتي **1930** و**1940** وها هي على أبواب المرحلة الثالثة أي مرحلة البناء، ولقد كان هتلر شيطان الهدم في ألمانيا؛ فهو رمز المرحلة الثانية من مراحل الثورة.

ولكن هتلر لم ينفك منذ منتصف عام 1939 عن التحدث بموته القريب، فهو يشعر بأن عهده قد انقضى، وساعته أوشكت أن تدق، وستموت بموته سياسته ومبادئه. وسواء مات هتلر بسرطان في الحلق كما صرح بذلك الطبيب الكبير البروفيسور (زوربروخ) لأحد أصدقائي في 15 ديسمبر 1939 أو لقي حتفه على يد أحد أنصاره كما تنبأ بذلك "هوجنبرج" حين فصله هتلر من الوزارة التي تألفت في يونيه 1933 على الرغم من أنه وعد بشرفه ألا يتناول هذه الوزارة بأي تعديل قبل مضي أربعة أعوام. ولن أنسى ما حييت ما قاله لي أخي جريجور في آخر حديث دار بيني وبينه قبيل رحيلي إلى النمسا. قال: "سوف ينتهي أدولف بأن يقتل نفسه".

قلت: "ولكني أعلم أنه ممثل ماهر ومغرور متكبر فلعل عددًا كافيًا من المتفرجين يشهدون مصرعه ويشيعونه بالتصفيق والتهليل!".

وبعد فإن القوات التي في مقدورها أن تدحر هتلر وستالين وتقضي على البروسية والشيوعية هي قوات أوروبا المتمدنة وألمانيا الجديدة.

الفهرس